

السَّلَفِيَّةُ

بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية

د. مصطفى حليم

أستاذ بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة

دار الدعوة

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع منشأ - محرم بك - القاهرة

قال تعالى :

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ آلِ الْبَيْتِ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ »
قال تعالى :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصِيَّتُكُمْ
بِهِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾ »

١٥٣ الانعام

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

سبق أن عرضنا لقواعد المنهج السلفي في الفكر الاسلامي وشرحنا أبرز معالمه^(١) وسنعالج في هذا الكتاب أسباب العدوى المنتقلة إلينا من الغرب في تقسيمه للتاريخ الى قديم وأوسط وحديث^(٢) لنبين الاختلاف الجذري بين مفهوم (السلفية) بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية .

ان المصطلح — من وجهة نظر الفلاسفة الغربيين — له مدلوله الخاص ، كما سنوضح بعد قليل ، ولا صلة له بمثيله في دائرة الفكر الاسلامي ، لا من حيث المصطلح ولا من حيث المضمون .

فمن حيث المصطلح ، أصبحت « السلفية » علما على أصحاب منهج الاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الاولى ، وكل من تبعهم من الائمة ، كالأئمة الاربعة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينه ، والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك ، والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن ، وشمل شيوخ الاسلام المحافظين على طريقة الاوائل ، مع تباين العصور وتفجر مشكلات وتحديات جديدة أمثال ابن تيمية وابن القيم

(١) ينظر كتاب (قواعد المنهج السلفي) حيث اجتهدنا في استقراء هذه القواعد وحددناها بما يلي :

- ا — اتباع السلف الصالح في تفسير النصوص وفهمها .
 - ب — رفض تاويلات المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة والفرق الاخرى .
 - ج — الاستدلال بالاساليب والبراهين المستخرجة من الايات القرآنية بدلا من استحداث الطرق المبتدعة بواسطة علماء الكلام والفلاسفة وغيرهم .
- (من ص ٢٥ الى ص ٦٦ — بالكتاب الانف الذكر ، ط دار الانتصار بالقاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م) .

(٢) تقسيم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث تم بواسطة اساتذة جامعة كامبردج . (كولون ولسون . سقوط الحضارة ص ١٣٤) .

ومحمد بن عبد الوهاب وكذلك أصحاب أغلب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقيا وسوريا (وكانت ذو أثر واضح في تنقية مفاهيم الاسلام ودفعه الى الامام لمواجهة الحضارة والتطور ، والكشف عن جوهر الثقافة العربية الاسلامية الاصلية القادرة على الحياة في كل جيل وكل بيئة) (٣) .

ومن حيث المضمون ، تعنى السلفية في الاسلام التعبير عن منهج المحافظين على مضمونه في ذروته الشامخة وقمته الحضارية ، كما توجهنا الى النموذج المتحقق في القرون الاولى المفضلة ، وفيها تحقق الشكل العلمى والتنفيذ الفعلى ، ومنه استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة في العقيدة خضوعا للتوحيد ، وبياننا لدور الانسان في هذه الحياة ، وتنفيذا لقواعد الشريعة الالهية بجوانبها المتعددة ، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وروابط الاسرة وفضائل الاخلاق .

والسلفية كمصطلح تعنى أيضا في مدلولها الخاص — الاقتداء بالرسول ﷺ ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى في الماضى أو الحاضر أو المستقبل — تلك هى تحقق القدوة في شخصه — صلوات الله عليه — اذ حفظت سيرته كاملة محققة بكافة تفاصيلها فنحن نعلم عنه كل شئ وفقا لما نقل اليه في كتب وعلوم مصطلح الحديث بأدق منهج تاريخى علمى عرفه المؤرخون .

وهكذا فان السيرة النبوية حية في كياننا ، ونحن نعيشها كل يوم (٤)

(٣) أنور الجندى — الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص ٤٩ — مطبعة الرسالة بدون تاريخ .

(٤) حسين مؤنس — الحضارة ص ١٢٥ — من سلسلة (عالم المعرفة) — المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

وهي تمثل القمة للسلفيين • وتطبيق الشريعة الاسلامية ممتد على طول الزمن لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل أن كل جيل من المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النصية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة أحوال الحياة المتغيرة كما هو معروف في أصول الفقه •

وقد ظهر الاصطلاح في مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها في تاريخنا العقدي والثقافي . فبدأ التمييز بين المثبتين للصفات الالهية وبين النافين لها • كما ذكر مؤرخ الملل والنحل — الشهرستاني — وظهر أيضا للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة • كما أصبح علما في العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب • وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربي ، فان مما يلفت النظر أن ماسينيون — المستشرق الفرنسي الشهير — وكان تابعا لوزارة انخارجية الفرنسية — أخذ يرقب الحركة السلفية بواسطة الامام عبد الحميد بن باديس ، ثم حذر قومه في فرنسا مما سماه بحركة (السلفيين المتشددين) وما هي في حقيقتها الا انتفاضة اسلامية تبغى التخلص من نير الاستعمار الغربي ، وقد أعطت هذه الحركة لمفهوم السلفية بعدا جديدا في عصرنا الحاضر ، اذ أخذت على عاتقها كما فعلت الاجيال السابقة من أصحاب نفس المنهج — المحافظة على أصالة الامة الاسلامية في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها حتى لا تتميع أو تهتر تحت ضربات الغزو الاجنبي •

ولم تكن هذه المرة الاولى لظهور السلفيين بهذا المظهر ، اذ حدث أيام الاشتباك العقلي مع خصوم الاسلام ، وكان الاسلام حينذاك في الموضع المهاجم المكتسح بفضل استمساك أتباعه به ، ويملكون العناصر الحضارية الاسمي ، اذ عندما نقل الفكر الغربي اليوناني ، أخذوا في دراسته وتحليله

ومناقشته ورد أباطيله ثم قيس ذلك كله مقياس العلم الاسلامى ومحك النقد الدينى ، فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض^(٥) وكان الرفض ظاهرا أكثر من غيره في دوائر علماء السلف ، محافظة على شخصية الامة وأصالتها .

أما هذه المرة — أى في العصر الحديث — فقد جاءنا الغرب فاتحا مستعمرا وحاكما مستعبدا ، ففرض علينا لغته وفلسفته وتشريعاته ونظمه في الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وكان من أبعد الخطوات أثرا في حربه ضدنا أن أخذ علماءؤه في تقليب صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسيء الى الاسلام كما عرفه سلفنا الصالح وطبقوه ونفذوه ، فأعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وغيرهم ، الى احياء أو تحبيذ نحل ومذاهب مختلفة ، إما بأسمائها المعروفة بها كالاسماعيلية أو الباطنية أو تحت أسماء جديدة كالبهائية أو القاديانية والعلوية^(٦) ، وبعث الالهاد من جديد وراء ستار العلمانية والماركسية والدارونية ، مع نشر فكرة وحدة الاديان أو التقريب بينها وإزالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة ، والباطل بصوره المتعددة المتضاربة .

وإزاء كل هذه الخطط والمحاولات ، فلن يظهر زيف هذه العقائد والنحل الا بطريقة السلف أنفسهم ، مهما تغيرت الازمنة والاعصار ، لأنها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية ، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة ، فهناك مسائل ثابتة لا تتغير ، كقطرة التوحيد ومخاطبة العقول

(٥) علال الفارسي : دفاع عن الشريعة ص ٨٧ — منشورات العصر الحديث — بيروت ١٩٧٢ م .

(٦) سيجد القارئ في الفصل الثالث بيانا وافيا لهذه النحل .

البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة محمد ﷺ بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى كل ما انحرغوا به عن الشرع المنزل ، مع دحض شبهات الملحدين والمشرىين •

هذا فضلا عن ثبات الفضائل الاخلاقية ، وقواعد التحليل والتحرىم فى المأكى والمشرى والملبس ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى الاسرة والمجتمع ، واقامة العلاقات الدولية مع سائر الامم وفقا لاصول الشرع ، ولقد أصبحت الحركة السلفية ، هى الحركة الكبرى التى جددت الدعوة الاسلامية ، ولولاها لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيا وفكريا الى أمد بعيد (٧) •

وفى ضوء ما تقدم سنعرض للموضوعات المثارة حول السلفية منهجيا وموضوعيا على امتداد أربعة فصول وهى :

- الفصل الاول — السلفية وفق التصور الغربى •
- الفصل الثانى — السلفية والحضارة الاسلامية •
- الفصل الثالث — المفارقون لطريقة السلف والسنة •
- الفصل الرابع — هدف السلفية وضوابطها •

الفصل الاول

السلفية وفق التصور الغربى

— مقـدـمة

— السلفية فى التفسير الحضارى (أرنولد توينبى)

— فى التاريخ والاجتماع البشرى (كونت وقانون الاحوال الثلاثة

— السلفية والايديولوجية الماركسية

— السلفية فى الفكر الفلسفى الغربى

مقدمة :

تتضافر عدة فلسفات ونظريات على معاداة كل ما هو (سلفى) عندهم
في الغرب بالمدلول التاريخي أو الفلسفي أو الحضارى .

وليس شريطة أن نجد لفظ (السلفية) واردا في كتابات الفلاسفة
والمؤرخين في الغرب ولكن نستخلص من (روح) بعض المذاهب وإيجاءاتها
عداء ونفورا — كما سيتضح لنا — لكل ما يشير إلى السلف بالمعنى التاريخي
مع تفاوت في التعبير عن هذا المضمون اما صراحة أو ضمنا .

ويقتضى عرض أفكار أبرز آراء الغربيين تبويبها وفقا للتبائن التالية :

ورد لفظ (السلفية) صراحة في كتابات أرنولد توينبى وبعض
الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر الميلادي كرد فعل لماسى الثورة
الفرنسية وآثارها المدمرة على المجتمع والدين والاخلاق .

ولكن ظهر المعنى مستورا في افتراضات (أوجست كونت) فان
تقسيمه للمراحل التي مرت بها الانسانية وفقا لقانون الاحوال الثلاثة يحمّل
مدلول افتراض أن تاريخ العالم يسير قدما الى الامام ، وأن المرحلة القادمة
أرقى من الحالية أو السابقة ، وبتأثير ذلك الافتراض ظهر اصطلاحات
(انسان القرن العشرين) ، والرقى المتوقع للعالم سنة ألفين وكان
السنوات القادمة باعتبارها معبرة عن المستقبل كفيلة بحل المشكلات ، وكان
معيار التقدم والتأخر أصبح يقاس بالسابق واللاحق ، وأيضا فكل من عاش
في (الماضي) فهو (متأخر) و (رجعى) ، وعلى العكس فان أهل القرون
القادمة أكثر رقىا . .

ونجد نفس المدلول في الفلسفة الماركسية التي تتوقع تحقيق نظامها
الاقتصادي والسياسي في المجتمع وفقا لقانون التناقض الهيجلى ، الذي
يفترض أن كل ما هو آت متطورا عن سلفه وهكذا .

والمحديث تفصيل وايضاحات مسنفرده الصفحات القادمة ،
وسنعرضها وفقاً للترتيب التالي :

أولاً — السلفية في التفسير الحضاري (أرنولد توينبي) •

ثانياً — في التاريخ والاجتماع البشري (كونت وقانون الصالات
الثلاثة) •

ثالثاً — السلفية والإيديولوجية الماركسية •

رابعاً — السلفية في الفكر الفلسفي العربي •

أولا : السلفية فى التفسير الحضارى

ان أردنا الوقوف على مدلول (مصطلح السلفية) الشائع الان فى مؤلفات التاريخى والحضارى ، فان أماننا التعريف الذى ارتضاه المؤرخ الانجليزى الشهير « أرنولد توينبى » ، وسندرك بعدها الى أى حد امتد مفهوم السلفية الجنا ، فأصبح البعض منا يردده بنفس التعريف والتصور . وسنناقش رأيه لنصل الى مفهوم السلفية فى تاريخنا الاسلامى .

يرى المؤرخ البريطانى أن السلفية تعنى :

أولا : ارتدادا من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة الى محاكاة أسلاف القبيلة . وبعبارة أخرى تعد السلفية سقوطا من الحركة الدينامية للحضارة الى الحالة الاستاتيكية التى يشاهد عليها الانسان البدائى فى الوقت الحاضر .

ثانيا : محاولة من المحاولات تبذل عند حدوث توقف اضطرارى لحركة التغيير ، وينتج عن المحاولة ردائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى نجاحها .

ثالثا : أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ (تثبيت) مجتمع منهار متطلبا وهذا التثبيت هو الغاية المألوفة لواضعى (نظم المدينة الفاضلة) . ويستطرد ليشرح المجالات التى تعبر فيها السلفية عن نفسها ، فهى فى مجال السلوك تظهر فى :

أولا : فى شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة أعظم من تعبيرها عن نفسها فى شكل أساليب لا تتصل بالوجدان .

ثانيا : تعبر عن نفسها فى المجال اللغوى فى معان تتصل بمنهاج ونمط يشهمن بالشفسطة .

ثالثا : وفي ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ملاحظة نزعة السلفية فى نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية .

فان الحركة الإنجليزية الكاثوليكية تقوم مثلا على الاعتقاد بأن الإصلاح الدينى تم خلال القرن السادس عشر ، وحتى فى صورته الانجليكية المعتدلة ، قد ذهب فى تطرفه مدى بعيدا ، ومن ثم تهدف الحركة الى استعادة استخدام آراء ولطقس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هجرت وألغيت منذ أربعمئة سنة الغاء نجزوه الى عدم التبصر^(١) .

ومادام الحديث متصل بالتفسير الحضارى فاننا نحب توجيه عناية القارىء الى تأثير بعض الكتاب والباحثين بأفكار توينبى - أو التفسيرات الفلسفية الغربية والشرقية بوجه عام - فظنوا اننا عندما نتكلم عن (السلفية) فهو عين ما يذهب اليه فلاسفة الغرب ومؤرخيه ومنهم توينبى .

ولكن الحقيقة انه شتان بين تصور توينبى وأتباعه وبين مانقصده نحن اعتماداً على الدراسة الفاحصة والنظرة المقارنة ، مع الاعتماد أيضا على لب نظريته التفسيرية لخط سير الحضارات ، ومنها الحضارة الاسلامية .

وسنرتب أفكارنا وفقا للإيضاحات الآتية : -

١ - ذاتية الحضارات : فما يصدق على حضارة لا يصدق على غيرها . واذا استندنا إلى تفسير تاريخى آخر لأحد المستشرقين وجدناه ، يلفت النظر إلى حقيقة مغايرة تماما حيث يقرر (هاملتون جب) ان التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الاوربى على نحو يثير الاستغراب حيث قال :
(كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلا : فبينما خرجت أوروبا ، على نحو متدرج لاشعورى ، وبعد عدة قرون ، من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، انبثق الاسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة

(١) توينبى : مختصر دراسة التاريخ ج٣ ص ٢٦٠ ومن ص ٢٨٥ الى ٣١٨

تكاد تعز على التصديق ، فى أقل من قرن من الزمن ، امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الابيض المتوسط الجنوبية والغربية) * .

٢ - يعترف توينبى بأن أصول الحضارة الاسلامية لازالت حية ، وأن الاسلام يؤدى دوره الروحي العظيم حتى الآن .

٣ - ان القاعدة مضطربة بين الحضارة الاسلامية وعقيدة التوحيد ، حيث يتبين وصول هذه الحضارة إلى الذروة عندما التزم المسلمون بهذه العقيدة وحققوا أثارها فى أنفسهم وفى العالم حولهم ، وبالعكس فان اسباب تأخر المسلمين وانحسار حضارتهم ترجع فى المقام الأول إلى الانحراف عن فهم الاسلام وتطبيقه عما فعله السلف .

والى القارىء عبارة (ماكس مايرهوف) الذى يقول فيها (ان منبع القوة الحقيقى عند العرب المسلمين وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل فى التاريخ ، ان العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد صلى الله عليه وسلم أصحاب دين ورسالة فبعثوا بعثا جديدا ، وخلقوا من جديد ، وانقلبوا فى داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ماكانوا) ** .

أضف الى ذلك ان توينبى يجعل الدين أصلا جوهريا فى تفسيره لنشأة الحضارات واستمرارها ، يقول فى أحد كتبه (فان الدين هو الأمر الخطير الذى يهم الجنس البشرى) *** كما يعترف ان الاسلام مازال يؤدى رسالته الروحية العظيمة كما بينا ، فهو اذن لم يتوقف .

واذا استخدمنا طريقته نفسها فى تفسيره لقيام الحضارات وسقوطها ، فسيتضح لنا صحة رؤيتنا لظهور حضارة المسلمين وانحسارها بنفس ميزانه :

والى القارىء فكرته الرئيسية فى هذا الصدد حيث يرى (ان الحضارت تبرز إلى الوجود وتسير فى طريق النمو اذا استطاعت أن تستجيب بنجاح إلى

(*) هاملتون جب دراسات فى حضارة الاسلام ص ٤ ترجمة د / احسان عباس ود / محمد نجم ود / محمود زايد ط دار العلم للملايين مؤسسة فرنكلين بيروت - نيويورك ١٩٦٤ م

(**) فى كتابه (العالم الاسلامى) نقلا عن المد والجزر فى تاريخ الاسلام للشيخ الندوى ص ٤٨ ط ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م بيروت الشركة المتحدة ، دمشق دار القلم

(***) (أرنولد توينبى - الحضارة فى - الميزان ص ٩٣ .

ترجمة امين محمود شرف - مراجعة محمد بدران - الادارة العامة للثقافة وزارة التربية والتعليم قسم الترجمة - ط عيسى البانى الحلبي وشركاه

ضروب التحدى المتوالى الذى يواجهها وهى تنهار وتذهب ريحها اذا فشلت فى مواجهة هذا التحدى وحينما تفشل فى مواجهته) * .

وعندما نطبق هذه القاعدة الأصولية فى نظريته عن الحضارت ، نراها تتحقق تحققا يكاد يكون ملازما لها منذ ظهورها فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفى العصور التى واجهت التحديات فى منعطفات تاريخنا الهامة كالحروب الصليبية وحروب التتار ومقاومة الاستعمار الحديث .

اذن فان كلمتنا الأخيرة لأصحاب التفسيرات المتقيدة بالنظريات الفلسفية الغربية نقول فيها :

ان الاسلام ينفرد كدين وحضارة بميزتين فى مجال المقارنة بين تاريخ الاديان ** والحضارات هما :

اولا : ان اصوله لم تمتد اليها يد التحريف .
ثانيا : بالرغم من انحسار تيار الحضارة الإسلامية فى فترات متقطعة فى تاريخها ، الا ان الإسلام كعقيدة وعبادات وشرائع ظل يحيا فى أفئدة المسلمين ، وتظهر فعاليته على ايدى حركات المصلحين والقادة والمجددين والعلماء الذين لم يخل منهم عصر من العصور قط ، فحتى فى أحلك العصور عندما كان يختفى الاسلام كنظام سياسى يبقى فى صدور الرجال وفعالا على ايدى علماء المسلمين وقضاتهم وفقهائهم .

والواقع أن تاريخ الحضارت كما هو معلوم لا يقتصر على التاريخ السياسى فحسب بل يشمل العقائد والعلوم والنظم والآداب والفنون وحركة الفتوح ومدى الفعالية المؤثرة فى غيرها من الحضارت والأمم ايجابا وسلبا . وتاريخ الحضارة الاسلامية من هذه الزاوية زاهر بألوان من الحركة والفعالية ، بحيث يمكن القول بان تاريخها لم يتوقف ربما يخمد ولكنه لم ينقطع لأنه يعتمد اساسا على عقيدة حية تغذى العقل والوجدان وتدفع الإنسان للحركة والتدقق اعتمادا على الايمان بالله الواحد الأحد ، وأملأ فى حياة خالدة اذا ما استوفى المسلم

* . منه ص ٦٢

**) لمزيد الايضاح ينظر كتابنا (الصحوة الاسلامية عودة الى الذات) ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤١٠ هـ

شروطها واستجاب لمتطلباتها ، ومنها السعي الحثيث والعمل الصالح وبيان ذلك اذا شئنا الاجمال يتضح جليا في استمرارية الأمة الاسلامية بالرغم من الخطوب والكوارث التي ألمت بها ، فانه عقب سقوط بغداد انتقلت الخلافة إلى القاهرة ، ثم ظهرت الخلافة العثمانية بعد فتح القسطنطينية . وبعد سقوط الاندلس ظهرت الدولة الاسلامية في الهند .

ثانيا : التصور السلفى فى التاريخ والاجتماع البشرى

(كونت وقانون الحالات الثلاثة)

أطاحت الثورة الفرنسية بالنظام الاجتماعى القديم ، ووجهت الى الديانة المسيحية ضربة قاصمة ، فتمكنت كونت (١٨٥٧م) رغبة ملحة فى الإصلاح والتعمير بعد الدمار الذى حاق بفرنسا بعد ثورتها المدمرة . ورأى كونت انه ينبغى على التفكير الفلسفى النظرى أن يتجه الى المشاكل الدينية والاجتماعية ، وكان يهتم اهتماما شديدا بالامور الاجتماعية ثم العلم (٢) . وأخذ يبذل جهده لاعادة تنظيم العقائد (أى لكى يستعيف عن العقيدة الموحى بها التى انتهت جدوتها الى الركود بعقيدة يقوم عليها البرهان) ، وبخلاف ذلك اعتقد أن العلوم الوضعية ستصبح أصلا للايمان المستند الى البرهان ، وكلما تقدم الانسان فى الدراسة الوضعية للظواهر فانه سيمترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية ، لانه سيتضح أن الظواهر خاضعة للقوانين . فالمعرفة الحقيقية تنصب على الظواهر وقوانينها .

وقد تطلع أوجست كونت الى تأسيس علم الاجتماع أو ما سماه (علم الطبيعة الاجتماعية) الذى سيقضى على سبب وجود اللاهوت والميتافيزيقا (٣) ويمسح بالانتقال من العلم الوضعى الى الفلسفة الوضعية فتتحقق بذلك وحدة العقل ، فيؤدى ذلك الى الانسجام الخلقى والدينى للانسانية . ومقتضى تصور كونت اذن هو الماضى قدما من حال الى حال وفقا

(٢) ليفى بريل — فلسفة اوجست كونت ص ٢٢ ترجمة د. محمود قاسم
و د. السيد بدوى — مكتبة الانجلو بدون تاريخ .
(٣) نفس المصدر ٣١ .

القانون المسمى بقانون الحالات الثلاثة ، لانه متى ثبت هذا القانون في
تصوره (فان علم الطبيعة الاجتماعية لا يظل مجرد فكرة فلسفية بل يصبح
علما وضعيا) •

وحدد كونب صيغة «هذا القانون بطريقتين :

الطريقة الاولى :

وبها حدد الصيغة كالآتى (بناء على طبيعة العقل الانسانى نفسها
لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المروز فى تطوره بثلاث حالات نظرية
مختلفة متتابعة الحالات اللاهوتية أو الخرافية ، والحالة الميتافيزيقية أو
المجردة ، وأخيرا الحالة العلمية أو الوضعية) •

ثم أضاف فى كتابه (دروس الفلسفة الوضعية)^(١) الصيغة التالية : وربما
يظهر فيها بصورة أوضح التعبير عما نحن بصددده ، حيث يفترض أن
المرحلة الاخيرة هى مرحلة النضج والتقدم النهائى للانسانية ، وأن أى
(رجوع) الى مرحلة سابقة يعد من باب (السلفية) كأنه نوع من النكوص
عن المرحلة المتطورة التى بلغتها البشرية •

والصيغة هى :

(وبعبارة أخرى يستخدم العقل الانسانى طبيعته ، فى كل بحث من
بحوثه ثلاث طرق فلسفية متتابعة يختلف طابعها اختلافا جوهريا • بل
قد يكون مضادا — وهى أولا الطريقة اللاهوتية ، ثم الطريقة الميتافيزيقية ،
وأخيرا الطريقة الوضعية • ومن هنا نشأ ثلاثة أنواع من الفلسفة ، أو من
المذاهب الفكرية العامة عن مجموع الظواهر • وتتنافى هذه الانواع الثلاثة
بعضها مع بعض والفلسفة الاولى نقطة بدء ضرورية للذكاء الانسانى ،

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ •

وأما الثالثة فهي حالته النهائية الثابتة • وأما الثانية فقد قدر لها أن تستخدم فقط كمرحلة انتقال (٥) •

وقد تعرضت فلسفة أوجست كونت الوضعية لالوان من النقد والمعارضة ، استهدفت قانون الاطوار الثلاثة الذى قسم به تاريخ الانسانية فى تعسف راضح ، اذ ثبت أن الصناعات اخترعت فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى ، كما وجدت مشاهدات فلكية وأنواع من العلوم ، كهندسة اقليدس وطب أبقراط وطبيعيات أرسطو فى الدور الذى عده دورا فلسفيا ، فاذا انتقلنا الى الطور الوضعى وهو العصر الحديث فاننا نعرثر على كثير من دعاة الاخلاق والدين والتأمل الميتافيزيقى بخلاف ما كان يظن كونت (٦) •

ولعل أهم نقد يوجه اليه فى هذا الصدد ، ان الحالات الثلاثة المتوهمه لا تمثل أدوارا متعاقبة بل انها متعاصرة متجاوزة فى النفس الفردية ، فان منا من يفسر الحوادث العادية بأسبابها ، ومنا من يفسر الاحداث الخارقة بالقضاء والقدر أو سبب غيبى مجهول •

ويذهب الشيخ الدكتور دراز — رحمه الله تعالى — الى أبعد من هذا فيقول : ان النظرة الواقعية تقع فى البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية لان مبعثها الحاجة العاجلة وصورة الحياة اليومية ، وانها وظيفة الحس — لا العقل • ثم تنبثق بعدها نظرة التعليل بالمعانى العامة ، وهى مرحلة النضج والكمال . وتأتى بعد المرحلة الاولى •

أما النظرة الروحية أو الدينية التى تخيل كونت انها فى أول المراحل

(٥) المصدر السابق ص ٣٥

(٦) د. توفيق الطويل — أسس الفلسفة ص ١٨٠ و ١٨١ مكتبة النهضة

المصرية سنة ١٩٥٥ م •

فهي في الواقع تأتي في آخرها حيث لا تولد في النفس الا بعد اتساع أفقها ،
حيث تتجاوز ظاهر الكون الى ما وراءه •

وهكذا بنقلب ترتيب كونت الخيالي رأسا على عقب ، لان الاوضاع
الطبيعية للحاجات النفسية تترتب — لا كما تصوره في مخيلته — ولكن
ولكن كالاتى :

• حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح •

ويستلرد الدكتور دراز ليقوض دعائم الافتراض الكونتي بقوله
(على أن الذى يعيننا هنا ليس هو الوضع التقويى لكل واحدة من هذه
الفرعات ، وانما هو دخولها جميعا في كيان النفس الانسانية ، فكما أننا
لا نجد امارة واحدة تدل على قرب زوال الفرعة الاستقرائية أو الفرعة
التعليلية ، كذلك لا نرى امارة واحدة تشير أن فكرة التدين ستزول عن
الارض قبل أن يزول الانسان) (٧) •

وصدق تنبؤ الشيخ دراز ، اذ تشير الدراسات الاخيرة المعاصرة أن
الدين بعامه يؤدي دوره في تغيير المجتمعات الانسانية وقيادة حركتها ،
ويتميز الاسلام بصفة خاصة بدوره الذي أثار العلماء والفلاسفة في الشرق
والغرب لفاعليته وايجابيته •

يقول الدكتور حامد ربيع (يمكن القول بصفة عامة أن الاطار الدولى
المعاصر يملك مجموعة من العناصر جميعا تدفع لخلق مناخ معين يسمح
للالسلام بالايناع الحقيقى بحيث يمكن القول بأن هذا الاطار هو تربة

(٧) د. محمد عبد الله دراز — الدين ص ٨٩ — دار القلم بالكويت

١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م •

صالحة لاستقبال الاسلام ولتحقيق عملية اخصاب لم يقدر للانسانية في تاريخها الحديث من قبل أن تعاصر مثيلا لها (٨) .

كذلك لم يدر بخلد كونت وهو يتخيل قانونه أن الحضارة الاسلامية لها تاريخها ومقوماتها المنبثقة من العقيدة ، وأن ذروتها تحققت أيام السلف المصالح وفي الازمنة التي ارتفع فيها المسلمون الى مستوى هذا السلف ، فهل يحق لنا اذن أن نصف الاخذين بقانونه في مجال الدراسات الاسلامية بأنهم مقلدون بل انهم — في ضوء حقائق العصر الذي نعيشه — رجعون ٠٠٤

لقد كانت فلسفة كونت موقوتة بظهور النزاع في الغرب حول فصل الدين عن مجالات النشاط الانساني ومقوماته في ميادين العلم والاخلاق والاقتصاد والسياسة وغيرها ، بسبب ظروف وأوضاع خاصة ، منها سلطان رجال الكنيسة وتدخلهم لنوقوف في وجه الاكتشافات العلمية المخالفة لتفسيرات الكتاب المقدس ، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى بأوجست كونت فيلسوف الاجتماع الى القول بأن المسيحية انقضى زمنها ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة أخرى ، وظلت فكرته مصاحبة للجمهورية الفرنسية الثالثة التي فصّات بين الدين والدولة ، ومن ثم فقد اعتقد انه تم تحلل أجزاء الديانات من الوجهة العقلية ، أي انها لا تصمد أمام النظر العقلي .

ولكن مرد الخطأ هنا أنه اذا كانت هذه الظاهرة صادقة فيما يتعلق بالديانة المسيحية بأوروبا ، فهي ليست كذلك بحال من الاحوال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الاسلامي (٩) فمن الواضح لكل دارس محايد للتاريخ ، أن

(٨) حامد ربيع — الاسلام والقوى الدولية ص ٣٣ — ط دار الموقف العربي — القاهرة ١٩٨١ م .

(٩) د . محمود قاسم — كتاب مبادئ علم الاجتماع لروجيه باستيد ص ٣٣٨ ط ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م .

المسلمين أقاموا صرح حضارتهم في دولتهم العظيمة التي امتدت على عجل من الاندلس الى قلب القارة الاسيوية مارة بشمال أفريقيا كلها ، ثم بناء على فهمهم الصحيح للاسلام وأتباعهم لمنهج أسلافهم فهما وتطبيقا^(١٠) ، فان الاسلام ليس مظاهر كهنوتية أو حياة منعزلة عن الواقع ، بل هو نظام كامل للحياة يوجه الانسان لكي يحقق كمالاته التي استحق بها خلافة الله تعالى في الارض ، أى يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أيضا (أسمى درجة من الكمال الانساني في الروح والخلق والمادة والعقل ، وينظم علاقته بربه عز وجل وعلاقته بأخيه الانسان في كل مظاهر الحياة)^(١١) .

وأخيرا ، يأتي القول الفصل والقرار النهائي من أوجست كونت نفسه حيث أصابته أزمة نفسية في نهاية عمره .

يصفه الدكتور رشدي فكار في هذه المرحلة بقوله (وبدأ يَلْبَ يمينا وشمالا وكان رائعا أن يرشح في النهاية دين الاسلام كدين وضعي للحالة الوضعية ، وقال إنه لا يمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلا الاسلام لأنه دين عار من الحماقات ، يتميز ببساطته وعقلنته ، وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله)^(١٢) .

ويضيف إلى ذلك أيضا أن كونت يرى أنه ان كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الاسلام ، فحينما يسود العلم ، فسوف يبحث عن الاسلام وهامى العقول القادرة الآن في الثمانينات تتساءل حول الاسلام ، وسوف يتبلور هذا الأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شدة تأزم الانسان^(*) .

(١٠) جوستاف لويون — سر تطور الامم ص ٩٤ ترجمة احمد فتحي زغلول باشا — مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١هـ — ١٩١٣م .

(١١) د. محمود عبد الله — موقف الاسلام من المعرفة والتقدم الفكري ص ٣٠ (كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة) .

(١٢) د / رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر ص ٥٩ مخبر البكري - مكتبة ربة بالقاهرة

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م .

(*) نفسه ص ٤٥ .

ثالثا : السافية والايولوجية الماركسية

لكى نفهم أفكار ماركس لابد لنا من البدء بفلسفة هيغل • وفلسفة هيغل كما يجمع الباحثون يكتنفها الغموض ، وتحيطها الالغاز ، ويعنينا هنا فقط فكرة (التناقض) •

لهذا فان الفكرة ضرورية لبيان كيف أقام هيغل عليها فلسفته للتاريخ يرى هيغل أن الوجود مجرد الايجاب ، أو هو ما به كل موجود هو موجود • فليس هو في نفسه شيئا من حيث أنه في الموجودات المتباينة المتنافرة على السواء • الدائرة وجود والمربع وجود ، والابيض والاسود ، والنبات والحجر • ليس الوجود شيئا لانه قابل لان يكون كل شيء • فتمعله عبارة عن تعقل اللاوجود في الوقت نفسه ، وهذا هو التناقض بعينه • أما الموجود حقا فهو المركب من النقيضين : الوجود واللاوجود ، أى الموجود الذى لا يوجد على التمام ، وهذه هى الصيرورة فهى صميم الوجود ، وهى سر التطور ، اذ أن الوجود من حيث هو كذلك ثابت عقيم ، واللاوجود عقيم أيضا ، على حين أن الصيرورة وجود لا وجود (ما سيصار اليه) فهى التى تحل هذا التناقض الاول (١٣) •

وبالرغم من أن الحقيقة النهائية هى حقيقة لا زمانية ، وبالرغم من أن الزمان لا يعدو أن يكون وهما ينجم عن قصورنا عن رؤية الكل ، فان لعملية الزمان وثيقة بعملية الجدل المنطقية الخالصة ، فالتاريخ الانسانى فى الواقع قد تقدم خلال مقولات ، من الوجود الخالص فى الصين ، الى الفكرة المطلقة التى يلوح انها أوشكت أن تتحقق ، ان لم تكن تحققت تماما فى الدولة البروسية • وهنا يقول برتراند رسل (ولا يسعنى أن أجيد أى تبرير على

(١٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٧٥—٢٧٦ ط دار

المعارف ١٩٦٩م • (فكرة الوجود بالقوة عند ارسطو)

أساس ميتافيزيقاه الخاصة ، للرأى القائل بأن تاريخ العالم يكرر انتقالات الجدل ، ومع ذلك فهذه هى القضية التى ينمىها فى كتابه (فلسفة التاريخ) . ويصف رسل محاولات هيجل هذه بأنها كانت قضية مثيرة للشفغ ، أى اعطاء الوحدة والمعنى لدورات الشئون الانسانية : وشأنها شأن النظريات التاريخية الاخرى ، اقتضت ، لكى تغدو مقبولة ، بعض تشويه للوقائع ، وقدراً ملحوظاً من الجهل^(١٤) .

وبناء على هذا البناء المنطقى ، وبتطبيقه على التاريخ والحضارات ، يتضح أن كل نظام للحضارة انما يكون مبناه على أخيلة خاصة تجعله فى العالم عصراً للحضارة والمدنية ، فإذا أدرك هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعى فى بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديدة أخرى تصارعه ، ولا تنتهى هذه المصارعة الا بعصر جديد من الحضارة والمدنية يكون فيه بقايا من الانقراض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامل جديدة ..

وهكذا ..

خلاصة القول اذن أنه لم ينقرض عصر من عصور التاريخ الماضية الا لاجل ما كان يتضمن فى نفسه من النقائص والعيوب ، تاركاً ما كان فيه من المحاسن فى العصر الافضل الذى أتى بعده ، ويصبح العصر الذى نعيشه الآن جامعا لخلاصة جميع ما كان فى العصور الماضية من عناصر الصلاح والخير ، ومن ثم فلا ينبغى الالتفات الى الوراء لانه اذا كان هناك شيئاً ذا قيمة فى الماضى ، فقد أدى دوره فى الارتقاء الحضارى ولم يعد يصلح فى

(١٤) برتراند رسل - تاريخ الفلسفة الغربية ج٢ ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ص ٢٥٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م .

هذا العصر الجديد ، لان التاريخ حكم عليه بذلك^(١٥) .

وما أبرع الشيخ المودودي — رحمه الله تعالى — في فهمه لردائل هذا الفكر الفلسفي ونتائجه على تاريخ الرسل والانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ اذ سيؤدى الى نزع ما في القلوب من تقدير واجلال للعصور التي مضى فيها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وغيرهم ، كما أن هذا الاعتقاد الفلسفي المضل سيقف عقبة دون الاهتداء بعهد النبوة والخلافة الراشدة^(١٦) .

وجاء ماركس فاقببس منهج هيجل دون مذهبه ، وأقام فلسفته المادية الجدلية على أساس الصراع أو التناقض بين الطبقات حيث تنبأ بسيادة عمال المصانع على أصحاب رؤوس الاموال فيها ، محاولا اخضاع ذلك لمبدأ (النقيض عند هيجل بعد أن جعل (المجتمع) الانساني مكانا لتطبيقه • وأطلق ماركس على هذه (البشارة) (تقدمية) وعلى المصدق بها أو البشر بها تقدما وغير رجعي ••

وقد أصبح التفسير الماركسي للتاريخ مجرد اجتهاد مرتبط أشد الارتباط باوضاع بالمشكلات الاقتصادية والاضاع الاجتماعية السائدة في القرن التاسع عشر ، هذه الاوضاع التي تبدلت في القرن العشرين •

وهنا يصح التساؤل (أفلا يوصف ذلك الذي ينادى بالماركسية اللينينية وقد اختلفت الاوضاع والظروف الآن ، وهذبت تلك الاخرى التي حملت على الفكر الماركسي — بأنه رجعي ؟ وأنه يريد أن نعيد عجلة تاريخ القرن

(١٥) باختصار من كتاب (موجز تاريخ الدين واهيائه) للمودودي ص

١٦٥ — ١٦٦ ط دار الفكر الحديث — لبنان ١٢٨٧هـ — ١٩٦٨ م

(١٦) المصدر السابق ص ١٦٦ .

العشرين الى القرن التاسع عشر) (١٧) .

كذلك كان التطبيق الماركسى فى المجتمعات الاشتراكية على حساب الحريات الفردية ، وطغى سلطان الطبقة العاملة على باقى الطبقات فى المجتمع فأصبحت السيادة لطبقة واحدة على حساب باقى الطبقات . وفى كلا الوجهتين أصبح النظام الماركسى خليقا بصفة (الرجعية) لا (التقدمية) .

واليك بيان الاستاذ العقاد فى هذا الصدد حيث يقول (.. ولهذا كنا نحن مستقبلين لاننا ندين بمذاهب الحرية الفردية ولا ندين بمذاهب الفاشية والشيوعية .. وبهذا المقياس — بعد مقياس الحرية — تعتبر الشيوعية من المذاهب الرجعية التى ترجع بنا الى سيادة الطبقة الواحدة) (١٨) ..

أما فيما يتصل بموقف الماركسيين من الدين ، فيبدو من استقراء بعض مواقفهم فى الشرق الاسلامى ، أنهم تنحوا عن تهمة الدين بأنه أفيون الشعوب بعد أن أيقنوا مخالفة الاسلام لهذه الصفة ، فبدعوا يعترفون بسلطان العقيدة الدينية وأثرها فى السلوك ، فأقروها كعامل مساعد يخدم الفلسفة الماركسية .

وربما طرأ هذا التغيير بسبب ازدياد عدد المسلمين المستمسكين بدينهم فى الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفييتى — وكان سكانها فى الاصل مسلمين خدعهم لينين لضمهم الى صف الثورة بدعوى القضاء على الحكم القيصرى والتخلص من ظلمه للمسلمين ، ثم انقلب الشيوعيون بعد انتصار

(١٧) د. محمد البهى — تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيق

ص ٣٦ الناشر مكتبة وهبه بالقاهرة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

(١٨) العقاد — مقال : السلفية والمستقبلية (ص ٢٥٨ .

الثورة على المسلمين بالاضهاد والتشريد والاعتقال والنفي الى سيبيريا وغير ذلك من المآسى المعروفة .

ولا نزن أن هذا التراجع أمام الاسلام ينطلى على المسلم الذى يفهم دينه حق الفهم ، اذ أنه يرفض اعتبار الدين مجرد عامل مساعد لخدمة الفلسفة الماركسية ، اذ أن الاسلام فى حقيقته الجوهرية وكما فهمه السلف وطبقوه معناه الفطرى الأستسلام لله تعالى وحده فى العبادة والتشريع والنظم والاخلاق ، فلا يخضع المسلم لغير الله عز وجل ، ولا يطيع الا هو سبحانه : ولا ينفذ الا شريعته .

وبناء على هذه المعرفة فان المسلم لا يقبل تطبيق التفسير الماركسى للنظام الاقتصادى ، وقد نظم الاسلام أمور المال أحسن تنظيم ، وطبقه المسلمون فى عصور ازدهار حضارتهم ، وما علينا الا تطبيق اجتهادات علمائنا من الفقهاء وغيرهم فى أمور الاموال ، مع الاجتهاد فى المستجدات من الامور المستجدة التى لم يعرفها أهل العصور الماضية كالاعمال المصرفية والتأمين والتأمينات وغيرها .

ونحن نرى الآن فى النظام المصرفى للبنوك الإسلامية ، وشركات الاستثمار الناجحة ، نرى بداية صحيحة لتحقيق نظام اقتصادى اسلامى متحرر عن نظم الاقتصاد السائدة فى العالم .

رابعها : المذهب السلفى فى الفكر الفلسفى الغربى

ظهر هذا المذهب على التحديد فى فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان الفكر الفرنسى آنذاك صدى للفكر الانجليزى ، ثم بدا يبحث عن أصالته بعد استعادته لتوازنه عقب الثورة الفرنسية التى تركت ركاما من الخراب المادى والاضطراب المعنوى والقلق الاجتماعى •

وأمام الآثار الهادمة لثورة فرنسا ، قام الفلاسفة هناك ، وكل منهم فى نفسه هذا المشروع الخطير للإصلاح ، وعلى يقين لا يتطرق اليه الشك (بأن علة العال الاضطراب المعنوى أو فساد العقيدة فى (القيم العليا) ، فعملوا جميعا — كل بطريقته الخاصة — على استرداد الايمان بهذه القيم) •
لذلك ظهرت مذاهب ثلاثة :

الاول — المذهب النفسى الروحى ورأى من واجبه هزيمة المادية •

الثانى — المذهب الواقعى المعادى للميتافيزيقا المستمسك بالواقع ، ولكن ليست (الواقعية) فى هذا المذهب مرادفة للمادية ومبطللة للقيم •

الثالث — المذهب السلفى الذى يعنينا هنا ، وقد قام به بعض الكاثوليك لتحطيم مبادئ القرن السالف فى الاجتماع ، والمناداة بالعودة الى العقيدة السلفية (١٩) •

ولكن القاسم المشترك بين أصحاب هذه المذاهب هو معارضة المذهب الفردى ، مع تخطئة روسو وتخطئة مشروع الثورة الفرنسية من بعده • حيث قامت البروتستانتية على المذهب الفردى • وينكر المذهب السلفى الفلسفى دعوى أن العقل الفردى يبلغ الى الحق بقوته الذاتية ، ويعارض

(١٩) يوسف كريم — تاريخ الفلسفة الغربية ص ٢٩٨ ط دار المعارف بمصر

هذه الدعوى بارجاع العلم الانسانى الى وحى أول نزلت به من لدن الله تعالى ألفاظ اللغة والمعانى المقابلة لها ، فتناقلها السلف (٢٠) .

يقول أحد هؤلاء الفلاسفة (بدأ الشر بالبروتستانتينية واستمر بفلسفة بيكون وفلسفة لوك وفلسفة القرن الثامن عشر يمثلها فولتير) ، ويعمل فيلسوف آخر — وهو القسيس فلسيتى دى لامنى — عدم المبالاة بالدين بالمذهب البروتستانتى الذى ابتدع فكرة الفحص الحر والثقة بالعقل الفردى . فأدى الى بلبلة الافكار وزعزعة السلطة فى الدين والاجتماع (٢١) .

ولكن هذا المذهب لم يحتل فى تاريخ الفلسفة الغربية مكانا بارزا ، وانما انحصر دوره كما اتضح لنا كرد فعل للفوضى الدينية والاخلاقية التى أحدثتها ثورة فرنسا ، وكان قصير الاجل ضعيف الاثر ، توهج كالنجم برهة ثم سرعان ما انطفأ ولم يحدث أثرا يذكر فى تلال الفكر الفلسفى بالغرب ، كما لم يسلم من النقد لانه لم يستمد أصوله من رجال الكنيسة المعترف بهم بين النصارى ، لذلك يتعجب مؤرخ الفلسفة — يوسف كرم من هؤلاء السلفيين اذ غاتهم الرجوع فى رأيه الى الفلسفة السلفية الحققة (تلك التى كونتها الاجيال المسيحية حتى تمت على يد القديس توما الاكوينى والتى هى أصدق نظرا فى الدين والعقل جميعا) (٢٢) .

وشتان بين نزعته وجدناها نشأت فى بيئة غربية على أيدي أفراد قلائل لمقابلة نزعات أخرى : وبين الاتجاه السلفى الاسلامى المرتبط أشد الارتباط بمذهب الاوائل منذ النبى ﷺ حتى الان ويضم أعدادا لا تكاد تحصى من نخبة علماء المسلمين . اننا فى هذه الحالة أمام حقيقة كبرى : حقيقة دين

(٢٠) المصدر السابق ص ٣٠٩ .

(٢١) المصدر السابق ص ٣١١—٣١٢ .

(٢٢) المصدر نفسه ص ٣١٣ .

رب العالمين في العقيدة والعبادات والتشريع وقيم الاخلاق والسلوك والنظم المحققة لسعادة البشرية في الاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة والعلاقات الدولية ، وقد ظل السلف في تاريخ الاسلام يحافظون عليه كما هو وارد في أصوله بالكتاب والسنة ، ويستبعدون منه صور التحريف والاضافات ، ويفرزون الشوائب التي اختلطت بعقيدة الاسلام وعباداته وشريعته (من جدلية كلامية في العقيدة ، وتفكير خرافي في النظر للكون ، وعبادة سلبية اعتزالية شكلية ، وصوفية أعجمية تعزل الحياة وتفتر من معركتها واستبداد في الحكم وركود في الحياة الاقتصادية ، وشكلية ونصوصية ضيقة بعيدة عن الفهم الاسلامي الاول) (٣٣) .

فهل لنا بعد ذلك البيان اقتباس لفظ (السلفية) كما هو من الفلسفة الغربية واطلاقه على أصحاب الاتجاه السلفي في الاسلام ؟

ان فعلنا ذلك فلا شك أننا نرتكب خطأ علميا منهجيا دينيا فادحا لان البعض يظن — تحت تأثير أمثال هذه الفلسفات الغربية أن إعادة تحقيق الحضارة الاسلامية بعقيدتها وقيمها يقتضى الرجوع الى الماضي أو مطالبة أهل العصر الحاضر بتقليد ما كان عليه الاجداد من سلفنا الصالح في كل شيء ، والحق أن هذه الصورة المتأثرة بفلسفة الغرب وتاريخه وحضارته لا تمثل وجهة النظر الاسلامية الصحيحة ، فاننا في حاجة الى تعديل طرق حياتنا لكي ترتقى الى المستوى الاسلامي الرفيع الذي تحقق ابان مجد المسلمين وذرورة حضارتهم بناء على المقومات الحية التي ما زالت باقية ، وسبق أن حققت هذا النموذج — هذه المقومات هي :

(٢٣) محمد المبارك — الفكر الاسلامي في مواجهة الافكار الغربية ص ٩٦ .

ط دار الفكر ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

١ — ان كتاب الله تعالى محفوظ بين أيدينا ، وسنة نبينا محمد ﷺ مدونة كاملة ، وتراث العلماء واجتهاداتهم يعبر عن ذخيرة لا تنضب في شعب الحياة المختلفة في نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتعليم وغيرها .

٢ — ان التاريخ الواقعي المطبق لتعاليم الاسلام قد تحقق بصورة تكاد تكون مثالية في العصور الاولى المفضلة ، وظلت تتكرر — بطريقة أو بأخرى — كلما قام المسلمون بالاستمساك بمنهجهم على التفصيل الذي سقناه آنفا .



وخضوعا للمفاهيم الغربية الشائعة انساق البعض وراءها ظنا أنها مطابقة للتصورات الماثلة في المجتمعات الاسلامية ، فمالوا الى الغض من أصحاب الاتجاه السلفي في الاسلام ، ونفروا الناس منه وقاموا بحملة تشهير ظالمة ضده .

وقامت معركة حقيقية (بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم ونقلائدهم ، وبين الذين عادوا من أوروبا وقد فتنهم بريقها ، فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه) (٢٤) .

ثم فشت العصبية لما هو وارد من هذه البلاد تحت دعوى التجديد ، وأراد أصحابها تغيير كل شيء : في الدين واللغة والادب ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد. بدعوى نبذ القديم والبالي والاخذ بالجديد والحالي .

(٢٤) د. محمد محمد حسين — الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج٢

ص ٢٣٢ مكتبة الاداب بالجباميز — القاهرة ط ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

وفيما يتصل بالعقيدة والدين ، فقد ذهب أحد أصحاب فكرة التجديد الى وصف الدين الحى الحق بأنه ذلك المتحقق فى الشعور ، المتجدد المتطور للامة المؤمنة به ، وآية خصبة فى تلك الصور المتعددة المتغيرة التى يتخذها وفقا للازمان . وتبعا للطابع العنصرى المركب فى هذه الامة : دل هذا فكل دين فى أصله رمز ، رمز قابل لما لانهاية له من أنواع التفسير التى قد يبلغ الفارق بين بعضها حد التناقض . وكلما تعددت التفسيرات لهذا الرمز ، وبلغ التعدد مرتبة عالية من الافتراق الرفيع . كان هذا من أوضح الشواهد على أن هذا الدين حى وخليق بالبقاء .

وبناء على هذه النظرة للدين فى صورته المتطورة المتجددة ، وتفسيراته الرمزية المتناقضة ، تصبح النزعات السنية أو السلفية وما اليها من حركات ، تحاول أن تأسر نفسها فى ربقة الرمز بمعناه الظاهر الاولى ، تصبح عند صاحب هذا رأى ، عكس وأزمات نفسية فى تاريخ الحياة الروحية لادين ما ، وعليه أن يبرأ منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثرى فى مجال الروحية العليا (٢٥) .

وقد كان الاسلام هدفا — وما زال — لحملات شديدة تخفى وراء هذه المصطلحات وأمثالها للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخير والشر والفضائل والردائل . فاخترعت بدلها ألفاظا تنتقصها المدلولات والضوابط ، كالتقديم والجديد والرجعية والثورية ، واليمين واليسار ، والثبات والتطور ، والظاهر والباطن ، والحقيقة والرمز أو التأويل وكلها تتأرجح متذبذبة ذات اليمين وذات الشمال كبندول الساعة لا يسنقر على

• حال

وتجددت المعارك ولبست أثوابا متعددة منذ حملات الغزو الاستعماري في مطلع القرن الحالي ، مما دفع بأصحاب الاتجاه السفلى لمواجهتها وإبطال مفعولها . ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذي علق على محاولات المتغربين بقوله : —

قلما رأيت من هذه الفرقة الا الادعاء الفارغ والنزوع الى الثورة على ما يسمو به بالقديم ، وهم ينسون أن هناك مبادئ ثابتة وبديهيات ليس فيها قديم وجديد ، وأن الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة ، وأن المقولات العشر مما لا نتناولها هذه الثورة ، وأن الثورة أنها هي واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم^(٢٦)

وعلى ذلك فإن وحدة الدين كما عرفه سلفنا وكما ترشد اليه أصوله نابع من وحدة عقيدته وأتفاق الغالبية عليها . وعلى العكس ، فإن الصور المتعددة المتغيرة لم تظهر الا عندما انقسمت الجماعة الاسلامية الاولى الى فرق وأحزاب ، كل حزب بمالديهم فرحون ، فتفتت كيان الامة وكسرت شوكتها .

ومنذ أنشق الصف الاسلامي في عصوره الاولى ، ظهرت الخوارج والشيعية والتدريية والمذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وكلها ذات تفسيرات تتفاوت في انشقاقها عن عقيدة الاسلام ذات اليمين وذات الشمال .

ولم يبق العقيدة الاسلامية على أصالتها ونقاوتها ولمعانها الا الطائفة الظاهرة على الحق ، التي ظلت تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة بالطريقة

(٢٦) من كتاب مصطفى صادق الرافعى — نحت راية القرآن ص ٣٩ .
المكتبة النجارية ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م

التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويوضح لنا ابن تيمية مكانة الصحابة وسلامة منهجهم وتكامله بقوله :

(فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول ﷺ علما وعلماء يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والادلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله ، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ، ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية ، وهي محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لاشريك له بما أمر به على لسان رسوله) (٢٧) .

ولقد تتابع السلف جيلا بعد جيل آخذين بطريقتهم ، ووقف علماؤهم بصلابة ازاء كل مجاولات التجزئة واليتر والتأويلات الكلامية والتفريجات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية . فلم يهنوا ولم تفتر لهم همة .

وما على القارئ لكي يعرف هذه الحقيقة ، الا قراءة بعض صفحات التاريخ ، اذ يعثر على خيط طويل يمتد غيربط في سلسلة متماسكة منسجمة الاوائل حتى عصرنا الحاضر ، حيث وقف علماء السنة بالمرصاد ، مبينين الانحرافات عن الاصول الاسلامية ، وربما لاتسمح لنا هذه الدراسة بالتوسع في بيان ذلك الا بالقدر الذي يحقق توضيح الفكرة التي نجسنا بصدها ، وهي أن الاسلام ظل محفوظا في الاصلين العظيمين : الكتاب والسنة ، وأن تلقيه وتطبيقه بمنهج السلف هو الذي حفظه حتى الآن ، وكل انحراف عن منهجهم كان سببا في اضعاف المسلمين ، لانه ساهم في تقويض أركان المجتمع الاسلامي ومساندة أعدائه . ومن هنا عارضوا نفاة القدر بسبب أفكارهم لاصل من أصول الايمان المثبتة للعلم الالهي الازلي المطلق ،

(٢٧) ان نبوية — النبوات ص ٥١ . نشر المطبعة السلفية ومكاتبها بالقاهرة ١٢٨٦ هـ .

وأیضا حاربوا نزعة الجبرية التي ساهمت في ركود الهمم واضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابي النشط .

ووقف السلفيون ازاء تجزئة عقيدة الاسلام الى دوائر عقلية — لدى المتكلمين والفلاسفة — أو عاطفة وتفسيرات وجدانية ذوقية لدى الصوفية وماجھود العلماء الكبار منذ عصر الصحابة والتابعين أمثال : الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبیر • الى أمثال ابن حنبل وابن قتيبة والدارمي والثافعي ومالك وابن خزيمة والشاطبي وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وابن الوزير اليماني وغيرهم ... ماجھود هؤلاء العلماء الا عمل من أعمال المحافظة على الاسلام في مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وأنظمتها وفقا لطريقة السلف ، فحال ذلك دون ادخال أية تحريفات كما حدث في اليهودية والنصرانية ، بل أستطاعوا فضح كل المحاولات التي بذلت من هذا القبيل ، وأصبحت مؤلفاتهم معبرة عن الاصاله لآظهار المخالفين المبتدعين وتوعية المسلمين من خروجهم عن المنهج الاسلامي الصحيح •

فقد وقف الفقهاء والمحدثون في وجه الدولة العباسية في عنفوان قوتها عندما رأوا ما يؤخذ على بعض خلفائها وولاتها ، فقد ضرب أبو حنيفة علي القضاء ، وأوذى الامام مالك لنشره الحديث (ليس على مستكره طلاق) عندما أرغم المسلمون على حلف يمين الطلاق بمناسبة البيعة للمنصور • وصمد الامام أحمد صمودا جبارا ازاء محاولات تفسير الاسلام تفسيراً كلاميا مخالفا لنصوصه ابان محنة خلق القرآن •

وجاء ابن تيمية ليجدد فهم الاسلام على طريقة السلف في وقت يظن المتصفح لتاريخ عصره أن عقول المسلمين قد توقفت وجمدت على آراء

علماء الكلام والفلاسفة وشطحت مع فرق الصوفية . وكأن الجميع قد نسوا أن القرآن الكريم ما زال غضا طريا بين أيديهم ، وأن سنة الرسول ﷺ تغنيهم عن الدروب التي سلكوها .

ثم رأينا في العصر الحديث كيف قام الامام محمد بن عبد الوهاب للإطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد. بعد أن ران عليها دنس الجاهلية مرة أخرى ، وتابعته معظم الحركات المعاصرة في العقيدة ومسالك الجهاد حتى يمكن القول ان دعوة الامام تشكل الاثر الحاسم فيها جميعا ، لأنها بدأت بالقاعدة التي انطلقت منها ، أى عقيدة التوحيد .

وقبل الدخول في شرح تفاصيل ما تقدم يلحظ الباحث أن هذا العصر شهد الكثير من المعارك حيث قامت الشعوب الاسلامية بثورات متوالية حيث أبت الضيم مصمة على تحرير أراضيها واستعادة كرامتها وتأكيد شخصيتها المستقلة .

وكان قد تأكد للاستعمار في ضوء هذه المعارك والمنازعات استحالة بقاءه ما دامت الامة الاسلامية مستمسكة بعقيدتها ومعتزة بشخصيتها ، فاستخدم الاستعمار وأعوانه أسلحة أخرى أمضى وأشد فاعلية من أسلحة المدافع والبنادق والقنابل ، حيث استطاع بما له من سلطان على أجهزة الحكم أن يربى أجيالا وفقا لمناهج التعليم الغربى ، وأشهرها منهج (دنلوب) في مصر ، كما أنشأ المدارس والجامعات الاجنبية ذات التبعية لقارها الرئيسية بأوروبا ، وشجع ارساليات التبشير على مزاوله مهامها ، وتوسع في ارسال البعثات الخارجية ودعم المؤسسات الثقافية الغربية التي تناهبت في اجتذاب أكبر عدد ممكن من الشباب والرجال والفتيات والنساء سعيا وراء بقاء النفوذ الاجنبى وتمكينه من حكم البلاد من وراء الستار .

كذلك عمدت الدوائر الاستعمارية - بتعاون مع بعض علماء الاستشراق - الى ابتداع وتشجيع ظهور نحل ومذاهب جديدة - تنتمى الى الاسلام اسما وهو برىء منها - كالكاديانية في القارة الهندية ، وسنرى انها من وضع الانجليز ، أو البهائية التي تحتضنها الصهيونية ، وغير ذلك من مذاهب غير اسلامية في حقيقتها ، سنخصص لها الحديث في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، لكي نبرهن أنها بعيدة كل البعد عن الاسلام كما تلقاه المسلمون عن السلف ، بل ان بعضها خارج عن الملة .

وعلى أية حال ، فان صدى ذلك الصراع العقائدي ظهر على مسرح الفكر بصورة عامة في شكل ثلاثة اتجاهات وسنتكلم أولا بايجاز عن الاتجاهين المعروفين اللذين خلفهما الاستعمار الغربى في الشرق الاسلامى وفقا لقانون الفعل ورد الفعل :

أولا : الاتجاه الاول :

تحييد ثقافة الغرب والمطالبة بالحاح بالاخذ بحضارته ويعبر عنه (المتغربون) .

وقد ظل هذا الاتجاه صاحب اليد الطولى منذ الاستعمار العسكرى ، وبعد أن خفت قبضته بقى نفوذه الثقافى والاقتصادى والسياسى متغلغلا فى عقل الامة : حيث بقى فى عقول بعض الطلائع المثقفة من رجال الفكر والادب والفن والحكم والاحزاب السياسية ، وربما كان البعض منهم يدفعه الاخلاص فى النهوض بأمتة والسير بها قدما نحو اللحاق بحضارة العصر المتفوقة ، وعذره مشاهدة الواقع الاليم للعالم الاسلامى حينذاك ، ولكن البعض الآخر كان مندفعاً برغبة النفوذ والسلطان أو الشهرة والجاه

والمناصب وغيرها من شهوات النفس وأطماعها ، فكان من السهل على رجال الاستعمار وأعوانه اصطيادهم بهذا الطعم الذى قلما يزهد فيه الرجال .
ثانيا : الاتجاه الثانى :

نظر أصحاب هذا الاتجاه الى الحضارة الغربية بأعمالها الشائنة التى كانت معبرة عن روحها الحقيقية وفلسفتها المتوارثة من حيث التمييز العنصرى الذى ينظر الى غير الاوروبيين نظرة الاحتقار . والحق أن هذه الاعمال الشائنة كانت تخفى عن أجيالنا عن عمد ، ولكن مضى وقت الكتمان وظهرت الاسرار وطففت على السطح مخازى هذه الحضارة فعرّفها القاصى والدانى .

يصف الاستاذ رجاء جارودى بعض هذه الفضائح بقوله (ان جرائم الامبريالية النازية امتداد لجرائم الامبريالية الغربية جمعا ، بدءا بابادة عشرات الملايين من الهنود الحمر الامريكيين ومرورا بتقتيل أكثر من مليونى زنجى فى أفريقيا ، لنصل أخيرا الى اختطاف عشرة ملايين من المستعبدين الى القارة الامريكية) (٢٨) .

ولوحظ أيضا أنه من أهداف الاحتلال العسكرى الغربى اذابة شخصية البلاد المستعمرة فى حضارته وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والاكبار لحضارتهم تغييرا يسلمهم الى الخضوع لارادته ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدى عمله الا اذا مهد له

(٢٨) رجاء جارودى — كتاب (ملف اسرائيل .. احلام الصهيونية واضاليلها) المنشور بجريدة الاهرام يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ — ١٧ مارس ١٩٨٢م ص ٥ .

السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم الى الاستقلال عنه والتمرد عليه^(٢٩) .

وليس بمستغرب اذن أن تقابل هذه الرغبة الاستعمارية العدائية باتجاه مضاد في العالم الاسلامي ، وكان لاصحابه العذر لما وجدوه من تصميم على محاربة عقيدتهم مع التسلط والقهر ومحاولة الاعتداء على نرائهم ومقدساتهم ، فأنكروا كل ما يمت بصلة الى الحضارة الغربية ، لان أبناءها جاءوا للغزو والحرب ، وأشاعوا في بلاد المسلمين التخريب والدمار قتلا وتعذيبا وتشريدا وفسادا للعقيدة والاخلاق ، فكيف يقبل المسلمون استخدام وسائلهم ومخترعاتهم وهم الاعداء الالاء ؟

وهكذا انسحبت الكراهية على أبناء هذه الحضارة ومنتجاتها معا ، وعدوها شرا كلها فلم يأخذوا منها شيئا وهاربوا منازعها لانهم مقتنوها بسبب ما أحدثته لهم ولبلادهم فنادوا بتحريم الاخذ بها ، حتى انه حين ظهرت المطابع وعزمت الدولة على طبع القرآن الكريم حرم الفقهاء حينئذ طبعه وصاروا يفتنون بتحريم كل جديد وتكفير كل من يتعلم العلوم الطبيعية^(٣٠) .

ثالثا : الاتجاه الثالث :

أما أصحاب الاتجاه الذي يرى الالتزام بمنهج السلف فانه يربط

(٢٩) محمد بهجة الاثرى — الاتجاهات الحديثة في الاسلام ص ١٩ —
المطبعة السلفية

(٣٠) سميج عاطف الزين — عوامل ضعف المسلمين ص ٢٢ — ط دار
الكتاب اللبناني .

بين عقيدة الاسلام والحياة العصرية^(٢١) ، فقد رأى أن الملاذ الوحيد هو الاحتماء بالتراث الاسلامي ، والتشبث بعقيدة التوحيد ، مع التمسك بالشخصية والذاتية الاسلامية التي تتحدد مقوماتها بالعبادات والسلوك والاخلاق والنظم ومعرفة الغاية والهدف لهذه الامة والسعى الدائب لتحقيقه .

واذا حافظت الامة على هذه المقومات والملامح فلا خير بعد ذلك من الحياة وفق أساليب العصر العلمية — التكنولوجيا — بل ان المطلوب مزاحمة الامم ومنافستها في مضمار السباق العلمى والانتاج بأنواعه : الزراعى والصناعى ، كما فعلت اليابان وألمانيا مثلاً بالرغم من هزيمتهما الساحقة في الحرب العالمية الثانية ، ولكنهما احتفظتا بأصولهما الثقافية والحضارية .

ما المانع اذن أن تمضى أمتنا قدما في نفس الطريق مع المحافظة على الاصول العقديّة المتلقاة من السلف ؟

ان القارئ لتاريخ الحروب والصراعات يستقرئ محافظة هذه الامة على مقوماتها بالرغم من هزائمها في ميادين القتال وزحزحتها عن مركز الصدارة .

(٢١) ينظر كتاب (الاسلام الممتحن) للاستاذ محمد الحنفى — رحمه الله —

حيث يرى ان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية يتمثل في الاخذ بالعلوم والصناعات وهى ليست حكرًا لاحد مع التبرؤ من الثقافة والاداب التى تحدد المفاهيم والاهداف وتكيف المجتمع والحياة . كما يحلل عوامل التفوق فى الغرب بالنهضة فى التنظيم والادارة ، والعمل الدائب فى حقول الصناعة والتجارة والعلوم التطبيقية ، وهى كلها من المنافع التى لا بد من اقتباسها من الغرب ، اما المحذور فهو الاخذ بمنهج العلم والنظر الى الكون والانسان لان الحضارة الغربية انحرفت عن جادة النبوة والهداية واثارت على القيم والاخلاق الرفيعة (ص ٥٢-٥٣) ط المختار الاسلامى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

وهذا ما يراه الاستاذ الدكتور حسين مؤنس نتيجة بحثه في تاريخ الحضارة الاسلامية ، اذ يقرر انه اذا كانت الحضارة كلها ثمرة جهود الناس أى الامة (فان حضارة أمم الاسلام ظلت حية نشطة معظم الوقت تقريبا ، نعم كانت هناك عصور ازدهار وركود ، ولكن الركود لم يصل الى درجة الجمود التام قط ، لان الامة كانت تغذى مؤسساتها الحضارية العامة كالقضاء والعلم والفقه والحسبة ، ومؤسساتها الخاصة كالنقابات والطرق الصوفية والمدارس والزوايا والتكايا) (٣٢) .

ونود أن نضيف الى ذلك أن ذروة حضارتنا قد تحقق بالانصياح لتعاليم الكتاب والسنة جنباً الى جنب مع معرفة رسالة الامة الاسلامية عالمياً .

لذا فان بحث العلاقة بين السلفية والحضارة الاسلامية يقتضى بيان طريقة تلقى السلف للإسلام علماً وتطبيقاً التى قامت على أثرها الحضارة فى ذروتها .

ثم نوضح بعد ذلك الاجابة على التساؤلات المطروحة حول مدى استناد السلف الى أحكام العقل فى منهجهم .

وسنعرض لذلك كله فى الفصل التالى عن السلفية والحضارة الاسلامية :

الفصل الثاني

السلفية والحضارة

مقدمة :

- الحضارة الاسلامية
- السلفية والحضارة الاسلامية •
- الحضارة الاسلامية في عصر السلف الصانع •
- الاسلام دين التوحيد •
- منهج السلف في فهم الكتاب والسنة •
- منهج السلف والنظر العقلى •
- مكانة (العقل) في المذهب السلفى •
- أسباب مناهضة السلف للمتكلمين في الدين يغير طريقة المرسلين •
- موقف السلف من الفلسفة •
- العقل بين الفلسفة اليونانية والشرع الاسلامى •
- تجديد المنهج السلفى على يد شيخ الاسلام ابن تيمية •
- أثر عقيدة التوحيد عند السلف في النظر العلمى للمسلمين •

مقدمة :

الحضارة الاسلامية :

ان من أفضل السبل لمعرفة فضائل الحضارة الاسلامية مقارنتها
بغيرها من الحضارات ، لا سيما الحضارة الماثلة أمامنا وما تزال مسيطرة
في العالم — أى الحضارة الغربية •

فمن حيث النشأة والانتشار ، استغرق الزمن الذي انتشرت فيه
الحضارة الرومانية نحو ألف عام ، بينما ازدهرت حضارة المسلمين خلال
ثمانين عاما فقط •

كذلك تعرضت الحضارة الاسلامية لغزوات الابداء والازالة ، وسمع
هذا ظلت تتحدى وبقيت صامدة ، ولم تنحل رابطتها السياسية الا عندما
نجح أعداؤها في حل الخلافة العثمانية •

واذا قارنا — كما فعل الاستاذ محمد أسد (ليوبولد غايس قبل
اسلامه) بين الخطوب التي توالى عليها وبين غيرها ، لاذهلتنا نتيجة
المقارنة :

فان حضارة روما مثلا قد انقرضت بعد مضي ألف عام من تاريخها ولم
يبق منها سوى معالم في الادب والبناء •

وتعرضت حضارة الاسلام للغزو الخارجى المتتابع على اتساع
بقعتها الجغرافية •

ويحدثنا التاريخ عن حضارة الصين التي اندثرت بالرغم من بعدها
عن متناول الغزوات وأخطرها ، أى غزوات التتار •

فما السر في بقاء حضارة المسلمين رغم اتساع رقعتها وتاريخها الطويل المليء بالصعوبات والكوارث الخارجية ؟

يرجع ذلك الى عنايتها بالروح والاخلاق والمثل العليا ، والفضل الى بقاء أصولها سليمة لم تصل اليها يد التبديل - القرآن والسنة •

وقد فهم أعداؤها سر قوتها فوقف غلاستون يطالب بمحاربة القرآن الكريم (١) •

ومن المقرر بين المطلعين على آراء مؤرخ الحضارات توينبى انه جعل من الدين ركنا أساسيا في انقاذ الحضارات (٢) •

لذلك فانه يشفق أشد الأسفاق من سلخ الحضارة الغربية عن تراثها المسيحى ••

ومن ملاحظاته في هذا الصدد أن عملية الردة بطيئة شاقة ، ويشك في جدية الجهود التى بذلها كل من : ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيللى وهوبز وموسيلينى وهتلر لانقراض الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية (٣) • كذلك اعتبر توينبى فلسفة ديكارت بصفة خاصة بمثابة تحدى لعقيدة الغرب الدينية (٤) •

ويبدو اخلاصه لعقيدة الدينية المسيحية أشد ما تكون عندما تشتد حملته على اليهودى الالمانى كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣ م) الذى

(١) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطرق ص ٣٧-٤١ — ترجمة د. عمر فروخ — دار العلم للملايين — بيروت •

(٢) لمعى المطيعى — ارنولد توينبى ص ١٥٣ — عرض ودراسة — ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة فبراير سنة ١٩٦٧ م •

(٣) توينبى — موجز تاريخ الحضارة ج٢ ص ٢١٠

(٤) موجز تاريخ العالم ج٢ ص ٢٠٧ •

صور بألوان مستعارة من الرؤيات المهنة التي انبثقت عن تراث دينى كامن فى أعماق لا شعوره ونبذه هو نفسه صور صورة مذهلة لانفصال البروليتاريا وما يتلوه من حرب طبقية •

وهذا ما دعاه الى اعتبار الشيوعية الماركسية مثالا بغيضا الى النفس يقوم بين ظهراى فلسفة غربية حديثة تحولت تحولا لا شبهة فيه خلال عمر واحد . الى عقيدة دينية ، سالكة طريق العنف ، مقتطعة بالسيف أورشليمها الجديدة من سهول روسيا^(٥) •

وفى ضوء هذه النظرة المقارنة فان المدخل الصحيح لدراسة أعمدة الحضارة الاسلامية هو دراسة عقيدة التوحيد التى حافظ عليها السلف بالنواجز فارتفعت الحضارة وقامت على هذا الأساس المتين ، وأصبحت العلاقة طردية بينهما •

ولم كانت هناك دراسات وأبحاث عنيت بمنهاج الحضارة الاسلامى فى العلوم والاداب والفنون حسب مناهج البحث المناسبة لها ، فاننا سنعنى بجانب العقيدة وكل ما دار حولها من حيث منهج السلف فى فهمها وتلقيها ، وتصديهم للمناهج الاخرى التى أضعفت من شأنها •

وسنبدا ببيان العلاقة بين السلفية والحضارة الاسلامية •

(٥) موجز تاريخ العالم ج٢ ص ١٥٦ و ص ٢٠٧ • ويتمسد بأورشليم الجديدة موسكو التى أصبحت فى العقيدة الشيوعية مثلما كانت أورشليم — المركز الروحى لليهودية ثم للمسيحية — المترجم — هامتن ص ٢٠٧ •

ثانيا : السلفية والحضارة الاسلامية

إذا كانت الحضارة الاسلامية ما زالت قائمة كمجتمعات حية في رأى توينبى ، فما الذى يمنع تحركها لقيادة العالم من جديد ؟

انه وفقا لنظريته عن عدم موت الحضارة بالمعنى العضوى ، وانما تختفى • وقد يكون هذا الاختفاء لمدة قرون ثم تعود للظهور • كما يؤمن كبير مؤرخى العصر فى أعماقه بأن الحضارة الاغريقية هى السلف الحقيقى للحضارة الاوربية الحديثة ، وهو يرى أن الحضارة الاغريقية قد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور فى الحضارة الاوربية الحديثة^(٦) .

ولكن الحضارة الاسلامية — باعتراقه — لم تمت عضويا ، بعكس الاغريقية . ويرجع الفضل فى بقائها الى بقاء العقيدة • وظل دور السلفيين باقيا فى احياء عقيدة التوحيد وفهم الاوائل للاسلام ، لان الاسلام — كما يذكر توينبى — قد أعاد تأكيد وحدانية الله فى مقابل الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية^(٧) .

واستمدت السلفية فى المحافظة على التوحيد فى جوهره النقى ، فمنعت تردى العقيدة الدينية الى أى صورة من صور الوثنية ، لان أية عقيدة دينية — فى رأيه — تواجه خطر التردى فى عبادة الاوثان ، وأن العقيدة الدينية لتعرض خاصة الى الانزلاق فى هذا المنحدر المؤدى الى جهنم ، بعد ما تكابد ألوانا من الضربات القاصمة ، وخاصة اذا جاءت من أناس ينتمون اليها^(٨) .

(٦) لمعى المطمى — ارنولد توينبى ص ٢٩ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة العدد ١٤٨ فى ٢٢—٢—١٩٦٧ م .

(٧) مختصر دراسة التاريخ ج٣ ص ١٦٤ — العربية ط ١٩٦٤ ترجمة فؤاد مهيذ شبليليس جامع الدول العربية .

(٨) نفس المصدر ص ٢١٠—٢١١

ويقصد بذلك اما المثال التقليدي عن تجسيد المجتمع للسيادة السياسية كما حدث في مصر في عصر الدولة القديمة في انسان بشرى (وهو فرعون) أو وثنية تأليه (أم البرلمانات) في وستمنستر بانجلترا ، فان هدف الوثنية السياسية في هذا المثال ليس رجلا لكنه هيئة ^(٩) .

أما الضربات القاصمة في تاريخنا ، فقد كان مصدرها أناس يدعون أنهم ينتمون الى الاسلام عامة أو التشيع خاصة ، بينما حملوا معاول الهدم ليغيروا معاملة من جذورها ، ولا يستطيع المسلم معرفة خدعهم وحيلهم الا بوقوفه على الطريقة السلفية في فهم الاسلام والعمل به .

ولهذا فقد هتك علماء السلف أستارهم مع تعدد أجناسهم وكثرة فرقهم اذ تشمل (طائفة من المتفلسفة والقرامطة الباطنية والاسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله وأصحاب رسائل اخوان الصفا والعبيديين الذين كانوا بمصر من الحاكمة وأشباههم . وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم في الباطن ملاحدة) ^(١٠) .

وقد سبق أن قلنا ان مفهوم السلفية كمنهج في الاسلام ، لا يعنى جيلا أو أجيالا مضت ، ولكن تتسع دائرته فتشمل الحاضر والمستقبل أيضا لانه لا يتعلق بالزمن والعصور لكن باتباع الطريقة الواحدة الثابتة حتى لو كان أصحابها أفرادا قلائل ، فمن دواعي بقاء الحضارة الناجحة ، استطاعة القلة من الطلائع مجابهة التحديات ^(١١) .

(٩) نفس المصدر ص ٧٧—٧٨ .

(١٠) ابن تيمية : كتاب الصفدية ج١ ص ١—٢ تحقيق د. محمد رشاد سالم

ط الرياض ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

(١١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ص ١٥٠ .

ثالثا : الحضارة الاسلامية في عصر السلف الصالح

وليست غايتنا نبش التاريخ لفحص سجلاته تحريكا للاشجان وبعثا للاحزان ، انما نبتغى اجلاء الحقائق وصولا الى موقف جيل المسلمين الاول — وهم الصحابة والتابعين والسائرين على دربهم •

والسلفية كما يعرفها الشيخ الغزالي (ليست فرقة من الناس تسكن بقاعا من جزيرة العرب وتحيا على نحو اجتماعي معين •

ان السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمل ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتحشد جهود المسلمين المادية والادبية لاعلاء كلمة الله تعالى دون نظر الى عرق أو لون ، وفهمها للاسلام وعملها له يرتفع الى مستوى عمومته وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه على العقل (١٢) •

ولا ننسى ولو برهة واحدة أنهم أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ ، وقد عبروا عن آرائهم كبشر يجوز عليهم الخطأ ، وأقاموا دولة كبرى ، ووسّعوا حدودها الى أطراف المعمورة ، وجذبوا اليها بطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والاسوة في مجال العقيدة والاخلاق والمعاملات، جذبوا اليها الملايين من أجناس وأقوام وأصحاب أديان متباينة في شتى بقباغ الارض •

وظهر أثناء ذلك كله مشكلات ، والتحمت جيوش - ولكن تركوا لنا مواصفات أفضل مجتمع وأرقى نظام طبق على المستوى البشري — فنحن لا نعتقد عصمة أحد بعد رسول الله ﷺ — فيؤمن اذن أفضل مجتمع قياسا

(١٢) الشيخ محمد الغزالي — دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ١٢٠-١٢١ ط دار الانصار بالقاهرة ١٤٠١ هـ .

على غيره من المجتمعات والدول التي حفل بها تاريخ بنى الانسان. • لا سيما
أتباع الرسل والانبياء •

لقد سبقونا في الايمان والعلم والعمل وتفاعلوا مع عقيدة الاسلام
ومبادئه ، فأقاموا صرحا شامخا أصبح بمنجزاته كالفتنارات على شواطئ
المدن الساحلية ، تهدى اليها السفن في ظلمة الليالي الحالكة السواد •

وكل من يقرأ التاريخ تأخذ الدهشة ويتملكه العجب من التحول العظيم
لسكان الجزيرة العربية من حال الى حال ، وليس هناك أصح من تحليل
ذلك بسبب عقيدة الاسلام التي جذبت اليها العقول والقلوب ، فدخل
الناس في دين الله أفواجا ، وكان الايمان هو المحرك الاول لها ، حيث أمدها
بالزاد المتمثل في ايقاظ فطرة معرفة الله تعالى الكامنة في النفوس وأعطى
الحياة معنى وحدد لها هدفا وغاية •

وتكمن قوة العقيدة الاسلامية كما فهمها السلف الصالح — تكمن في
مصدرها الالهى وشمولها للكيان الانسانى كله روحا وجسدا ، وتغطي مجال
نشاطه لاعمال الدنيا والاخرة ، حيث تغذى في الاشددة حب الحق والدعوة
له ، وبذل المهج في سبيل جعل كلمة الله هى العليا ، فلا عجب أن تجتمع
الناس حولها فاستطاع العرب بعد اسلامهم — وليس قبله كما يزج
القوميون العرب — أن يهزموا دولتى الفرس والروم ، وينشروا دعوة الحق
والخير في ربوع بلاد العالم المعروفة آنذاك •

ولكن الحياة الدنيا أقيمت على الابتلاءات والحن ، فكل ارتفاع يعقبه
هبوط وكل فرح يعقبه حزن ، وكل لذة يتبعها ألم ، وكل تقدم يعقبه تقهقر ،
وكل نصر يعقبه هزيمة ، وهكذا دواليك الى أن تنتهى الدنيا وتنتقل البشرية
الى حياة الاخرة حيث تتبدل الاحوال ويأتى أوان الثواب والعقاب على
الاعمال في الحياة الدنيا •

وفي ضوء هذه الحقيقة ، ظهر رد الفعل لانتصار الاجيال الاولى ، حيث اثارت عداة اقواما من اهل الملل والنحل كاليهود والنصارى والثنوية من المجوس والدهريين وغيرهم ، فوضعوا الخطط لمحاربة عقيدة الاسلام في اصلتها ونقائها ، وتفتتت اذهانهم عن حيل كثيرة لمحاربتها بغية القضاء عليها بوسائل أخرى غير وسيلة الحروب في ميادين القتال ، فأخذوا على عاتقهم اثارة المشاكل وفتح باب الجدل في العقائد التي تنحرف بعقيدة السلف فتضعفها ونقل من آثارها كما سيتضح لنا عند بحث دراسة الفرق المناهضة للسلف .

وأیضا لم يقتضى النظرة العصرية فقد ثبت أن ذروة الحضارة الاسلامية تحققت في العصور الاولى ، فاذا استخدمنا منهج المقارنة بينها وبين قواعد التعامل الدولي في المجتمعات الاوروبية المعاصرة من حيث السعى الى نشر العقيدة أو الايديولوجية فها هنا يثبت بناء على البحث الذي أجراه الاستاذ الدكتور حامد ربيع — ان الحضارة الاسلامية هي النموذج الوحيد في التاريخ السياسى الذى جعل منطلق الصراع الخارجى والمحلى ينبع من مفهوم واحد وهو نشر العقيدة ، فقد كانت قواعد التعامل مع غير المسلم وفي أثناء القتال لا بد وأن تخضع لقواعد واحدة أساسها الكرامة والشهامة واحترام الانسانية الفردية (١٣) .

وبالرغم من بعض الاستثناءات التي عرفت خلال العصر العباسى التي تعكس تدهورا عما قبله (١٤) ، فقد بقى النموذج الاسلامى في حقيقته أكثر

(١٣) د. حامد ربيع : مقدمة كتاب (سلوك المالك في تدبير الممالك) الجزء الاول ص ٢١٦ ط دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .
(١٤) ويبرهن الدكتور حامد ربيع بدراسته الشاملة المقارنة على ان النموذج الاسلامى — وبصفة خاصة في تطبيقه الاول خلال فترة الخلفاء الراشدين يظل بخصوص مستوى العلاقة التعاقدية بين المواطن والسلطة — يظل تطبيقا مثاليا يستحيل تصور تحققه في مجتمعات القرن العشرين . ص ٢٠٦ .

عصرية وأكثر تقدما من الاوضاع التى نعيش فيها .

وعلة ذلك أن الحديث عن التعايش السلمى يعبر عن اقتناع بعدم صلاحية الدولة القومية الاوربية فى عالم أضحى يقوم على أساس وحدة الوجود الانسانى^(١٥) .

ونحن هنا أمام نموذجين للدولة العصرية التى تقوم على أساس الوظيفة الايدىولوجية ، أحدهما :

التقاليد القومية السياسية القائمة على مبدأ الدولة الحارس وتتطور وظيفتها الاساسية من منطلق نظام القيم ، والثانية الدولة الشيوعية التى تستخدم الاكراه المعنوى بقصد اعادة تشكيل التصور والمدرجات الفردية .

ولكن اذا كان التشابه ظاهرا بين الدولة الشيوعية والدولة الاسلامية القائم على لغة العقيدة — أو التكامل الروحى فى العلاقة بين المواطن والدولة الا أن الخلاف بينهما يظهر فى الجزئيات فهو دينى حضارى فى التقاليد الاسلامية وهو ايدىولوجى حركى فى التقاليد الشيوعية .

ثم يظهر الخلاف أيضا فى التعامل ، لان الحرية مطلقة فى التقاليد الاسلامية حيث لا اكراه فى الدين بينما يقتضى النظام الشيوعى الاستحواذ المطلق مع عمليات غسل المخ حيث لا مناقشة فى قدسية التعاليم الماركسية . ويتساءل الدكتور حامد ربيع فى النهاية (فهل هناك نظام فكرى أكثر

عصرية من هذا النموذج الاسلامى للتصور السياسى (١٦) ؟
ولننظر بعد ذلك فى العقيدة التى حقق بها الاجيال السابقة هذه
المستويات العليا من الحضارة فى شتى جوانبها :

(١٦) دكتور حامد ربيع . نفس المصدر ص ٢١٧ .
وينظر الجزء الثانى حيث قارن بأسباب بين الدولة القومية ونظام القيم
السياسية الاسلامية القائم على أساس فكرة العدالة (ينظر ص ٢٦٤) .
ط دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

رابعاً : الاسلام دين التوحيد

منهج السلف في فهم الكتاب والسنة :

لن نكرر القواعد التي أشرنا اليها في حديثنا عن قواعد المنهج السلفي، ولكن يكفى هنا لمتابعة تسلسل موضوعنا بيان حقيقة دين الاسلام وجوهره القائم على التوحيد، فان الدين في اللغة مصدر دان يدين ديناً، اذا خضع وذل، ودين الاسلام الذي ارتضاه الله تعالى وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً كذلك ، فالاسلام اذن هو الاستسلام لله تعالى وهو الخضوع له والعبودية له (١٧) .

ومن هنا يؤكد ابن تيمية على جوهر الاسلام المبني على العبودية لله تعالى وحده ويتبعه ويترتب عليه ضرورة وحتم العمل بمقتضاه ، فان أهل اللغة يقولون (أسلم الرجل ، اذا استسلم) ، وتفسير ذلك أن الاسلام — بناء على هذا الاصل — يعنى العمل أيضاً : عمل القلب والجوارح . ولهذا قال النبي ﷺ (الاسلام علانية ، والايمان في القلب) ، فان الاعمال الظاهرة يراها الناس ، وأما ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء ، فهذا باطن ، لكن له لوازم قد تدل عليه (١٨) .

ولكن الاصل خشوع القلب ، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ولا ينمكس الحال ، ولهذا قيل (اياكم وخشوع النفاق) وهو أن يكون الجسد

(١٧) ابن تيمية : كتاب الايمان ص ١٥٤ — ط مكتبة انصار السنة المحمدية بالقاهرة .
(١٨) المصدر نفسه .

خائسا والقلب ليس بخائشع ، ومعنى ذلك أيضا أنه اذا صلح القلب صلح الجسد كله .

ومن مقتضيات الاسلام كذلك في ضوء هذا التحليل ، التقيد والالتزام ببيان الله تعالى ورسوله ﷺ ، وهو ما كان يتقيد به السلف الصالح والسائرون على طريقهم ، ممن استسلموا لله وحده وخضعوا له وعبدوه تعالى . وعلى العكس ، فقد انبثقت كافة البدع وتولدت كافة الفرق من مخالفة هذا الاصل الاصيل والركن المكين . وبيان ذلك أن المخالفين اعرضوا عن هذه الطرق (وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها ، أما في دلالة الالفاظ ، وأما في المعاني المعقولة ، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ﷺ) .

ويضيف ابن تيمية الى ذلك قوله (وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ﷺ غافها تكون ضلالا . ولهذا تكلم الامام أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول ﷺ والصحابة والتابعين) (١٩) .

ويتضح من هذا الموقف المنهج الذي اتبعه السلف من أهل العلم والايمان اذ يجعلون كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ هو الاصل الذي يعتمد عليه ، واليه يرد ما تنازع الناس فيه ، فما وافقه كان حقا ، وما خالفه كان باطلا .

فاذا صحت النية ووقع خطأ في الاجتهاد وبعد است فراغ الوسع غفر الله له خطاه سواء كان في المسائل العلمية الخبرية أو المسائل العملية .

أما المخالفون لهذا المنهج فانهم يرتكبون أربعة أخطاء من عظام
الامور .

أحدهما :

ردهم لنصوص الأنبياء عليهم السلام .

الثاني :

ردهم ما يوافق ذلك من معقول العقلاء أن الادلة الثابت مسحتها
بطريق البراهين العقلية (٢٠) .

الثالث :

جعل ما خالف ذلك من أقوالهم الجملة — أو الباطلة — هي أصول
الدين .

الرابع :

تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الاقوال المبتدعة
المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول (٢١) .

والقضية تحتاج الى بحث تفصيلي أكثر حيث يتفرع عنها شرح موقف
السلف من النظر العقلي بشقيه الكلامي والفلسفي :

(٢٠) ينظر كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة في اصول الدين حيث بينا
كيف خالف المتكلمون المعتزلة والاشاعرة ادلة المعتول عند تناولهم لقضية صفات
الله تعالى وعقيدتهم في (الجواهر الفردية) .

(٢١) ابن تيمية : درء تملرض العقل والنقل ج١ ص ٢٧٧ سنة ١٣٩٩ هـ —
١٩٧٩م تحقيق د. محمد رشاد سالم .

منهج السلف والنظر العقلي

أو : موقفهم من عالم الكلام والفلسفة

في ظل سيادة أفكار مشوهة عن مناهج السلف ، نبئت شبهات أقرب الى الشائعات ، أصبحت تتكرر على اللسان وتكتب على صفحات الكتب والابحاث والمقالات حتى صارت وكأنها حقائق لا تقبل الرد أو المناقشة ، حتى سرت في أوساط العامة بل الخاصة من المثقفين أيضا •

وأمام هذه الظاهرة الغريبة ، هل يحق لنا الاشارة بعنصرية (جوبلز) وزير هتلر المعروف بدعاياته . والذي كان ديدنه تكرار الاكاذيب واعادة اذاعتها حتى يألفها الناس فتصير حقائق ؟

اننا نعال ذبوع الاوصاف الخاطئة على أصحاب المنهج السلفي بمثل هذا التعليل ، حيث وصفهم خصومهم بأنهم (نصيين) أى علامة على التقيد بالنصوص وحدها ، أو (جامدين) أى لا يقبلون الالتجاء الى المنهج العقلي ويرفضون (التفكير الحر) ، الى غير ذلك من أوصاف •

ولكن ، دعونا من الانفعالات العاطفية ، ولنلجأ الى تفنيد هذه الشبهات (أو الشائعات) بشيء من الروية ، وبسند من الادلة ، فنقول وبالله التوفيق :

أولا : افتقارهم للدلة المستندة الى العقل ، أو نقدهم لعلماء الكلام •

ثانيا : عداؤهم للفلسفة والتفكير الحر أو استخدام الادلة العقلية •

مكانة (العقل) في المذهب السلفي

يصف خصوم السلف بأنهم (نصيين) ، أى يأخذون بالنصوص ويستندون اليها دون استخدام الادلة العقلية •

والحق أن هذا الظن غير صحيح بل لا يستند الى أساس ، وكان سبب اثاره الاختلاف الحادث بين المتكلمين في مدارس المعتزلة والاشاعرة وغيرهم من الفرق وبين علماء السنة من أتباع منهج السلف الصالح في الرواية والدراية •

وسنناقش هذه الشبهة من الناحيتين : التاريخية والموضوعية •

تاريخيا :

تقيد المسلمون في الصدر الاول من الصحابة وأوائل عصر التابعين بالمنهج الاسلامي الصحيح من حيث الارتباط بالقرآن والسنة ايماناً وعملاً ، ونفذوا أمر الرسول صلوات الله عليه في الاستمسك بهما والارتباط بالجماعة وعدم الاختلاف والفرقة ، عن ابن مسعود (خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال — هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمين الخط ويساره وقال — هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا) وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١٥٣ الانعام • يعنى الخطوط عن يمينه ويساره •

وعن عائشة رضى الله عنها (تلا رسول الله ﷺ) هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (٧ آل عمران قالت) سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم) •

ونهاهم صلوات الله عليه عن الجدل في الدين فانصاعوا لاوامره قال
(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ قوله تعالى
(ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) (٢٢) •

وأمرهم بالألا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض لان ذلك يوقع الشك في
قلوبهم فنفذوا أوامره • وأمرهم بالألا يتنازعوا في القدر لانه كان سبب هلاك
من كان قبلهم • وفي حديث له أيضا (لم يزل أمر بنى اسرائيل معتدلا حتى
نشأ فيهم المولدون أبناء سبائا الامم فأخذوا بالرأى وتركوا السنن) (٢٣) ،
وأمرهم أيضا بالألا يسبوا أصحابه •

ولهذا دلت الاخبار عن الصحابة انهم لم يتنازعوا في مسألة واحدة
من مسائل الاسماء والصفات والافعال (٢٤) وان ما تنازعوا فيه كان في
مسائل الاحكام (٢٥) •

ولكن كيف حدث الاختلاف على مسائل الاصول ؟

بعد أن توطدت دعائم الدولة الاسلامية في عصر النبي ﷺ بعد
فتح مكة •

وبدأ الاسلام ينتشر في الجزيرة العربية وخارجها فامتدت دعوته الى
بلاد الفرس والروم وأفريقيا والهند •

واستطاعت الدولة الفتية أن ترهب أعداءها داخل الجزيرة العربية
وخارجها واستمرت الغزوات وايفاد السرايا أثناء حياة النبي ﷺ •

(٢٢) ابن بطه — كتاب الشرح والابانة ص ١٢ •

(٢٣) المصدر السابق ص ٩ •

(٢٤، ٢٥) اس القيم — اعلام الموقعين ج ١ ص ٥٥

وفي عهد الصحابين قويت شوكة الاسلام ، فاخترفى خصومه الى حين .

وجاء انتصار المسلمين في حرب الردة حاسما رادعا للمنافقين والمرتدين ، فكانت معركة فاصلة حيث ظن بعضهم ان الدولة الفتية لن تتمكن من الصمود في وجه أعدائها بعد وفاة النبي ﷺ .
وتتابعت المعارك الجهادية للدعوة الى الاسلام ، وتوالى الانتصارات لتتحول المدينة المنورة الى عاصمة دولة كبرى .

هذا على صعيد المعارك التي تحقق فيها النصر ، فحفظت الامة هيبتها وردعت أعداءها فدخلوا جحورهم منتظرين الساعة الملائمة للظهور تارة أخرى .

أما على صعيد الجدل والنقاش فقد حدثت مناقشات مع رسول الله ﷺ سجلها القرآن الكريم وكتب الاحاديث النبوية وصحائف التاريخ وكانت مع أطراف متعددة وأثناء مراحل الدعوة كلها منذ بدئها بواسطة رسول الله ﷺ بمكة مع كفار قريش الى أن انتقلت معها الى المدينة ، وحفلت بألوان من الجدل مع أهل الكتاب وغيرهم .

وفي عصر الخلافة الراشدة حسم علماء الصحابة المناقشات التي دارت مع أصحاب الاراء المخالفة .

والمواقف متعددة : منها موقف علي بن أبى طالب رضى الله عنه من الخوارج والشيعية ، وموقف عبد الله بن عباس رضى الله عنهما من نفاة القسدر .

وفي عصر التابعين أيضا توافر عدد كبير منهم لمعارضة الانشقاقات الحادثة في الملة .

وازدادت الهجمات الطاعنة في الدين والتفرق في الاراء مع قلة أعداد المتصدين لها لموت بعض العلماء وتفرق البعض الآخر في الامصار .
ولكن علماء السنة المتمكنين من عقيدة السلف واجتهاداتهم تحملوا في الاجيال التالية أعباء التصدى لكل من انحرف عن الجادة ، لا سيما بعد تسلل الثقافات الاجنبية كالفلسفة اليونانية والعقائد الفارسية وغيرها من أهل الملل الاخرى بواسطة من أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر ، اذ لم يجرؤ أحد هؤلاء — في رأى الدارمى — على اظهار ما في نفسه من الكفر وانكار النبوة فرقا من السيف وتخوفا من الاقتضاح . بل كانوا يعيشون مع المسلمين (وكان أول من أظهر شيئا منه بعد كفار قریش الجعد بن درهم بالبصرة وجهم بخراسان اقتداء بكفار قریش) (٢٦) .

٢ — موضوعيا :

قلنا من قبل ان المقصود بالسلف هم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم أصبح لفظ (السلف) مصطلحا يطلق على الاتجاه الذى يتخذ من مواقف السلف أصلا ومنهجاً : ففى الصفات الالهية اثباتها بلا كيف ، وفى القضايا التى أشارها أهل الكلام ، يتخذون من الاوائل أسوة فى النظر والعمل . فالقرآن أولا ثم الحديث النبوى ثم الاقتداء بالصحابة (لان الوحي كان ينزل بين أظهرهم فكانوا أعلم بتأويله منا ومنكم ، وكانوا مؤتلفين فى أصول الدين لم يفترقوا غيه ، ولم يظهر فيهم البدع والاهواء) (٢٧) .

ثم انهم من أصحاب الحديث ونقاده وعلمائه ، المتبعين للآثار . لانها

(٢٦) الدارمى — الرد على الجهمية ص ٢٥٨ (من كتاب عقائد السلف) .

(٢٧) عقائد السلف ص ٣٠٩ .

سبيل المؤمنين ، مستشهدين بمثل قول الله تعالى (ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) من ١١٥ النساء .

ويوجه اليهم خصومهم انهم مجرد نقلة يستمسكون بالرواية ولا شأن لهم بالدراية أو النظر العقلى . ولكنهم يدافعون عن أنفسهم بأنهم أهل نظر أيضا ، لانهم يتبعون الصحابة وكانوا أرباب نظر ودراية ، فالمعقول ما وافق هديهم . والمجهول ما خالفهم ، وقد عاشوا فى ظل الوحي ، ولا سبيل الى معرفة هديهم وطريقتهم الا هذه الاثار (٢٨) .

هذا ما يعبر عنه الدارمى (٢٠٨ هو) بكتابه (الرد على الجهمية) .
واليه أيضا يذهب الامام أحمد بن حنبل (٢٤١ هو) بمنهجه للرد على الجهمية نفاة الصفات الالهية .

وعلى هذا النحو مضى الامام البخارى (٢٥٦ هـ) فى كتابه (خلق أفعال العباد) لكى يصحح المفاهيم الخاطئة للجهمية والقدرية (٢٩) فى عصره الذين أولوا القرآن وفسروه طبقا لاهوائهم فانبرى لهم مصححا لزياعهم ، مبينا لاسباب عدولهم عن المنهج الصحيح معللا اياه بأنهم لم يعرفوا المجاز من التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ، ولا الوصف من الصفة ..

ويقول ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) :

وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) بأفهام كلية وأبصار عليلة ، فحرفوها الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سبيله (٣٠) .

(٢٨) أتباع جهم بن صفوان .

(٢٩) وهم نفاة القدر .

(٣٠) عقائد السلف ص ٢٢ .

وعلى هذا النحو سار علماء السلف الى ابن تيمية وابن القيم ،
وامتدت آثارهم الى العصر الحديث في اتجاهات أمثال محمد بن عبد الوهاب
والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم .

ولعل أهم ما كتب في هذا الموضوع جاء بدراسة شيخ الاسلام ابن
تيمية في كتابه الموسوعي (درء تعارض العقل والنقل) الذي يكفى ذكر
عنوانه لبيان القضية المطروحة للبحث .

وعلى أية حال فانه يصحح الفكرة الخاطئة عن تعارض الادلة
الشرعية مع الادلة بالعقلية ويوهم بأن الادلة الشرعية لا تستند الى العقل
وهذا غير صحيح ، ويوضح ذلك فيقول (وأما كونه شرعيا فلا يقابل بكونه
عقليا ، وانما يقابل بكونه بدعيا ، اذ البدعة تقابل الشرعية ، وكونه
شرعيا صفة مدح ، وكونه بدعيا صفة ذم ، وما خالف الشريعة
فهو باطل) .

كما يبين أيضا دلالات الالفاظ وصلاتها بالمضمون فان كون الدليل
عقليا أو سمعيا ليس صفة تقتضى مدحا ولا ذما ولا صحة ولا فسادا ، بل
ذلك بين الطريق الذى به علم ، وهو السمع أو العقل وان كان السمع لا بد
معه من العقل (٢١) .

ويكفى للدلالة على أهمية العقل واستخدامه ما ورد في القرآن الكريم
من آيات تمدح العقل والتعقل والنظر والتدبر ، وتذم الذين لا يعقلون . وقد
علق الشرع التكليف على العاقل البالغ وأسقطه على فاقد العقل والتمييز .

(٢١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ص ١٩٨ مطبوع على نفقة
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م . تحقيق الاستاذ
الدكتور محمد رشاد سالم .

يقول ابن تيمية

ومن كان مملوك العقل أو مجنوناً فغايبته أن يكون القلم قد رفع عنه،
فليس عليه عقاب ، ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من
أعماله ، فمن لا عقل له ، لا يصح شيء من عباداته لا فرائضه ولا نوافله •
ولهذا قال تعالى (ان في ذلك لآيات لاولى النهى) أى العقول •

وقال تعالى (هل في ذلك قسم لذي حجر) أى لذي عقل •

وقال تعالى (فاتقون يا اولى الالباب)

وقال تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) •

وقال عز وجل (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

وهكذا فإن مدح الله تعالى وأثنى على من كان له عقل غاماً من لا يعقل،
فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكر بخير قط • بل قال تعالى عن أهل
النار (وقولوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وقال تعالى
(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفتقون بها ولهم
أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل
أولئك هم الغفلون) • وقال (ام تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون
ان هم كالانعام بل هم أضل) (٢٢) •

كذلك رويت أحاديث كثيرة عن فضل العقل في الانسان ، منها قول

النبي ﷺ :

(ان الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل

الجهاد ، فما يجزى يوم القيامة الا بقدر عقله) •

(٢٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية — المجلد العاشر ط الرياض

ص ١٢٥ — ١٢٦ •

السلفية بين العقيدة الاسلامية

وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ (والله لقد سبق الى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتمارا ولكنهم عقلوا عن الله تعالى مواعظه فوجلت منه قلوبهم واطمأنت اليه النفوس وخشعت منه الجوارح ، ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وحسن الدرجة عند الناس في الدنيا ، وعند الله في الآخرة) (٣٣) .

وإذا كان الامر كذلك ، فقد يرد في خاطر التساؤل الاتي :

ما دامت مكانة العقل مصانة عند علماء السلف ، ويحتل هذه المرتبة بينهم . فلم نقفوا المتكلمين المعتزلة منهم والاشاعرة وكافة الفرق ولم يوافقوا على طريقتهم الكلامية وهم يعلنون استنادهم الى أدلة العقول ويفخرون بذلك ؟

للإجابة على السؤال سنبحث أولاً أسباب مناهضة علماء السلف لطرق أهل الكلام ، ثم نبين بعد ذلك موقفهم من السلفية كاتجاه عقلي غلب عليه الاخذ بلفظة اليونان لا بطريقة القرآن :

اسباب مناهضة السلف للمتكلمين في الدين

بغير طريقة المرسلين^(٣٤)

بعد أن تبين لنا مما تقدم مكانة (العقل) في المنهج السلفي وظهرت براءة علماء السنة من تهمة اهمال الادلة العقلية أو عدم الاعتماد عليها ، بقي مناقشة الشبهة الثانية المترتبة على الاولى حيث يلاحظ الباحثون النقد العنيف الذي وجهه السلف الى المتكلمين ، فظنوا أن المقصود نقد الادلة العقلية ومنهج النظر والتدبر ، بينما يظهر التعمق في البحث وتوسيع دائرته ليشمل مؤلفات علماء السنة والحديث أن النقد الموجه للمتكلمين اقتصر على طرقهم في الاستدلال وهي مخالفة لطريقة المرسلين ، فقد سجل لنا القرآن الكريم مناقشتهم وجدالهم مع الكافرين ، وكلها ذات أسس وبراهين عقلية • أما المتكلمون فقد استعاروا مصطلحات الفلسفة اليونانية وألبسوها ثوبا اسلاميا فسببت اختلافات في وجهات النظر ، وأدت الى أن ما ظنه البعض أدلة عقلية بينما هي غير ذلك •

وفيما يلي تفاصيل ما تقدم :

عارض أهل القرون الاولى من علماء التابعين وغيرهم الخوض في قضايا أصول الدين باستخدام طريقة علماء الكلام التي بدأها المعتزلة على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، لأنها من قبيل البدع المخالفة لطريقة القرآن الكريم ، أى بلغة عصرنا كانت طريقة المتكلمين لونا من الغزو الثقافي الزاحف من حضارات وديانات أخرى لم يعرفه المجتمع الاسلامي منذ نشأته في المدينة المنورة . حيث كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ ، وكان

(٣٤) يعرف ابن نهيمة علم الكلام بأنه (حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين) ، حيث يرى أن طريقة المتكلمين مخالفة في منهجها وقواعد لطريقة المرسلين كما سنرى . (ينظر مجموع الفتاوى ج ١٢ ص ٤٦٠-٤٦١ .

الصحابة يتلقون منه كل الحلول للمشاكل العلمية والعملية التي تقابلهم في العقيدة والعبادات والسلوك ونظامهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، أى أن مجتمع المدينة كان حافلا بألوان الانشطة الانسانية كلها ، ولهذا قال الامام أحمد بن حنبل ، (انه ما من مسألة الا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام حدثت جميع أجناس الاعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وانما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة) .

وارتبط التابعون والمستمسكون بمنهجهم بنفس هذا الاسلوب فى التلقى والاستيعاب والفهم . بحيث يمكننا القول بأن الاسس التى نستخلصها من المواقف التى اتخذها العديد من الصحابة والتابعين لا تخرج عن الاستناد الى عوامل وأسباب من شأنها أن تجعلهم يقفون صفا واحدا — وعلى مدى العصور المتعاقبة — ازاء من أثاروا المشكلات الكلامية فى المحيط الاسلامى آنذاك ، ووصفوهم بأنهم (أهل بدعة) .

والبدعة فى احدى تعريفاتها (التعدى فى الاحكام والتهاون بالسنة واتباع الاراء والاهواء وترك الاقتداء والاتباع) (٣٥) .

وقد نظر المعارضون لهذا اللون من الخوض فى الدين نظره واحدة ، وكلفت حججهم متعاضدة ازاء هذا الموقف فى الصراع الثقافى بين التراث

(٣٥) ابن تيمية — معارج الوصول الى معرفة اصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ﷺ ص ٢٣ — المكتبة العلمية بالمدينة .

وفى موضع آخر من أحد كتبه يتوسع فى شرح البدعة مستندا الى الحديث (كل بدعة ضلالة) ، ويميز بين البدعة فى اللغة — وهى كل ما فعل ابتداء من غير مثال سابق والبدعة الشرعية وهى كل ما لم يدل عليه دليل شرعى . وبناء على ذلك فان قول عمر رضى الله عنه (نعمت البدعة) تعدد تسمية لغوية لا تسمية شرعية (ينظر كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٦٧ — ٢٨٢ تحقيق محمد حامد الفقى — طبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م .

الاسلامى كما عرفه السلف وبين التيارات التى هبت عليه من الخارج •

ويمكن تلخيص عوامل معارضة السلف للمتكلمين فيما يأتى :

أولا — لقد أغنى الله تعالى المسلمين بالآيات القرآنية وبعث رسوله ﷺ عن الالتجاء الى وسائل أخرى لمعرفته عز وجل واثبات توحيدِهِ وصفاته • وبعث رسوله عليه الصلاة والسلام (بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) ٣ المائدة مع تكليفه ﷺ بالتبليغ (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) ٦٧ المائدة (٣٦) •

وقد أدى عليه الصلاة والسلام الامانة وبلغ الرسالة على خير وجه وأشهد المسلمين على اتمام التبليغ فى خطبة الوداع (الا هل بلغت ؟) وكمل اتمام الدين بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) ٣ المائدة •

وهكذا لم يترك الرسول ﷺ أمرا من أمور الدين الا وقد أوضحها وأتم بيانها ، بل انه كان يبلغ كل أوامر ربه عز وجل فى التو واللحظة ولا يؤخرها (ومعلوم أن أمر التوحيد واثبات الصانع لا ترال الحاجة ماسة اليه أبدا فى كل وقت وزمان ولو أخر عن البيان ، لكان التكليف واقعا بمسا لا سبيل للناس اليه ، وذلك فاسد غير جائز) (٣٧) •

ثانيا — خشية الفتنة بسبب استخدام الاصطلاحات الكلامية التى لم يأت بها الكتاب أو السنة فلم يدع النبى ﷺ الناس فى أمر التوحيد الى

(٣٦) السيوطى — صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام ج ١ ص

١١٧ — تحقيق د. النشار وسعاد عبد الرازق ط مجمع البحوث الاسلامية ١٩٧٠

(٣٧) السيوطى — صون المنطق ج ١ ص ١٤١ •

الاستدلال بالاعراض — كما فعل المتكلمون — أو تعلقها بالجواهر وانقلابها فيها . فضلا عما أدت اليه هذه الاصطلاحات من منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولها وتركيباتها ، فأصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها ، وظهرت الفرقة المنهى عنها بين صفوف المسلمين .

ثالثا — ان المتابعة في الدين والاقتداء بالتقليد في تشريعاته وأحكامه أمر ضروري لعجز كل فرد من المسلمين على الاجتهاد الشخصي ، فنرى الخطيب البغدادي يتساءل عن موقف المتكلم اذا ما ابتلى بحادثة في الدين ، الا يسعى الى الفقيه يستغنيه ويعمل به (راجعا الى التقليد بعد فراره منه ، وملتبثا بحكمه بعد صدوفه عنه ؟) (٣٨) .

ويعتمد السلف هنا على حجية النقل الصحيح كوسيلة لمعرفة أحكام الدين وشرائعه فان الاسلام يقتضى التصديق بما جاء به النبي ﷺ اعتمادا على صحيح المنقول ، وذلك أجدى على الامة وأسلم لها ، خشية الوقوع في أخطاء الامم السابقة مع أنبيائه في شدة حاجتهم في الاسئلة وطلب الايات وصنوف العجائب (حتى أفضى ببعضهم الى أن سألوه أن يروا ربهم جهرة) (٣٩) .

لذلك فان هناك حدا يجب الوقوف عنده وعدم معرفة ما غوقه من الامور التي لا يحيط بها علما الا الله سبحانه وتعالى ، لكي يتحقق الغرض من الابتلاء والتمييز بين المؤمنين والكافرين (حتى يكون العباد في كل وقت مسلمين لأحكامه لا يتعقبونها بتكليف ولا مسألة عن غاية مراده فيها) (٤٠) .

(٣٨) نفس المصدر ص ١٩٣ .

(٣٩) نفس المصدر ص ١١٤ .

(٤٠) المصدر السابق ص ١١٥ .

رابعا — اعتبر السلف الكلام في الدين بغير طريقة القرآن والحديث من باب فضول الكلام الذي لا يفيد الاستغلال به ، بل ان العمل به مضيعة للجهد والوقت بعد أن كفانا الله تعالى مؤونة العسكوف على مسائله بما بين لعباده ما يحتاجون اليه في عاجلهم ومعادهم (وأوضح لهم سبيل النجاة والتهلكة وأمر ونهى وأحل وحرم وفرض وسن) (٤١) .

هذا ، فضلا عن أننا نعثر في الاحاديث النبوية على توضيحات لسكافة المسائل التي يخوض فيها المتكلمون ولو بحثوا لعثروا عليها في مصادرها ، فان الحديث النبوى اشتمل على معرفة (أصول التوحيد وبيان ما جاء من الوعد ووجوه الوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين ، والاخبار عن صفات الجنة والنار وما أعد الله فيهما للمتقين والفجار ، وما خلق الله في الارض والسموات من صنوف العجائب وعظيم الايات ، وذكر الملائكة المقربين ونعت الصالحين والسبحين) (٤٢) .

خامسا — ان القضايا التي خاض فيها المتكلمون تعلو على الالهام والعقول ، ولهذا فان المختصين ببيانها وشرحها هم الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فينبغى قبول ايضاحاتهم عنها وتبليغهم اياها على وجه الكمال . قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) الاسراء ١٥ . وقال عز وجل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ١٦٥ — النساء .

وقد عرفنا الله تعالى ذاته بواسطة الرسل ، ولكن المتكلمين انصرفوا عن المنهج الصحيح حيث أبطلوا هذا الجانب في دور الرسل — وهو التعريف بالله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا — وجعلوا عقولهم (دعاة الى الله تعالى

(٤١) نفس المصدر ص ١١٣ .

(٤٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .

ووضعوها موضع الرسل فيما بينهم (٤٣) ، أى أنهم استخدموا العقل فيما لم يخلق له ولا هو بقادر عليه ، اذ منح الله تعالى العقل لاقامة العبودية أى لفهم التكليف ومعرفة الاوامر والنواهي والتمييز بين السنة والبدعة والرياء والاخلاص •

هذا هو دور العقل فى الحقيقة ، حيث توسع فيه أهل الكلام المبتدع وحملوه مالا طاقة له به ، وجعلوه الاصل فى الدين ، فأصبح الاتباع والمأثور عندهم تبعا للمعقول ، وهذا من أكبر الاخطاء التى ارتكبوها ، وحجة علماء السلف فى ذلك انه (لو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الانبياء صلوات الله عليهم ، ولبطل معنى الامر والنهى ، ولقال من شاء ما شاء) (٤٤) •

وقد حدث بالفعل فى عصور غربة الاسلام أن اختلط الحابل بالنابل وسمح البعض لانفسهم بالخوض فى الدين بغير تسليح بأدوات الاجتهاد ، وبغير طريقة علماء السلف من المسلمين الذين جمعوا بين أيديهم مؤهلات تخصصاتهم وأهمها الحفظ والفهم والتقوى •

وبخلاصة وجهات النظر الانفة تفيدنا فى محيطنا الاسلامى الداخلى ، حيث تحمل الحجج المقنعة بأنه ينبغى الالتقاء حول القرآن الكريم غناية وحفظا وتدبرا وتطبيقا ، والاقتصاد فى استهلاك الجهود فيما لا طائل وراءه من اثاره الخلافات والصراعات على قضايا حسمت وانتهى أمرها بالاستقراء والرسوخ ، مع الكلف عن متابعة البدع المخترعة فى الدين •

وفى المحيط الخارجى — أى بالنظر الى ثقافة العصر ومعتقداته وفلسفاته — تحمل هذه الحجج طابع المعاصرة ازاء المتأثرين بالعناصر

(٤٣) المصدر السابق ص ٢٣٢ •

(٤٤) مسون المنطق ج١ ص ٢٣٥ •

الاجنبية . حيث تشجب دعاوى التطور في فهم العقيدة أو مراعاة روح العصر ، أو المرونة أو التآخي مع العقائد والنحل الاخرى ، الى غير ذلك من شعارات تؤدى الى (تذويب) الفوارق بين عقيدة التوحيد في الاسلام وغيرها من العقائد ، ومن ثم تفقدنا أقوى أسلحتنا لاعادة تكوين شخصية الامة على الاصل المعترف به لحضارتنا .

وقد كانت آفة (أهل البدع) في ماضينا التاريخي ، هي نفس آفة بعض المثقفين المعاصرين من خيث مخالفة المنهج السلفي ، فيبدأون بأفكارهم وما يظنون انه أفكارا صحيحة ، وبعدها يؤولون النصوص الدينية بما يتفق مع هذه الافكار المسبقة ، مظنة التطور ومجازاة لظروف العصر وأحواله . قال الشاطبي (ان لفظ « أهل الاهواء » وعبارة « أهل البدع » انما تطلق حقيقة على الذين ابتدعوها ، وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط والنصر لها ، والاستدلال على صحتها في زعمهم ، حتى عد خلافهم خلافا ، وشبههم منظورا فيها ، ومحتاجا الى ردها والجواب عنها . كما نقول في ألقاب الفرق من المعتزلة والقدرية والمرجئة والخوارج والباطنية ومن أشبههم — بأنها ألقاب لمن قام بتلك النحل ما بين مستنبط لها وناصر لها ، وذاب عنها . كلفظ (أهل السنة) انما يطلق على ناصريها ، وعلى من استنبط على وفقها ، والحامين لذارها) (٤٥) .

وفي موضع آخر يصفهم بأنهم الذين اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الادلة الشرعية مأخذ الاقتدار اليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الادلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك . ويضرب الامثلة على هؤلاء ، فان أكثرهم أهل التحسين

(٤٥) الشاطبي — الاعتماد ج ١ ص ١٠٣ .
ط دار التحرير سنة ١٩٧٠ — عن النسخة التي حققها الامام محمد رشيدرضا

والتقبيح (الى المعتزلة) ومن مال الى الفلاسفة وغيرهم • ثم ينتهى الى وصف الفئة المخرقة من العلماء المتقربين للسلاطين وذى الشأن خضوعا لرغباتهم وتمشيا مع نزعاتهم ، فيقول (ويدخل فى غمارهم من كان منهم يخشى السلطين لنيل ما عندهم أو طلبا للرياسة ، فلا بد أن يميل مع الناس بهواهم ، ويتأول عليهم فيما أرادوا ، حسبنا ذكره العلماء ونقله الثقة من مصاحبى السلطين) (٤٦) •

والآن ، بعد أن انتهينا من حجج علماء السلف فى مواجهة علماء الكلام ، سنوضح موقف السلف من الفلسفة :

(٤٦) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ •

موقف السلف من الفلسفة اليونانية

ففيما عدا الفلاسفة الذين خاضوا في الفلسفة اليونانية وتحمسوا لها ورفغوا من شأنها أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، فقد قوبلت الفلسفة بمعارضة شديدة من أغلب شيوخ المسلمين باعتبار أنها من قبيل البدع المنهى عنها ، استنادا الى الاحاديث الكثيرة المذكورة في هذا الباب^(٤٧) مذهبها ما أمر به الرسول ﷺ المسلمين (•• فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) •

ونرى ابن الجوزي ينقد الفلسفة بشدة بقوله (وقد لبس ابليس على اقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وغطنتهم فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة)^(٤٨) •

ويصف الفلاسفة المسلمين بالحيرة حيث أكسبتهم الفلسفة هذه الصفة ، فبينما بعضهم يصوم ويصلى الا أنه يتكلم في انكار بعث الاجساد ويأخذ في الاعتراض على الخالق وعلى النبوات^(٤٩) •

ويقر ابن الجوزي لفلاسفة اليونان بالذكاء والفطنة ، ويخص منهم بالذكر سقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس ، الا أنه يمدح الاتجاهات العلمية في أفكارهم ونظرياتهم كعلوم الهندسة والطبيعة التي أتوا فيها بالجديد ، ولكنهم أخفقوا في الالهيات التي ينبغي الرجوع شيها الى

(٤٧) انظر تلييس ابليس ص ١٢ •

(٤٨) المصدر السابق ص ٤٨ •

(٤٩) المصدر السابق ص ٤٩ •

الشرائع ، فالخطأ في نظريات الفلاسفة هو الانفراد بآرائهم وعقولهم والتماس الحقائق الغيبية منها ، بينما المصدر الصحيح للغيبيات هم الرسل والانبياء عليهم السلام^(٥٠) .

والاستشهاد برأى باحث معاصر أيضا يعضد هذا الرأي القائل بأن فلاسفة الاغريق (في بعضهم عن الله .. نرى أن آراءهم فيها ومضات من نور الحق ، في ظلمة حالكة من الابهام والغموض والشك والسفسطة)^(٥١) . ولعل من أهم المسائل التي كانت موضع الاتهام للفلاسفة حتى بلغ حد التفكير هي القول بقدوم العالم وانكارهم علم الله تعالى بالجزئيات وانكارهم بعث الاجساد^(٥٢) .

وقد اشتهر الامام الغزالي بتكفير الفلاسفة في هذه الموضوعات الثلاثة .

أما ابن تيمية فانه يستنتج أن سبب (التفلسف) لدى غلاة الفلاسفة المسلمين نشأ بسبب اعتقادهم للامثلة الصحيحة عند المتكلمين ، ومع ظن هؤلاء الفلاسفة أن النظريات الكلامية هي المعبرة عن الاسلام ، فقد رغبوها لانها لا تتفق مع العقل وظنوا بالتالي أن (دين الاسلام المعروف فاسد في العقل)^(٥٣) .

ولكن المعتزلة أقروا بما أتى به النبي ﷺ من الخير والصلاح وعيسى عليهما السلام ، ثم أقر ابن سينا بالرغم من نزعه الفلسفية

(٥٠) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥١) نديم الجسر : قصة الايمان بين الفلسفة والعقل والدين ص ٢٨ . منشورات المكتب الاسلامي - بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

(٥٢) نلبيس ابليس ص ٤٥-٤٧ ، والغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٩١ .

(٥٣) منهاج السنة ١ - ٢٢٥ تحقيق د. رشاد سلام .

وذلك بسبب مقارنتهم بين الفلسفة اليونانية والناموس الذى جاء به موسى واتجاهه الشيعى الباطنى أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموس محمد ﷺ (٥٤) .

أما أغلب الفلاسفة اليونانيين — ان لم يكن كلهم — غافهم من أبعاد الخلق عن معرفة الله ومعرفة خلقه وأمره وصفاته وأفعاله ، وقد انتقلت نظرياتهم الى فلاسفة المسلمين ، فأخذوا منهم آراءهم دون تمحيص ، ودون اتباع القاعدة المنهجية الاسلامية لمعرفة الفرق بين السنة والبدعة ، أو بين منهج الانبياء فى اثبات الالهية وبين غيرهم ممن حادوا عن هذا الطريق ، بل ان ابن سينا ابتدع كلاما فى الوحي والمنامات لم يقله المشاؤون قبله (٥٥) .

ولكن الفلاسفة الذين استناروا بنور النبوات ، واستقلوا بالنظر العقلى دون تقليد أسلافهم من فلاسفة اليونان — مثل أبى البركات صاحب (المعتبر) فهم أصلح قولا ، فقد (أثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه ردا جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وأفعاله) (٥٦) .

كذلك خضع الفلاسفة للبيئات الثقافية التى نشأوا فيها ، فابن سينا نشأ بين المتكلمين النفاة للصفة ، وكان ابن رشد قد تأثر بالكلائية ، ولكن أبوه البركات عاش ببغداد وخالط علماء السنة والحديث (فكان كل من هؤلاء بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك) (٥٧) .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٢٢٦ .

(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

(٥٦) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٥١ .

فالقاعدة اذن هي ما يلي :

جاء الرسل صلوات الله عليهم بالحق ، ومن اتبعهم كان على الصراط المستقيم ومن خالفهم حاد عن طريق الحق .

وقد كشف ابن تيمية عن دراسة واعية لاقوال الفلاسفة — انهم يختلفون اختلافا كبيرا فيما بينهم وانهم لا يتفقون على مذهب واحد في الالهيات والمعاد والنبوات والشرائع (ولا يتفقون الا على ما يتفق عليه جميع بنى آدم من الحسيات المشاهدة والعقليات التي لا ينازع فيها أجد) (٥٨) ، وأخذ يطالبهم بتقديم الدليل على قولهم بقدم العالم ما داموا يعتبرون أنفسهم محبين للحكمة وطالبيين لها فيخطبهم بهذه العبارة ساخرا (وأصل الفلسفة عندكم مبنى على الانصاف واتباع العلم ، والفيلسوف هو محب الحكمة ، والفلسفة محبة الحكمة) (٥٩) .

ويبدو من كتاباته أن المعارضة الحقيقية للفلسفة اليونانية نتيجة اختلاف مضمونها عن المضمون الاسلامي ، فهو لا يوافق على مناهج الفلاسفة التي حاولوا بها الجمع بين الشريعة الالهية والفلسفة اليونانية المشائية ، ذلك أن هؤلاء الفلاسفة لهم اصطلاحات ومعاني تختلف تماما عما أورده القرآن (٦٠) .

وما دام الامر كذلك ، فهو يلح على قضية اتفاق الادلة الشرعية مع العقل ، فما أحوجنا الى اتخاذ القرآن دليلا هاديا في الرد على النظائر — أى الفلاسفة والمتكلمين — فانه ملء بالاقبيسة العقلية ، ولا حرج على أهل

(٥٨) ابن تيمية : منهاج السنة ١-٢٥٣ .

(٥٩) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٦٠) ابن تيمية : بغية الرائد في الرد على المنطسفة والقراطة والباطنية

المنعوت (بالسعينية) ص ٧ ط فرج الله الكردي ١٣٢٩ هـ .

العلم والايمان من الاستعانة بالادلة العقلية الى جانب الادلة السمعية فهم (مؤيدون بصحيح المنقول وصريح المعقول) (٦١) .

ويعقد ابن تيمية الصلة بين بعض الفلاسفة وبين الصابئة عبده الكواكب . ودليله في هذا هو ان نظرية الفيض تدل على أن الفلاسفة كانوا يعبدون الكواكب « مع بنائهم هياكل النجوم يبنون هياكل العلة الاولى وهياكل العقل وهياكل النفس » (٦٢) .

والفلسفة عنده تصيب فقط في علوم معينة كال حساب وأكثر الطبيعية وكثير من الهيئة أى علم الفلك (٦٣) ، ولكنه عندما يقارن بين الفلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين فإنه يقرر للفريق الثانى بأنه (أخبر وأدق ، وقلوبهم أعرف ، وألسنتهم أنطق وذلك لما عندهم من نور الاسلام) (٦٤) .

أما اذا قارن بين الفلاسفة المتأخرين وبين أهل العلم والايمان من علماء السلف ، فإنه يصف الفريق الاول بالتناقض والضلال ، وتفضيل ذلك عنده أن سبب ضلالهم هو عزوفهم عن النور الذى أضاءته شمس النبوة، ولجؤهم الى التفلسف ، بينما الهدى المحمدى هو الاولى الاتباع ، حيث وصف النبى ﷺ رسالته ، بأنها الرحمة المهداة وفى الحديث (انما أنا رحمة مهداة) ، فهم بمسلكهم هذا كمن يريد (أن يطفىء نور الشمس بالنفخ فى الهباء ، أو يغطى ضوءها بالعباء) (٦٥) .

وإذا انتقلنا الى الفكر الاسلامى المعاصر الناقد لفلاسفة اليونان

(٦١) المصدر السابق ص ٥٩ ..

(٦٢) المصدر السابق ص ٧٦ .

(٦٣) ابن تيمية : الرد على البكرى ١-١١٤ .

(٦٤) نفس المصدر ص ١١٥ .

(٦٥) المصدر السابق ص ١١٥ .

بمنظور قرآنى ، فأننا نعثر فى أفكار محمد اقبال على آراء مناهضة للفكر اليونانى يستند فيها الى المنهج المقارن حيث ينظر الى نتاج الفلسفة اليونانية بميزان القرآن الحكيم .

انه يرى أن الفلسفة اليونانية ومنهجها فى البحث تختلف عما أورده القرآن ، والدليل على ذلك أن سقراط كان همه الانسان وحده . ولكن القرآن يوسع دائرة النظر فى ملكوت السموات والارض فيدعو بنى آدم الى التأمل فى كافة المخلوقات كوظائف النحل مثلاً ، ويجعلهم يتطلعون الى تصريف الرياح ، والنظر الى السماء ذات البروج ، والكواكب السابحة فيها ، وفى تعاقب الليل والنهار الخ ..

وكان أفلاطون وفيثا لنظريات أستاذه ، فنقد الحس ، وقدح فى الادراك الحسى لانه يفيد الظن (وما أبعد هذا القول عن تعاليم القرآن الذى يعبد السمع والبصر أجل نعم الله على عباده ..) (٦٦) .

أما هدف القرآن الاساسى فهو ايقاظ شعورا ساميا لدى الانسان بما بينه وبين الخالق عز وجل ، وبين الكون من علاقات متعددة ، فالروح القرآنية تتجلى فيها النظرة الواقعية (على حين امتازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظرى المجرد واغفال الواقع المحسوس) (٦٧) .

ويرى أن القرآن لا يستحسن (الكليات المجردة ، بل يعنى دائماً بالمشخص المعين ، ذلك الشخص الذى لم تتعلم الفلسفة الحديثة أن تضعه موضع الاعتبار الا حديثاً على يد النظرية النسبية) ، فالمعرفة كما يوضحها

(٦٦) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ٩ ترجمة عباس محمود ومراجعة د. مهدي علام لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م .
(٦٧) المصدر السابق ص ١٤٦ .

القرآن يجب أن تبدأ بالمحسوس ، كما يظهر بوضوح الاتجاه التجريبي
المعاصر للقرآن (٦٨) .

وهكذا يتبين أن التفكير الاسلامي اتجه اتجاهها مباينا لاتجاه التفكير
اليوناني وهو ما كشف عنه ابن تيمية في محاولاته العقلية الممتازة التي هدم
بها أسس المنطق اليوناني ، ثم استند المناطق المحدثون اليه في نقيضهم
لدعائمه أيضا ؛ حيث أقروا باختلاف المنهج عند المسلمين عنه في منطق
يونان ، فالمنهج عند المسلمين كان تجريبيا ، بينما لم يعرف اليونان التجربة
كمنهج للبحث العلمي (٦٩) .

وأخيرا سنحسم هذه القضية التي طال الحديث عنها بأن نوضح
الفرق بين لفظ العقل ومدلوله في اللغة والفلسفة اليونانية ، وبينه في
اللغة العربية والشرع الاسلامي :

• (٦٨) محمد اتبال : تجديد التفكير الديني ص ٩٤ ، ص ١٥١ .

• (٦٩) نفس المصدر ص ١٤٩—١٥٢ .

العقل بين الفلسفة اليونانية والشرع الاسلامى

كان لحركة ترجمة الفلسفة اليونانية أثرها فى الفلسفة الاسلاميين وأشهرهم الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، وانتقل مع الترجمة (نظرية الصدور) أو (الفيض) التى انحدرت من بعض مقتطفات من تاسوعات أفلوطين .

وأول من نقلها الى الفكر الاسلامى هو الفارابى الذى قال بأن الموجودات جميعها تصدر عن علم واحد فإله تعالى وفقا لهذه النظرية يعقل ذاته وصدور العالم هو نتيجة حتمية لعلمه بذاته ، وما دام الاول واحدا فيجب أن يكون الصادر عنه احدى الذات .

وعملية الصدور وفقا لهذه الفلسفة تقوم أصلا على صدور العقول عن الله تعالى فى ترتيب تنازلى ، وينتهى فى تسلسله — أى نتيجة عملية الصدور الى تسعة عقول ، وقد تصل الى عشرة عند ابن سينا ، ويصدر عنها الاجرام السماوية وينتهى بالعقل الفعال .

وهذا العقل الاخير — هو عقل فلك القمر ويسميه الفارابى روح القدس أو الروح الامين ، وهو مجرد عن المادة وهمزة الوصل بين العالم العلوى والعالم السفلى وهو الذى يدبر ، تحت فلك القمر (٧٠) .

ونحن نعرف بحكم معلوماتنا المعاصرة عن عوالم الافلاك أن هذا التصور الفلسفى محض خرافة ولكن الفلاسفة المشائين ظنوا أنها تصل

(٧٠) د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ج٢ ص

٥٩ وما بعدها باختصار . ط دار الجامعات المصرية بالاسكندرية سنة ١٩٧٠ وينظر ايضا دراسة استاذنا الدكتور محمد على أبو ريان عن نقد الفيلسوف

ابى البركات (٥٥٠ — ٥٨٨ هـ) لهذه النظرية (ص ٢٠٢ — ٢١ نفس المصدر) .

في ثبوتها الى مرتبة اليقين وصدقوها كما ينبغي أن يصدق الوحي (٧١) ••
 ظنا منهم أنها تفسر خلق العالم •

وربما ظلت المبالغة في دور العقل والتهويل في مكانته منحدرًا من هذه الفلسفة منذ العصر اليوناني الى يومنا هذا لدى فلاسفة الغرب ، حيث ، احتل (العقل) في التصور اليوناني لا مجرد التبجيل والاشادة بل الرهبة في النفوس . كآثر من آثار الاعتقاد في مكانة هذا العقل الفعال ودوره في عملية الخلق . وانعكس هذا الغلو الى العقل الانساني أيضا ••

وبعد أن بينا مكانة العقل في عقيدة الاسلام حيث رتب عليها التكليف . كما تقديم في بعض الايات القرآنية التي تحدثت عن العقل ومدحته •
 وجاء ابن تيمية في القرن السابع — الثامن الهجري ليدحض التصور الفلسفي للعقل مستخدما منهج المقارنة بين (العقل) في الفلسفة اليونانية (والعقل) في الشرع الاسلامي واللغة العربية •

ويذكر أولاً الحديث المتداول في كتب الفلاسفة ونصه (لما خلق الله العقل قال له : قم فقام ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أقعد فقعد ، فقال له : ما خلقت خلقا هو خير منك ولا أكرم على منك ، ولا أحسن منك ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أعرف وبك الثواب وعليك العقاب) •

وقد أجمع علماء الحديث — ومنهم ابن الجوزي — أن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (٧٢) •

(٧١) د . أبو ريان * تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ج٢ ص ٦٤ .
 (٧٢) ابن تيمية : كتاب بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وهو المنعوت (بالسبعينية) ص ٦ . طبعة كردستان العلمية (تخرج الله زكي الكردي) بمصر ١٣٢٩ هـ .

كذلك عارض ابن تيمية استخدام المصطلحات الفلسفية للتعبير عن الحقائق الاسلامية لا سيما في العقيدة وأصول الدين ، وذلك للأسباب الآتية :

أولاً — العامل اللغوي : فان فلاسفة اليونان لهم أوضاع واصطلاحات شأنهم في ذلك شأن كل أمة ، بل وأهل كل فن وصناعة . ولما كانت اللغة اليونانية مختلفة عن اللغة العربية وجب ترجمة معاني مفرداتهم الى العربية لمعرفة مقاصدهم وهذا جائز بل حسن بل قد يجب أحيانا كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود .

إن المعرفة بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة في معرفة مقاصدهم ، ثم نحكم فيها كتاب الله تعالى فما وافقه حق وما خالفه فهو باطل ، كما قال الله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) (٣) ١٠ [الآية ٢١٣ سورة البقرة]

ثانياً — قلب الفلاسفة الآية الوضع الصحيح المنهجي فأرادوا انزال كلام الله تعالى ورسوله ﷺ على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح ، والامثلة على ذلك وصف الملائكة بأنها أنوار في أنوار ، وأنوار في ظلال ، وأنوار في ظلمة ، والاول هي العقول ، والثاني هي النفوس الفلكية ، والثالث النفوس الطبيعية .

ومعلوم أن الملائكة الذين وصفهم الله تعالى في الكتاب والسنة

لا ينطبقون على هذه العقول العشرة والنفوس التسعة التى يذكرونها^(٧٤) .
ثالثا — بعث الرسول ﷺ ليخبرنا بالغيب ، وما ذكره من المشاهدات
فانما ذكره آية ودلالة على ما أخبر به من الغيب . وكذلك روح الانسان
وقلبه فى الكتاب والسنة من الاخبار عن ذلك مالا يكاد يحصيه إلا الله
تعالى .

وتستبد الدهشة بشيخ الاسلام فيبدي تعجبه بقوله (يا سبحان الله
اذا لم يكن الاخبار عن هذا القسم فى هذا الكتاب الذى ليس تحت أديم
السماء كتاب أشرف منه ، وعلم هذا لا يؤخذ عن الرسول الذى هو أفضل
خلق الله تعالى فى كل شئ فى العلم والتعليم وغير ذلك ، أ يكون ذكر هذا
فى كلام أرسطو وذويه وأصحاب رسائل اخوان الصفا وأمثال هؤلاء الذين
يثبتون ذلك بأقيسة مشتملة على دعاوى مجردة لا نقل صحيح ولا عقل
صريح . . . (٧٥) .

ويرى ابن تيمية أن جميع أهل الملك من المسلمين واليهود والنصارى
لا يعتقدون بأن شيئا من الملائكة يفعل شيئا أو أنه مبدع لجميع ما تحت
فلك القمر بل قد قال الله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين
أربابا يأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟) * [آية ٨٠ آل عمران] .

كذلك اتفق جميع أهل الملك أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام .

رابعا — ان العقل فى لغة المسلمين كلهم أولهم عن آخرهم ليس ملكا
من الملائكة ولا جوهرًا قائما بنفسه بل هو العقل الذى فى الانسان ولم يسم
أحد من المسلمين قط أحدا من الملائكة عقلا ولا بنفس الانسان الناطقة عقلا

(٧٤) المصدر نفسه ص ٢٠

(٧٥) المصدر نفسه ص ٢٢ .

بل هذه من لغة اليونان ومن المعلوم أن حمل كلام رسول الله ﷺ أو كلام الله تعالى على ما لا يوجد في لغته .

خامسا — أن العقل في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والائمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وانما يراد به العقل الذي في الانسان .
سادسا — والعقل اذا كان في لغة المسلمين هو عرض قائم بغيره لم يكن مما يخلق منفردا عن العاقل وانما يخلق بعد خلق المعتلاء . وأيضا فان مثل هذا لا يخاطب ولا يقبل ولا يدبر وأيضا فقبوله (ما خلقت خلقا أكرم على منك) لا يجوز أن يضاف الى الله تعالى فانه من المعلوم أن الانبياء والملائكة أكرم على الله تعالى منه .

سابعا — ان هؤلاء سمعوا في الحديث ان أول ما خلق الله القلم وهذا الحديث معروف ليس مثل الاول رواه أبو داود في سننه عن النبي ﷺ وروى عن ابن عباس وغيره من الصحابة لكن السلف متنازعون هل المراد بذلك أول ما خلقه من هذا العالم الذي خلقه في ستة أيام كما قال (وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) وعلى هذا القول فالعرش كان مخلوقا قبل ذلك أو هو مخلوق قبل العرش على قولين .
والاحاديث الصحيحة تدل على القول الاول .

ثامنا — للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولان — أحدهما ان القلم خلق أولا كما أطلق ذلك غير واحد وذلك هو الذي يفهم في الظاهر في كتب من صنف في الاوائل . والثاني أن العرش خلق أولا .

وبكل حال فهذه الاحاديث التي في الصحاح والسنن المسانيد والاثار التي عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا القلم ليس ما يدعيه هؤلاء أنه

الذى يسمونه العقل الاول أو الفعل فانه أمره أن يكتب فقط لا أن يفعل شيئاً غير ذلك والعقل عندهم أبدع جميع الكائنات وأمره أن يكتب في الذكر وهو اللوح فيكون اللوح قد خلق قبل أن يكتب القلم شيئاً اذ الكتابة لا تكون الا في لوح .

ويصل من عرض كل هذه الحجج والبراهين الى القول بأن النصوص والاثار المتواترة عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين متطابقة على ما دله عليه القرآن من أن الله خلق السموات والارض في ستة أيام وان كان العرش مخلوقاً قبل ذلك . وهذا أيضاً متفق عليه بين أهل الملل كاليهود والنصارى وهو مذكور في التوراة وغيرها كما ذكر في القرآن ، ولهذا شرع الله لأهل الملل اجتماع أهل المدينة في كل أسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويتخذونه عيداً وجعل للمسلمين يوم الجمعة ..

والمقصود هنا أنه من المعلوم أن الاسبوع ليس له حد موجود في السماء كما يوجد في اليوم والليلة والشهر بل انما يعد عدا لان الله خلق هذا الخلق في ستة أيام ثم استوى على العرش فانتشرت أيام الاسبوع في العالم من جهة أخبار الانبياء ولم يعلم ذلك الا من أخذ عنهم .

.. فكان في هذا الاجتماع العام حفظ لايام الاسبوع وفيه تذكير بالاسبوع الاول الذي خلق الله فيه الخلق . وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه ادخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا في يوم الجمعة) ..

ومعلوم أن هذا الاجتماع والاخبار بالخلق في ستة أيام معلوم بالاضطراد من دين أهل الملل وهؤلاء عندهم أن هذه السموات ما زالت هكذا ولا تزال هكذا متحركة على هذا الوجه من الازل الى الابد ولا يزال

العقل الاول أو الفعال الذي يسموه بالقلم هذا أو هذا مقارنا لها وليس عندهم قيامة تنشق فيها السموات وتنفلط ويستحيل عندهم أن تكون السموات مسبوقة سبقا زمانيا بشيء من الأشياء لا بربها ولا بعرشه ولا بغير ذلك فضلا عن أن تكون مسبوقة بتقدير مقاديرها بخمسين ألف سنة . فهل يمكن أن يكون ما أخبر به الانبياء مطابقا لقولهم وأن يكون نبينا محمد ﷺ أراد بما أخبر به ما يريد هؤلاء بما يذكرونه من فلسفتهم هذا مما يعلم كل من فهم الكلامين أنه باطل بالاضطراد وأن الكلامين متناقضان قطعا وأن كان في بعض ما يقولونه ما هو موافق لما أخبر به الرسول ﷺ فهذا لا بد منه في كلام كل طائفة (٧٧) .

وبعد ، فإن عذرنا في التماس أغلب عناصر الموقف السلفي من كتب شيخ الاسلام يرجع الى دوره التجديدي في الفكر الاسلامي حيث استوعب التراث الاسلامي استيعابا شاملا عميقا ، وصاغ اجتهاداته في قالب جديد ، بحيث استطاع مخاطبة المتكلمين والفلاسفة بلغتهم ، مستقرا آيات القرآن الحكيم التي تخاطب العقول والافئدة ، ومذكرا المسلمين بأن الرسل صلوات الله عليهم تخبر بمجازات العقول — أي التي تجيزه — وما لا تعرفه العقول أو ما تعجز عن معرفته ، كما لا تأتي الرسل صلوات الله عليهم بما يعلم نقيضه ، ولكن قد تأتي بما لم يكن يعلم ، كما قال تعالى :

(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) ١٥١ — ١٥٢ البقرة .

وهكذا أخذ يوجه ابن تيمية الانظار مرة أخرى بعد تحول الغالبية عن

(٧٧) ابن تيمية : بيغية الارتاد ص ٦٠ — ٦٣ .

(٧٨) ابن تيمية : شرح العقيدة الاصفهانية ص ٥٠ — ط كردستان العلمية

طريقة السلف — أخذ يوجهها الى الكنوز الثمينة في آيات الله تعالى المقروءة وتطابقها مع آياته الكونية المشاهدة ملحا على اثبات تطابق الادلة الشرعية مع الادلة العقلية .

وهذا يقتضى أن نعطي للقارىء نبذة عن دوره التجديدى :

تجديد المنهج السلفى على يد شيخ الاسلام ابن تيمية :

يبنى شيخ الاسلام ابن تيمية منهجه فى القضايا التى تنازع عليها من قبله المتكلمون وغيرهم من الفلاسفة الاسلاميين على قواعد ثلاث تلك القواعد الثلاث التى يقصد بها اعلاء الميزان القرآنى وتفضيله عما سواه من النظريات والقواعد المستوردة عن غير المسلمين .

والقاعدة الأولى التى توضح سمات منهج ابن تيمية هى تأكيد الدائم بعدم تعارض العقل مع النقل الصحيح .

أما القاعدة الثانية فهى أخذ على المتكلمين استخدامهم للمصطلحات والتعبيرات المستوردة ، أو المنقولة عن الفلسفة اليونانية ، **والقاعدة الثالثة** فمن سمات منهجه هى نقده للمنطق الارسططالىسى ورغضه مع اثبات فسادته وتهافتة وعدم الحاجة اليه .

وإذا تأملنا بشئ من التفصيل — مع مراعاة الاختصار^(٧٩) — سمات

هذا المنهج الثلاث وجدنا شيخ الاسلام يرى فى أول سمات منهجه — عدم التعارض بين صحيح المنقول من أصول الديانة وبين (صريح المعقول) مما يقره العقل السليم ، أو لا يجد تعارضا بين العقل والسمع والرواية والدراية ، ويرى فى عدم الاتفاق بينها — أن وجد — دليلا على خطأ واحدة من الاثنين أو كليهما .

(٧٩) ينظر كتابنا : منهج علماء الحديث والسنة فى اصول الدين ص ٢٢٤ —

٢٤٢ ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

وهذا الموقف من شيخ الاسلام يعيد الثقة في وقت اشتدت فيه الحاجة — الى الثابت من أمور الشريعة بالتواتر ، ويدفع الى النظر عند تعارض نص صحيح مع ظاهر العقل الى اعادة النظر مرات في طبيعة النظرة التي أدت الى الخلاف •

والسمة الثانية التي تميز منهج ابن تيمية هي رفضه للمصطلحات اليونانية التي استخدمها المتكلمون وغيرهم من الفلاسفة ، وهي مصطلحات أغنانا الله عنها بالقرآن ، كما أن نقل اللفظ من لغة الى لغة أخرى قد يؤدي الى الوقوع في الخطأ عند استخدامه نظرا للفرق بين اللغات في المعاني الدقيقة — وهذا ما حدث عند نقل كلمة (عقل) عن اليونانية كجوهر قائم بذاته بما يخالف معناه في العربية • كما بينا آنفا •

لذلك فإن شيخ الاسلام ابن تيمية يدعو الى الاتجاه الى القرآن وحده واقتباس المصطلحات منه دون غيره من الفلسفات والثقافات الاخرى ، يأخذ على المتكلمين استخدامهم لتلك المصطلحات الغربية والبراهين المستوردة واغفالهم هذا المنبع العذب المصادق •

أما القاعدة الثالثة والسمة الاخيرة التي توضح منهجه توضيحا بارزا ، هي هدمه للمنطق الارسططاليسي وهو المنطق الذي ظل سائدا لفترة طويلة من الزمان لا في الغرب أو الشرق وحدها ولكن في العالم كله آنذاك ، ولقد كان هذا المنطق ماثرا فتنه للبشرية نظرا لشدة اعجاب الناس به ، فعرفوه بأنه القانون الذي يعصم الذهن من الزلل •

وقال عنه الامام الغزالي (من لم يعرفه لا ثقة بشيء من علمه) الى أن جاء الامام ابن تيمية ليحمل المعول وينقض عليه حتى يهدمه تماما ، وهو بهذا لم يقدم خدمة للمسلمين فقط ولكنه قدم خدمة جليلة للبشرية جمعاء ،

وكان سببا في نهضة أوروبا الحالية بعد تركهم لهذا المنطق واتباعهم للمنهج التجريبي (أساس الحضارة المعاصرة) •

ولكن ابن تيمية لم يكتف بهدم المنطق الارسطي فقط وانما أقام على أنقاضه منطقا آخر يستمد دعائمه من القرآن الكريم والسنة النبوية (*)
لذلك فقد استحق أن يعلق عليه أستاذنا الدكتور النشار بقوله (ولو أن الدراسات المنطقية سارت على ما سار عليه شيخ الاسلام بدلا من الشروح والنقول لكان لهذا المنطق الان مكانة أخرى) •

الناظر لمنهج ابن تيمية هذا يجده منهاجا قرآنيا كاملا يستمد من القرآن مصطلحاته وطرقه للبرهنة على القضايا التي صال فيها المتكلمون وجالوا من طرق غير صحيحة فلم يغن عنهم ذلك شيئا سوى أتعابهم لانفسهم ولغيرهم •

ولنتأمل الان استخدام ابن تيمية للبراهين القرآنية تبعا لمنهجه هذا:

البيانات والهدى :

يقول ابن تيمية أن البيانات جمع (بينة) وهى الدليل الواضح الذى لا لبس فيه ، ولقد بعث الله الرسل بالبيانات وهى الادلة الدامغة على صدق رسالتهم ونبوتهم •

أما الهدى فهو السبيل الذى يؤدى بسالكة الى النجاة من عذاب الله يوم القيامة وفوزه بالنعيم المقيم •

ويضرب ابن تيمية مثلا لذلك بمن أراد أن يسافر الى مكة ، فهو يجد من يده على الطريق الصحيح المؤدى اليها فهذا هو الهدى ، والبيانات هى العلامات التى تدله على أنه يسلك الطريق الصحيح ، ويجد من يصف له

(*) ينظر كتابنا : مناهج البحث فى العلوم الإسلامية من ١/٢١ ط مكتبة الزهراء بالقاهرة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الدليل الذى يقوده الى هدفه بعيدا عن الجاهلية الذين يدعون ارشاده وهم لا يعرفون الطريق الصحيح المؤدية الى مقصده .

فان أطلاع السائل وسار فى الطريق الصحيح وصل الى غايته اما أن اتخذ لنفسه طريقا أخرى فانه مضيع لوقته وجهده وقد لا يصل الى هدفه أبدا .

ولقد تواترت الايات بذكر (البينات) وذكر (الهدى) ولقد جمع الله تعالى بينهما فى قوله تعالى :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

أما (الفرقان) فان كتاب الله فرقان بين الحق والباطل ، ولقد جاء الرسل ليفرقوا بين المهتدين وغيرهم ، فالقرآن أسماء الله فرقانا لانه يفرق بين من يسير على الهدى ويتبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على بينة ومن يسير ولقى هواه لا يدري إلى أين يصير .

الميزان القسرائى :

يقول ابن تيمية ان المقصود بالميزان الذى يكتر ذكره فى القرآن ، الاداة التى وهبها الله تعالى للانسان ليفرق بين الحق والباطل ، الا وهى العقل الصحيح ، الذى يقيس بها الانسان ما ينفعه وما يضره ، وهو الذى يزن به المرء أمور دينه ويعرف عن طريقه صدق المرسلين لما أتوا به من بينات وخطوا طريقا للهدى .

وهو ميزان صادق يعطى كل شىء قدره ويعرف له قيمته .

فان احتجوا بأن الناس تضل مع وجود عقولهم وهى ميزان يهتدون به

لا يفضلون، فان الشيخ قال ما معناه أن ضلال هؤلاء ليس لقصور فيما وهبهم الله الا بسبب اما من داخلهم كشهوة وغيرها أو من خارجهم كشبهة وفتنة وهذه الاشياء هي التي تجعل الانسان مع علمه بمضار ما يضره لظنه أن النسبة مختلفة .

قياس الاولى : (على وزن الافعل)

يرى شيخ الاسلام ان الاستدلال على وجود الله تعالى واثبات صفات الكمال له يقوم في القرآن من باب قياس الاولى ، فاذا كان أحدا من خلقه تعالى متصفا بالكمال في بعض صفاته فمن باب أولى أن يكون خالقه متصفا بصفات الكمال هذه بكيفية تليق به سبحانه وتعالى .

وبهذا القياس يستدل ابن تيمية على وجوب اثبات الصفات والاسماء لله سبحانه وتعالى كالسمع والبصر والكلام لانها صفات كمال ، وقد اتصف بها من مخلوقات الله ، فمن باب أولى أن يكون الخالق جل وعلا متصفا بها بالكيفية التي تليق به سبحانه .

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى ١١]

ويستخدم القرآن الكريم قياس الاولى هذا في اثبات عدم الشرك بالله عز وجل يقول تعالى :

(ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقاكم فأنتم فيه سواء تخالوهم كخفيتمكم انفسكم كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون) [الروم آية ٢٨]^١

فاذا كان حال الخلق هكذا فكيف يرضى الله تعالى أن يكون له شريكا في الملك من باب الاولى ، لان عدم الشرك صفة من صفات الكمال .

ويقول تبارك وتعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) :

الى غير ذلك من الاستدلالات القرآنية التى تقوم على دليل (الاولى) وهو ما استخدمه الشيخ كواحدة من طرق البرهان القرآنية تفوق فى قوة اقناعها وتأثيرها كل أدلة المتكلمين ومناهجهم فى طرق الاستدلال .

كذلك يستخدم الله سبحانه وتعالى دليل الاولى هذا عندما يستدل على قضية البعث والنشور يوم القيامة وهى القضية التى أنفق فيها الفلاسفة والمتكلمون جد وقتهم ولم يصلوا فيها الى ما يفيد يقينا أو اقناعا ، فيسوق الله تبارك وتعالى فى قرآنه أربعة طرق استدلالية على امكانية البعث وكلها تقوم على (اللزوم) و (الاولى) .

١ — الدليل الاول على البعث والنشور ووجود يوم القيامة يقدمه الله تبارك وتعالى من خلال روايته عن أموات أحياءهم الله فى الدنيا بعد أن أماتهم ، مثل قوله عن الذى مر على قرية وهو منكر للبعث فأماته الله ثم أحياء

(أو كالى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال ألى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ..) [البقرة آية ٢٥٩]

وكما فى سورة الكهف عن الفتية الذين آمنوا بربهم (وكذلك بعثناهم ليساءلوا بينهم من) [من آية ١٩] الى أن يقول : (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) [من آية ٢١ سورة الكهف]

ويقول بعض المفسرين ان الله بعثهم فى زمن كان الجدل فيه قائما حول البعث وهل هو بالجسد أم بالروح فقط . كما هو حال النزاع القائم بين الفلاسفة دائما وبين المتكلمين .

٢ — ويقدم الله عز وجل دليلا آخر ليبرهن على نفس القضية من خلال اثباته أن الخلق الاول أيسر من اعادته فيقول (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال

من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) •

٣ — ثم بدليل آخر وهو أن خلق السموات والارض والجبال أصعب بكثير من خلق الناس واعادتهم بعد موتهم (أحياء) أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون •

٤ — وأخيرا يستدل الله سبحانه وتعالى بالارض الميتة ينزل عليها المطر ، فتحيا بعد موتها بقوله (ان الذى أحيانا ليحيى الموتى) •

(وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) [يس آية ٣٣]

دليلا الاعتبار وال لزوم :

١ — الاعتبار :

وهو يستخدم كثيرا فى القرآن عند الحديث عن الامم السابقة ، فانه عندما نقص علينا قصصهم لا يقصد مجرد الرواية وانما يقصد تعالى أن نعتبر بحالهم •

يقول تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة ، ما كان حديثا ليفترى) •
ويقول (إن فى ذلك لآيات لأولى النى) [طه آية ١٢٨]

٢ — اللزوم :

وهو الناتج عن دليل الاعتبار ، فمن قصص الانبياء الحديث عن الامم التى أهلكها الله تعالى لظلمها وهى كثيرة فى عدة مواضع يذكرها • لزوم ذلك أن نتجنب ما فعلت هذه الامم حتى لا يصيبها ما أصابهم ، وأكثر هذه

القصص قصة بنى اسرائيل ، ويحذر ﷺ في أحاديثه من التشبه بأهل الكتاب والامم الاخرى (٨٠) .

وهكذا نخرج من كل هذا بأن ابن تيمية لما هدم المنطق ، واعترض على استخدام المتكلمين لبراهين ومصطلحات غير نابعة من البيئة الاسلامية ، لم يكتف بمجرد التهدم وانما جذب الانتباه الى منهج أفضل ينبغي علينا نحن المسلمين أن نتجه اليه لنستخدمه كبراهين أدل وأكد ، الا وهو كتاب ربنا : القرآن العظيم (٨١) .

ونعود الى الحديث عن العقل وأدلته في دائرة الفكر الفلسفى الحديث حيث اختلطت مفاهيم وتشابكت أفكار حول عقيدة الاسلام وقاريضه وحضارته ، بسبب عوامل الغزو الثقافى الاجنبى التى تحدثنا عنها باسهاب وظهر صدى هذه الافكار أكثر ما ظهر في فكرة شاعت حول (السلف) وملخصها أنهم يستبعدون العقل ، ولا يعترفون بالفكر الحر .

وكما قلنا ونردد دائما أن مثل هذه الافكار وليدة دراسة الفلسفة الاوروبية لا سيما فلسفة ديكارت ، وهى فلسفة تعبر عن موقف خاص بثقافة أوروبا وعلاقة الفكر الفلسفى هناك بالفكر الدينى الكنسى ، حيث

(٨٠) وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لتبتعن سنن من كان قبلكم خذو القذوة بالقذة) احسدى ريش السهم) حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) وروى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون شبرا بشبر ، وفزاعا بفزاع ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس الا أولئك ؟) .

(٨١) وكنا قد توسعنا في شرح منهج شيخ الاسلام بكتابنا (منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين) وقد اقتضى البحث اختصاره ها هنا .

ارتفع صوت أب الفلسفة الحديثة كما يسمونه هناك لمحاربة فلسفة أرسطو ومنطقه العقيم ، وأيضا لمنازعة سلطان رجال الكنيسة .

ولكن (العقل) الاستنباطى الديكارتى لا يفهم الا فى ضوء العوامل الانفة ، ولا يصح عاميا الاستناد اليه فى فهم أصول دينية أخرى — كالاسلام — وهل استطاع ديكارت — حتى بالرغم من المخالاة فى وصفه بأنه صاحب اتجاه خاص ومبدع (الفكر الحر) ، هل استطاع التخلص من النظر الغيبى أو الميتافيزيقى الذى يعد الوجه الآخر لحقيقة حياتنا ؟

الاجابة عن هذا الاستفسار الهام نلتمسه من جيمس كولنيز الذى يقول (ولقد كانت لديكارت نظرية طبيعية برهانية ميتافيزيقية عن الله ، ولكنها طبيعية بمعنى استبعادها كل تأثير للوحى استبعادا ايجابيا ، وهى ميتافيزيقية بمعنى انتمائها الى علم سابق من الناحية الاستنباطية وخاضع من الناحية الوظيفية لفزياء فلسفية) (٨٢) .

فما الظن اذن بموقف كهذا يستبعد الوحى ويستبدله بعلم يستنبطه بمنهج فلسفى ؟ وهل العلم السابق المولد بمنهج الشك الديكارتى الا قانون (الفطرة) المغروز فى النفوس البشرية قاطبة وبها تعرف ربها معرفة عامة ، ثم يأتى الوحى عن طريق الرسل لتدعيم هذه المعرفة وتخصيصها وتدعيمها بالتشريعات الدينية ؟

ان حركة (العقل) هنا محكومة بقوانين الفطرة ، ويحتاج العقل الى الوحى كمصدر غيبى يمدّه بالمعرفة اليقينية .
وبهذا التصحيح لعلاقة (العقل) بالوحى امتاز منهج السلف أيضا بدوره الرائد فى النظر العلمى ومناهج البحث .

(٨٢) ص ٥٦٥ من كتاب جيمس كولنيز : الله فى الفلسفة الحديثة ترجمة
نؤاد كامل ط مكتبة غريب بالنجالة ١٩٧٣ م .

أثر عقيدة التوحيد عند السلف

في النظر العلمي للمسلمين

إذا أخذنا الفلسفة اليونانية كنموذج معبر عن الأساس الایدولوجی لحضارة سابقة على حضارة الاسلام ، رأينا كيف ينظر اليونان وفلاسفهم الى الكواكب ، فقد عدوها آلهة واعتبروا الكائنات العلوية مقدسة ، ونظروا اليها نظرة وجل ورهبة ، وكان بعضهم من عبدة الكواكب .

وكذلك فان العرب الوثنيين قبل الاسلام كانوا ينظرون الى الكواكب بمثل هذه النظرة فيقدسونها ويرهبونها ويخلقون آمالهم وأحلامهم بحركاتها ودورائها ، فأصبحت قواهم العقلية والنفسية مقيدة بمعتقداتهم الوثنية حيث أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى ، وخضعوا للمعتقدات الباطلة في أعمال التنجيم .

ثم جاء الاسلام فأبطل هذا كله وخلص العقول والنفوس من أدران الشرك والمعتقدات الباطلة لكي لا تخضع ولا ترهب ولا تذلل ولا تخشى ولا ترجو — وقبل هذا وبعده — لا تعبد الا الله تعالى وحده ، وفك القرآن الحكيم العقول من أسر أغلال الشرك والوثنية وحضها على النظر في ملكوت السموات والارض ، ودفع المسلمين الى معرفة أسرار الكون ودراسة ما في عالم الطبيعة من قوانين موضحا أن كل ما سوى الله تعالى — سواء في عالم الاغلاك الكبرى ، أو في أدنى أنواع الكائنات كالذباب والعنكبوت والبعوض — كلها مجرد مخلوقات لرب العالمين ، كما أوضح كتاب الله المقسوء أن الإنسان أفضل من الكواكب بما فيها الشمس والقمر ، وأنها مسخرة له .

كذلك ازدهر علم الفلك على أيدي المسلمين ازدهارا منقطع النظير ،

— كما يرى الدكتور ألفندي — لسببين :

الاول : اعتمدت كثير من العبادات كأوائل الشهور العربية واتجهت
القبلة وتحديد مواقيت الصلاة على ظواهر ملكية .

الثاني : حث القرآن الكريم المسلمين على دراسة أجرام السماء
ليلمسوا قدرة الخالق جل شأنه ويزوا ربواشع آياته وعظيم تدبيره في كل
ركن من أركان السماء (٢٨٢) .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن مقومات الحضارة الاسلامية تحققت
بقيمتها ومبادئها على أفضل صورة وأحسنها عندما تمكنت عقيدة التوحيد في
النفوس ، فننفذوا شريعة الاسلام وحققوا مبادئه وأخلاقياته .

ونعنى بالحضارة شقها الاساسى من قيم ومبادئ سلوكية قويمه
 وأنماط الحياة الانسانية الفاضلة حيث يتحرى الصدق والايثار والتضحية
وتفضيل الاجلة على العاجلة وابتغاء مرضاة الله تعالى ، وبذلك تصبح
الفضائل الانسانية هى الغالبة وتنحصر الرذائل الى أدنى حد ممكن عملا
بقاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن هنا يتبين لنا أن الحضارات تتشكل وفقا للعقائد والايديولوجيات
فليست الحضارة اليونانية مثلا كالحضارة الفارسية أو الحضارة الاسلامية
كالحضارات القديمة القائمة على العقائد الوثنية .

ان مقارنة الحضارات يبنى على هذه المقومات العقدية والجوانب
الروحية وبها تتحدد معالمها وأصولها وتتميز عن غيرها .

أما الصبغة المادية للحضارة أى منجزاتها العلمية التجريبية فهى
متروكة لجهود العلماء وثمره الاكتشافات الانسانية بجهود البشر الذهنية

(٨٣) د. محمد جمال الدين الفندى — الاسلام وقوانين الوجود ص ١٧٦
ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢ م .

والعضلية ، وتتلقي الحضارات من بعضها البعض هذه المنجزات ومن ثم تصبح حقا مشاعا للمجتمعات كلها .

وكان المسلمون أيضا أصحاب نظريات ومخترعات لا تتكر في هذا الحضار عندما التزموا بالاسلام في العقيدة والعبادات والاعمال حيث نبغوا في علوم الفلك والطب والصيدلة والكيمياء وكانوا أساتذة العالم لعدة قرون مضت . (★)

وفي الفصل القادم ، سنتحدث — بخلاف ما تقدم — عن المفارقة لطريقة السلف والسنة .

الفصل الثالث

المفارقون لطريقة السلف والسنة

١ - في دائرة الاسلام :

• (أ) الخوارج •

• (ب) الشيعة الامامية أو الاثنى عشرية •

٢ - المفارقون عن الاسلام :

• (أ) الاسماعيلية الباطنية •

• (ب) البابية والبهائية •

• (ج) القاديانية •

• (د) النصيرية •

حقق الفصل السابق بحمد الله تعالى في رأينا نتيجتين بارزتين :

أولهما : ثبت أن مقومات الحياة الحضارية قد تحققت بقيمتها ومبادئها على أحسن صورة وأفضلها عندما تمكنت العقيدة في النفوس ، فنفذ المسلمون شريعة الاسلام وحققوا مبادئه وشرائعه وأخلاقياته •

ونعني بالحضارة شقها الاساسى من قيم ومبادئ سلوكية قانونية وأنماط حياة انسانية فاضلة من الصدق والايثار والتضحية وتفضيل الاجلة على العاجلة وابتغاء مرضاة الله تعالى واشاعة الفضائل ومحاربة الرذائل ، وكلها منبثقة من عقيدة التوحيد الصحيحة التى حافظ عليها السلف •

ومذا ما دفعنا الى الاغاضة والاسهاب في الفصل السابق عن كل ما أحاط بفهم العقيدة والدفاع عنها •

أما المصبغة المادية للحضارة وطرق المعيشة المتغيرة طبقا للعصور المتوالية ، فهي متروكة للمنجزات العلمية التجريبية ونتائج الاكتشافات الانسانية بجهود البشر الذهنية والعضلية •

وكان المسلمون أيضا — عندما فهموا عقيدة الاسلام حق الفهم — في مقدمة الامم ، حيث نبغ الكثير في علوم الطبيعة والفلك والطب والصيدلة والرياضيات وغيرها ، وكانوا أساتذة العالم لعدة قرون ومنارته في حين أطبق على أوروبا الظلام والتأخر والملاحضارة •

ثانيا : ونعتقد أيضا انه بعد شرح طريقة علماء السلف في فهم العقيدة مدعمة بأدلتها من القرآن والسنة ، يصح أن نتقدم بهذا المنهج للمسلمين عامة وعلمائهم خاصة كبرهان على الصلة الوثيقة بين الاسلام كما شرعه الله تعالى بأصوله وعقائده وعباداته ونظمه وأخلاقياته — وبين منهج السلف

الذى مكنهم من الاحتفاظ به غضا طريا كأن الوحي نزل اليوم رغم انقضاء العصور والاجيال .

ونعود فنقول ان الالتفاف حول أصول الاسلام وتجاوز الخلافات أمر جوهرى لحياة الامة ، والمدخل الى ذلك الاتفاق على المنهج السلفى ، وهو منهج علمى مدعم بأدلته وبراهينه الدامجة بين الشرع والعقل ، ومن ثم فاذا وضح ذلك فى الاذهان والتقت عنده الاقئدة ، أصبح من اليسير التثام الشمل وجمع الكلمة .

لذلك يؤسفنا أن يكال للمعبرين عن هذا المنهج التهم جزافا ، فيوصفون بالجمود والخضوع للنص وما الى ذلك من ظنون عرفنا بطلانها .

ويزيد أسفنا أن يستند بعض الباحثين على هذا التصور ويينون عليه نتائج سيكون من آثارها خلافات محققة واضطرابات فى الفهم وأخطاء فى النتائج ولناخذ مثلا على ذلك حكم أحد الباحثين على السلف فقد قال — بعد أن وصف كلام الله تعالى بأنه منزه عن أن يكون مجرد مباحث نظرية فلسفية محددة ، بل هو أشمل من ذلك وأسمى عاد فقـال : وبلغة الفلسفة نقول ان العقل الفعال الاعظم وضع العموميات . وترك للعقل المنفعل — أى العقل البشرى الذى هو أعظم ما خلق الله فى أعظم مخلوقاته وهو الانسان — مهمة صياغة النظريات ووضع المناهج (١) .

وهذا الكلام يختلط فيه الحق بالباطل ، فالحق أن باب الاجتهاد مفتوح لعلماء المسلمين بشرط استيفاء شروطه ، ولكن الباطل هو اطلاق وصف على الله تعالى لم يصف به نفسه أو يصفه به رسوله ﷺ ، ويلحق بذلك التهويل فى وصف العقل والخضوع لفلسفة اليونان فى نظرتها للعقل ،

(١) د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ص ٢٥٣ من سلسلة

كتاب (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣ .

ونحيل القارئ الكريم مرة أخرى الى ما سقناه آنفا من مناقشة حول هذه الفلسفة وموقفها من العقل مع التميز بين المفهوم الفلسفى والبيان الشرعى .
ويظهر الخطأ فى تصورات أخرى كثيرة منها مثلا القول بأن التصوف « الدروشة » ظل حجر الزاوية فى الفكر الاسلامى الى مشارف العصر الجسديث .

وهنا تكمن أسباب النكسة الحقيقية التى ألت بالعالم الاسلامى ،
وهنا أيضا تكمن أسباب النهضة الأوروبية التى أمسكت بالخيط الذى تركه
ابن رشد (٢) .

ويبدو أن صاحب كتاب (الحركات السرية فى الاسلام) لم يقرأ شيئا قط عن علماء السلف والسنة ، لان عامة المسلمين يعرفون مدى الخصومة الشديدة بين السلفية والتصوف لا سيما صوفية وحدة الوجود وعارضوها أشد المعارضة ووقفوا ازاءها بعنف بالغ (٣) .

وكان أيضا متحاملا على علماء السنة عندما ظن أن ابن رشد هو أساس النهضة — بينما الدراسة التحليلية المقارنة تثبت أن أوروبا مدينة الى علماء أصول الفقه من المسلمين الذين كانوا أول من تنبه الى دور المنهج التجريبي فى الاكتشافات العلمية وعارضوا المنطق الارسططاليسى أشد المعارضة ، وقد تكفل ابن تيمية بقيادة هذه الحملة فى كتاباته وأبرزها الرد على المنطقيين ونقض المنطق ، فضلا عن الشذرات الكثيرة فى سياق تأليفه .

صحيح أن ابن رشد كان له أثره البالغ فى أوروبا ، ولكن اقتصر فى الغالب على الفدر الفاسفى والدينى حيث كان أكبر فلاسفة الاسلام حظا

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٣) ننظر كتابنا : ابن تيمية والتصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث .

من الترجمة اللاتينية ، اذ تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد وترجموها الى العبرية • وكانوا واسطة بينها وبين الفلسفة المسيحية ، حيث أسهموا في الحركة الفلسفية في القرون الوسطى الاوروبية وابان عصر النهضة ، ويمكن أن يقال أن فلسفتهم كانت رشدية خالصة^(٤) •

وبلغ تأثير ابن رشد أشده في رجال الدين للتحرر من سلطان الكنيسة حيث سار (الرشديون) في طريقهم طول القرنين الرابع عشر والخامس عشر لقيادة حركة تحرر أضعفت الكنيسة وكانت من عوامل الاصلاح الديني^(٥) •

أما علماء أصول الفقه فهم الذين حملوا منهج التجربة العلمية وكانوا رسل المسلمين الى النهضة الاوروبية •

ويظهر الخطأ بعد ذلك أكثر في مثل قول الباحث :

(حاول المعتزلة تعميق فهمهم الصحيح لتلك العلاقة باطلاق العقل المنفصل — البشرى — من اساره ، لكن التيار السلفى كان غلابا ، فاستنفذوا طاقاتهم في هدم القوالب الفكرية الرجعية « وفي هذا القول غمز خفى للنصوص » وكبح التيار الليبرالى الجامح ودار صراع كانت الغلبة فيه للاتجاه السلفى الذى مثله الاشاعرة والحنابلة ثم بلغ مداه على يد الغزالى — وضاع صوت ابن رشد — صوت العقل — واختفى في ضجيج التيار السلفى الذى استفحل على يد المتصوفة كابن عربى وابن سبعين .. الخ ..)^(٦) •

(٤) د. محمد بيومى مذكور : فن الفلسفة ص ١٧٣ بكتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ •

(٥) المصدر نفسه ص ١٩١ •

(٦) د. محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام

ويبدو من هذه العبارة أن باحثنا لم يكلف نفسه عناء النظر في أصول السلف ومناهجهم فخلط بينهم وبين الاشاعرة من جانب ، كما خلط بينهم وبين صوفية وحدة الوجود كابن عربى وابن سبعين من جانب آخر •

وعذر الباحثين المائلين للاتجاه العقلانى — وخاصة الاعتزالى — انهم اما أنهم يتبعون خط سير المؤلفات الاستشرافية ويقتفون آثارهم، أو يظنون أن علماء السنة والسلف اقتصر دورهم على صب جام غضبهم على أشخاص المعتزلة فاكتفوا برميهم بالمجون والاستخفاف بالدين ومحاولة هدمه واحلال الفكر الوثنى محله ، دون مقارنة الحجج بنفس الطريقة^(٧) •

والشرح يطول ، وتفنييد الاخطاء فى هذا الفهم قد يخرج بنسا عن المقصود^(٨) ، ونكتفى بما وضحناه فى الفصل السابق •

ولكن الجديد الذى نود اضافته القول بأننا لن نستطيع معرفة وتقويم الانشقاقات التى حدثت فى الصف الاسلامى الا بعد الوقوف على معالم الاصول السلفية أولا ، وبعدها يسهل الاستدلال على المنشقين والمفارقين لهم •

وكنا قد ألمحنا آنفا الى الفرق المخالفة للاتجاه السلفى قديما وحديثا والان سنتعرف على هذه الفرق باختصار ليميز المسلم المعاصر بين عقيدة الاسلام الصحيحة المتلقاة عن السلف مؤيدة بالحجج والبراهين وبين هذه العقائد النابعة عن تفسيرات وتأويلات خاطئة انصرفت بها عن الطريق

(٧) المصدر نفسه ص ١٢٤ • ويرجى الرجوع الى كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة فى اصول الدين) الذى اثبتنا به ان لعلماء السلف حججهم العقلية المفحة فى الرد على المعتزلة والاشاعرة •

(٨) ندعو ونرجو هذا الباحث الفاضل وغيره الاطلاع على كتب السلف قبل اصدار الاحكام الجذافية هكذا •

القويم ، فضلا عن عوامل خارجية كالاستعمار والصهيونية شجعتها على
المضى قدما وأحاطتها بالرعاية والدعاية وجندت لها الاعوان .

وليت الامر يقتصر على تأويلات الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة
الامامية — أو الاثنى عشرية — ولكن البعض الآخر مرتد من الاسلام كما
يتضح عند دراستنا لفرق الشيعة الباطنية الاسماعلية والبهائية والقاديانية
والنصيرية .

وسنوجز عنهم الحديث في مبحثين :

الاول — الخوارج والشيعة الامامية أو الاثنى عشرية .

الثاني — المارقون عن الاسلام .

(١) الخوارج والشيعة الاثنى عشرية

أولا : الخوارج :

يروى المؤرخون أن الخوارج يمثلون أول انشقاق حقيقى فى الصف الاسلامى .

وقد أشبعنا هذه الفرقة بحثا ودراسة ، ولهذا فسنتصر هنا على عرض نبذة عن نشأتها ومعتقداتها وآثارها التزاما بمنهج الدراسة بهذا الكتاب ؛ حيث تظهر الخوارج كحركة انشقاق عن السلف الصالح .

وفى ضوء هذا ، يصبح من المفيد إبراز آراء الاتجاه الذى يتبناه علماء السلف والسنة لمحاولة نبذ الخلافات والتخدير الشديد من الفتن بين المسلمين حتى لا يهنوا ويضعفوا أمام أعدائهم .

ونشأ الخوارج على أثر واقعة (التحكيم) بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، فأجمعوا — كما يذكر أبو الحسن الأشعري — على اكفار على بن أبى طالب — رضوان الله عليه ، أن حكم . وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا .

ومن عقائدهم ان كل كبيرة كفر ، الا شرقة منهم — وهى « النجديات » فانها لا تقول ذلك .

وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذابا دائما ، الا (النجديات) (١٠) .

(٩) ينظر (كتابنا : نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى) دار الدعوة بالاسكندرية . وكتاب (الخوارج) دار الانصار بالقاهرة .

(١٠) أبو الحسن الأشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ج١ ص ١٦٨ تحقيق الشيخ محمد محبى الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

وقد أحدث الخوارج — سواء بمعائدهم أو توالى خسروجهم على الخلفاء — أحدثوا هزات عنيفة في المجتمعات الإسلامية ، وانعكست آثار ذلك كرد فعل في كتب علماء السلف والسنة للرد على هذه المعتقدات وشجبتها .

وقد وصفهم ابن تيمية بأنهم كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للامة وتكفيرا لها .

ولكن لم يقابلهم الصحابة — لا على بن أبى طالب ولا غيره — بالمثل ، بل حكموا عليهم بحكمهم في المسلمين الظالمين (١١) .

ويلفت نظرنا هذا التفاوت الشديد بين الموقفين المتعارضين ، اذ بينما يكفر الخوارج غيرهم من المسلمين ، لم يفعل ذلك الصحابة رضى الله عنهم . والحق أنه يتبين لكل من استقرأ أحوال الفتن التي حدثت منذ البداية على أيدي الخوارج ، يتبين أنه ما اشترك فيها أحد الا وأصابه الضرر وأوقع الضرر على غيره .

ويتبين ابن تيمية موقف السلف وأهل السنة في النهي عن الخروج ، ويرى فساد الخروج على الامام ، وأن مفسدته أعظم من مصلحته ، اذ قل من خرج على الامام ذى سلطان الا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم

ويبعد الاتساعى القابهم المختلفة ، فقد سموا خوارج لخروجهم على على بن أبى طالب ، وسموا محكة لانكارهم الحكمين ، وقولهم : لا حكم الا لله ، وسموا حرورية لنزولهم بحروراء في اول أمرهم . وسموا شرارة لقولهم : شرينا انفسنا في طاعة الله ، اى بعناها بالجنة . نفسه ص ٢٠٦—٢٠٧ .

(١١). ابن تيمية : كتاب الايمان ص ١٢٩ ط مكتبة انصار السنة الحميدية بالقاهرة .

مما تولد من الخير . ولذا كان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج عن
الأئمة الشرعيين والقتال في الفتنة (١٢) .

ودعاه ذلك الى استرجاع التاريخ وتقويم أحداثه ملقما بالمنهج
السلفي ، فأخذ يستدل بنصوص الكتاب والسنة شارحا ومفسرا .

ويرى شيخ الاسلام أن الاصبوب ألا يكون قتال أصلا ، وكان ترك
القتال خيرا للطائفتين فليس في الاقتتال صواب ، ولكن على كان أقرب الى
الحق من معاوية والقتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب ، وكان ترك القتال
خييرا للطائفتين مع أن عليا كان أولى بالحق ، وهذا هو قول أحمد وأكثر
أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء وهو قول أكابر الصحابة والتابعين لهم
بإحسان وهو قول عمران بن حصين رضى الله عنه وكان ينهى عن بيع السلاح
في ذلك القتال ويقول هو بيع السلاح في الفتنة وهو قول أسامة بن زيد
ومحمد بن مسلمة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأكثر من بقى من
المهاجرين والانصار رضى الله عنهم .

ولهذا كان من مذهب أهل السنة الامساك عما شجر بين الصحابة ،
فانه قد ثبتت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم وما وقع منه ما يكون لهم
لغيه عذر يخفى على الانسان ومنه ما قاب صاحبه منه ومنه ما يكون مغفورا ،
فالخوض فيما شجر يوقع في نفوس كثير من الناس بغضا وذما ويكون في
ذلك هو مخطئا بل عاصيا فيضر نفسه ومن خاض معه في ذلك .

.. والكتاب والسنة دل على أن الطائفتين مسلمون وان ترك القتال
كان خيرا من وجرده قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا
بينهما فان بغب احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر

(٢٢) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية
المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق — مصر ١٣٢١ هـ الجزء الثانى ص ٢١٠ .

الله فان خانت فاصاحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين)
الحجرات آية ٩ - فسامها مؤمنين أخوة مع وجود الاقتتال والبغى ، وفي
الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال (تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين
تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ، وهؤلاء المارقة مرتقوا على على فدل على أن
طائفته أقرب انى الحق من طائفة معاوية ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه
قال (ان ابنى هذا سيد وان الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين)
فأصلح الله به بين أصحاب على وأصحاب معاوية •

فمدح النبي ﷺ الحسن بالاصلاح بينهما وسامها مؤمنين وهذا يدل
على أن الاصلاح بينهما هو المحمود ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يكن
تركه محمودا •

وقد روى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال (ستكون فتننة
القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير
من الساعى من يستشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعد به)
أخرجاه فى الصحيحين •

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال (يوشك أن يكون خير مال
المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن) •
وفي الصحيح عن أسامة بن يزيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال
(انى لارى الفتن تقع خلال بينكم كمواقع القطر) •

والذين رروا أحاديث القعود فى الفتنة والتحذير منها كسعد بن أبى
وقاص ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد لم يقاتلوا لا مع على ولا مع
معاوية • وقال حذيفة رضى الله عنه (ما أحد من الناس تدرکه الفتنة الا أنا

أخافها عليه الا محمد بن مسلمة فأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول له
لا تترك الفتنة) •

وعن ثعلبة بن ضبيعة قال دخلنا على حذيفة فقال (انى لا عرف رجلا
لا تضره الفتنة شيئا فخرجنا فاذا فسطاط مضروب فدخلنا فاذا فيه محمد
بن مسلمة فسألناه عن ذلك فقال (ما أريد أن يشتمل على شيء من أمصارهم
حتى تتجلى عما انجلت) • رواه أبو داود (١٣) •

والنظرة التحليلية لهذه النصوص تصل بنا الى فهم عدة قضايا أثيرت
بين المسلمين •

لعل أولها موقف السلف وأصل السنة من الصحابة رضى الله عنهم ،
فإنهم يمثلون الصفوة الممتازة بعد رسول الله ﷺ والكف عما شجر بينهم
يحافظ على مكانتهم فى القلوب باعتبارهم أوائل الاجيال التى ضحت فى
سبيل الله ورسوله ﷺ ولا تخل صحيفة أحد منهم من جلائل الاعمال
وعظائم التضحيات فى السلم والحرب •

واذا قورنوا بأعمالهم وفضائلهم كصفوة هذه الامة بغيرهم من
الامم لرجحت كفتهم بغير شك ، بل ان الترجمة الشخصية لكل واحد منهم
تعد مفخرة بكل المقاييس •

الى أن عقيدة السلف وأهل السنة لا ترى العصمة لاحد بعد الرسل
والانبياء عليهم الصلاة والسلام •

ونلاحظ أيضا حرص شيخ الاسلام ابن تيمية — وهو أحد كبار علماء
السلف — على التقيد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية لانارة الطريق
الى رأى الصائب . ففى المحك الوحيد فى الحكم على مثل هذه الاحداث

بدلاً من إصدار الأحكام كأصداء لاهواء النفس أو خضوعاً لنزعات الشيطان •

هذا فضلاً عن أن موقف الكف عما شجر بين الصحابة له مغزى أعمق حيث يؤدي الى عدم الالتفات الى حوادث تاريخية مضت عليها القرون • حيث لا طائل من جراء القاء الاتهامات جزافاً كما فعل الخوارج أو الشيعة أو محاولة تحايل أحداث لا يملك المسلم العادى الادوات الضرورية للبحث وادراسة ، ولا تتوافر الا للعلماء — لا سيما المتخصصين فى التاريخ مع توافر حسن النية — والتقوى — وهى الاولى بالمراعاة •

وبغير ذلك يصبح من قبيل ضياع الوقت والجهد الخوض فيما لا طائل وراءه ، ويصبح الاولى والاجدر أن يسأل كل مسلم نفسه ماذا قدم هو الى الاسلام والمسلمين •

وعندئذ تصبح المقارنة بين أحدنا وبين الصحابة — رضى الله عنهم — مدعاة للخجل الشديد وحافزاً لذوى القلوب الحية الى استنهاض الهمم ، بعد وضع هذه الصفوة الممتازة فى مكانها الصحيح كطلائع الحضارة الاسلامية ورواد أجيالها •

أما الشيعة ، فقد أعلنوا أحقية على ابن أبى طالب رضى الله عنه بالخلافة منذ وفاة النبى ﷺ ثم وقع النزاع فانتسعت فجوة الخلاف بينهم وبين السلف وأهل السنة •

وسنتكلم الان عن الشيعة وأهم فرقها وعقائدها :

ثانيا : الشيعة وعقائدهما :

يعرف الشهرستاني الشيعة بقوله :

الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه على الخصوص ، وقالوا
بامامته وخلافته نضا ووصية ، اما جليا واما خفيا واعتقدوا أن الامامة
لا تخرج من أولاده وان خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده •
وقالوا : ليست الامامة قضية مصلحة تناط باختبار العامة وينتصب الامام
بتنصيبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهى ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم
السلام اغفاله وإهماله ، ولا تفويضه الى العامة وارساله (١٤) •

ويتضح من ذلك أن مفترق الطرق بين أهل السنة والشيعة هو الاعتقاد
فى الامامة ، حيث يتفقان على كون الامامة هى الزعامة أو الرئاسة فى أمور
الدين والدنيا وهى نيابة عن الرسول ﷺ •

ولكن الاختلاف بينهما فى اعتقاد الشيعة انه منصوص على شخص
الامام بعد النبى ﷺ ، وانه معصوم •

يقول أحد علماء الشيعة المعاصرين :

(غالامامة كالنبوة من المناصب الالهية التى تحتاج الى النصب من الله
تعالى سوى أن الامام لا يوحى اليه كما يوحى الى النبى ﷺ ، فكما أن
الله تعالى يختار من يشاء من عباده للنبوة ويؤيده بالمعجزة تصديقا لدعوته ،
فكذلك يختار من يشاء للامامة ويأمر نبيه ﷺ بأن ينص عليه) (١٥) •

(١٤) الشهرستاني : كتاب الملل والنحل — القسم الاول ص ١٢١ تخريج

محمد بن فتح الله بدران — مكتبة الانجلو المصرية — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م •

(١٥) السيد امير محمد الكاظمى القزوينى : الشيعة فى عقائدهم واحكامهم

ص ٥٨ — الدار الزهراء — بيروت ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

وما دام الامر كذلك فقد نشأت مشكلة بيان حكمهم على من حارب عليا رضى الله عنه ، فمنهم من كفرهم وربما هم بالضلال وشهدوا بذلك على طلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان ، وكذلك قالوا فيمن ترك الائتتمام به بعد الرسول ﷺ .

وغرقة ثانية زعموا أن من حارب عليا فاسق ، ليس بكافر ، الا أن يكون حاربا عليا عنادا للرسول ﷺ وردا عليه ، فهم كفار .

وكذلك يقولون في ترك أصحاب رسول الله ﷺ الائتتمام بعلى بن أبى طالب بعده : انهم ان كانوا تركوا الائتتمام به عنادا للرسول عليه الصلاة والسلام وردا عليه فهم كفار ، وان كانوا تركوا ذلك لا على طريق العناد والتكذيب للرسول ﷺ والرد عليه ، فبقوا ولم يكفروا (١٦) .

ولهذا الموقف أثره أيضا على نظرتهم للصحابة بعامة .

. وكان التشيع قد نشأ أول ما نشأ عندما حدثت المفاضلة بين على وعثمان رضى الله عنهما أى أنه كان في بدايته اتجاها عاطفيا لا دخل فيه لعناصر عقلية بل لم يكن الشيعة الاوائل ينازلون من أبى بكر وعمر باعتراف شيوخهم أنفسهم فقد سئل شريك بن عبد الله القاضي « أنت من شيعة على وتفضل أبا بكر وعمر ؟ فقال : كل شيعة على على هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر خير هذه الامم بعد نبيها أبو بكر ثم عمر أفكنا نكذبه ؟ والله ما كان كذابا) .

وكانت الامامة أو الخلافة هى الحجر الاساسى اذن في ظهور الافكار الشيعية كما قدمنا ومؤدى عقيدة التشيع أن عليا بن أبى طالب هو الامام

بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلى الواضح في بعض الاحاديث أو بالنص الخفى المستقر بين أسطر القرآن ومعانيه وأن الامامة لا تخرج عنه وعن أولاده الا بظلم أو تنقيه (١٧) .

واعتقدت طائفة الشيعة اعتقادا جازما أن أمانة على قد فصّل عليها نصا يقينيا ، وأن النبي ﷺ قد نص على أمانة على للمسلمين من بعده ، ولذلك جعلوا الايمان بالامام جزءا من الايمان الدينى ومتمما للشهادتين ، وأكبر طوائف الفرق الشيعية فى عصرنا الحاضر هى :

١ — الاثنى عشرية .

١ — الاثنى عشرية .

٢ — الزيدية .

٣ — الاسماعيلية الباطنية .

١ — الاثنى عشرية :

ويعد الشيعة المعتدلة هم الاثنى عشرية التى تنسب إلى جعفر الصادق وهى تقول بإمامة على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم تتسلسل الأئمة بعده حسب الترتيب الآتى :

الأول : أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه استشهد فى ٢١ رمضان فى الكوفة على يد عبد الرحمن بن ملجم فى عام ٤٠ للهجرة النبوية .

الثانى : الحسن بن على رضى الله عنه . مات فى ٧ صفر من عام ٥٠ هـ .

(١٧) د. على سامى النشار — التفكير الفلسفى فى الاسلام (مسذاهب وشخصيات) ص ١٠٧ — دار الكتب الجامعية بالاسكندرية ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

- الثالث : الحسين بن علي رضي الله عنه • قتل سنة ٦١ هـ •
- الرابع : علي بن الحسين زين الدين توفي عام ٩٥ هـ •
- الخامس : محمد بن علي الباقر توفي عام ١١٤ هـ •
- السادس : جعفر بن محمد الصادق توفي عام ١٤٨ هـ •
- السابع : موسى بن جعفر الكاظم مات عام ١٨٣ هـ •
- الثامن : علي بن موسى الرضا مات عام ٢٠٣ هـ •
- التاسع : محمد بن علي التقى الجواد توفي عام ٢٢٠ هـ •
- العاشر : علي بن محمد الهادي توفي عام ٢٥٤ هـ •
- الحادي عشر : الحسن بن علي العسكري توفي عام ٢٦٠ هـ •
- الثاني عشر : الامام محمد بن الحسن الغائب المهدي المنتظر ولد في ١٥ شعبان سنة ٢٥٦ هـ •
- ويرى الشيعة أنه غاب غيبتين الصغرى في عام ٢٦١ هـ والكبرى عام ٣٣٩ هـ •

ويورد صاحب كتاب (الشيعة في عقائدهم وأحكامهم) أقوالا كثيرة على السنة أهل السنة ليثبت صحة عقيدة الشيعة في المهدي المنتظر •

منها قول الشعراني في كتابه (المواقيت والجواهر) « واعلموا انه لا بد من خروج المهدي ، لكن لا يخرج حتى تمتلئ الارض جورا وظلما ، فيملؤها قسطا وعدلا ولو لم يكن من الدنيا الا يوم لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلي ذلك الخليفة وهو من عترة رسول الله ﷺ من ولد غاطمه • • يواطى اسمه اسم رسول الله ﷺ يبايعه المسلمون بين الركن والمقام » •

ومنها قوله ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المرسلة) :

(تواترت الاخبار واستفاضت بكثرة روايتها عن المصطفى ﷺ بخروج المهدي في آخر الزمان ، وانه من أهل بيته ﷺ وانه يملك سبع سنين ، وانه يملأ الارض قسطا وعدلا ويصلى عيسى عليه السلام — خلفه ٥٥) •

الى أحاديث أخرى رواها أبو داود والترمذي والطبراني •

ويخلص المؤلف من كل هذا الى تقرير ان الاعتقاد بوجود المهدي ليس من خواص الشيعة وحدهم (١٨) •

ولكن بالرجوع الى هذه الاحاديث المروية في كتب السنة لا يتبين منها قط أن المهدي حي يرزق الان ، وهذا هو مفترق الطرق بين عقيدة السلف والشيعة في (المهدي المنتظر) •

ومستندا في هذه القضية التي تحتاج الى علماء الحديث الثقات- هو عالم السلف الشهير ابن القيم ، حيث عرض للروايات المختلفة ونقد رجالها ثم صنف الاحاديث في (المهدي) الى أربعة أقسام صحاح وحسان وغرائب وموضوعه فليرجع اليها من يريد الوقوف على تفاصيل ذلك (١٩) •

ولكننا نكتفي بما أورده على وجه الاجمال ، حيث اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال :

أحدهما — انه المسيح ابن مريم ، وهو المهدي على الحقيقة •

(١٨) السيد امير محمد الكاظمي الزويني : الشيعة في عقائدهم واحكامهم
صفحة ٥٨ •

(١٩) ابن القيم — المنار في الصحيح والضعيف ص ١٤١ — ١٤٨ تحقيق
عبد الفتاح ابو غده — مكتبة المطبوعات الاسلامية — حلب ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م

وقد دلت السنة الصحيحة عن النبي ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرق دمشق ، وحكمه بكتاب الله وقتله اليهود والنصارى ووضعه الجزية ، واهلاك أهل المال في زمانه •

فهو اذن عليه السلام المهدي الكامل المعصوم •

القول الثاني — انه المهدي الذي ولي من بنى العباس ، وقد إنتهى زمانه •

وفي سلسلة اسناد الحديث (على بن زيد) ثمانية ضعيف وله مناكير تفرد بها ، فلا يحتج بما ينقرد به •

القول الثالث :

أورد ابن القيم ثلاثة أحاديث اختار واحدا منها وعلق عليه كما مسياتي •

والحديث رواه أبو نعيم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ (يخرج رجل من أهل بيتي ، يعمل بسنتي ، وينزل الله له البركة من السماء وتخرج له الأرض بركتها ويملا الأرض عدلا ، كما ملئت ظلما ، ويعمل على هذه الأمة سبع سنين ، وينزل بيت المقدس) •

ويرى ابن القيم أن في كونه من ولد الحسن سر لطيف وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض • وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئا أعطاه الله ، أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف

الحسين رضى الله عنه ، فإنه حرص عليها ، وقاتل عليها ، ولم يظفر بها ، والله أعلم (٢٠) .

. وعلى أية حال فإنه فى مقارنته بين الاحاديث الواردة فى المهدي عند أهل السنة ، يقرر انه اذا كان فى اسنادها بعض الضعف والخرابة ، فهي مما يقوى بعضها بعضا ، ويشد بعضها ببعض (٢١) والله تعالى أعلم .
والان ، نتناول الزيدية عرضا لنشأتهم وايضا لعقيدتهم :

الزيدية :

يتفق مؤرخو الفرق على أنهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم ساقوا الامامة فى اولاد فاطمة رضى الله عنها ، ولم يجوزوا ثبوت الامامة فى غيرهم .

ويذكر الشهرستانى أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمى ، عالم ، زاهد ، شجاع ، سخي خرج بالامامة أن يكون اماما واجب الطاعة سواء كان من اولاد الحسن ، أو من اولاد الحسين رضى الله عنهما (٢٢) .

ويعطينا الاشعري تفاصيل أكثر عن الامام زيد فيذكر انه كان يفضل عليا بن أبى طالب على سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، ويتولى أبا بكر وعمر ويرى الخروج على أئمة الجور (٢٣) ، فلما ظهر فى الكوفة فى أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبى بكر وعمر ، فأنكر ذلك على من

(٢٠) المصدر نفسه ص ١٥١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

(٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل ق ١ ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢٣) وكان هو نفسه قد خرج بالكوفة على هشام بن عبيد الملك وقتل :

مقالات ج ١ ص ١٥٣ .

سمعه منه ، فنفرد عنه الذين بايعوه . فقال لهم (رخصتموني) فيقال : انهم سموا الرافضة لهذا السبب (٢٤) .

ويتميز الزيدية بأنهم يرون جواز امامة امامين في وقت واحد ، وربما يرجع ذلك الى بواكير الحركة على أيدي أئمتهم السابقين ، حيث خرج الامامان محمد وابراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسين اللذان خرجا في أيام المنصور وقتلا على ذلك .

ومن هنا جوزوا خروج امامين في قطرين يستجمعان الخصال السابق ذكرها ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة (٢٥) .

ومثل هذا الرأي يفتح الباب للاجتهاد أمام الفقهاء المعاصرين في قضايا الفقه السياسي في ضوء واقع الامة الاسلامية ، أي بعد انقضاء الخلافة الاسلامية .

وعلى أية حال ، فان الزيدية أقرب فرق الشيعة الى أهل السنة ، وينتشرون في اليمن .

أما الشيعة الاثني عشرية فيعيش أكثرهم في العراق وينتشرون حول المشاهد في بغداد والنجف وكربلاء ، وهناك عدد منهم في لبنان وسوريا والكويت والبحرين .

وهناك أيضا أعداد كبيرة في الهند وباكستان وايران .

هؤلاء هم معتدلة الشيعة وعقائدهم . وبقي أن نعرض لموقف علماء السلف والسنة منهم :

(٢٤) الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٣٧ .

(٢٥) الشهرستاني : الملل والنحل ق ١ ص ١٢٨ .

موقف علماء السلف والسنة من التشيع

قبل التعرض للنقد لفرق الشيعة وتفنيدي الآراء التي اعتنقوها وأعلنوها نرى استطلاع نظرة السلف وأهل السنة للفرق المنشقة ، وكيف بدأت تتخذ موقفا محددًا إزاءها ، وذلك بوضع القواعد الثابتة ، بحيث تتضح معالمها الرئيسية ومن ثم ، يسهل معرفة الخارجين عنها ، وأسباب انشقاقهم عن صف الجماعة . وتظهر البوادر الأولى في قول أبي حنيفة عندما سئل عن أهل الجماعة فأجاب (الجماعة سبعة أشياء ، أن يفضل ، أبا بكر وعمر وأن يحب عثمان وعلياً وأن يحل على من مات من أهل القبلة بذنب ، وألا ينطق في الله بشيء من رأيه ، ولكنه يصفه بما وصف به نفسه) (٢٦) .

وكذلك قال صاحب أبو يوسف « مذهب أهل الجماعة عندنا وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والاهواء أن لا يشتتم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا يذكر فيهم عيباً ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرفوا القلوب عنه وأن لا يشك بأنهم مؤمنون وأن لا يكفر أحداً من أهل القبلة ممن يقر بالاسلام ويؤمن بالقرآن ولا يخرج من الإيمان بمعية أن كان فيه ولا يقول بقول أهل القدر » .

ونلخص موقف علماء السنة والسلف فيما أثير من موضوعات على النحو التالي :

أولاً : معرفة فهم من الخلفاء الراشدين :

من المتواتر أن أبا بكر لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة ، فلا بذل فيها مالا ولا شهر عليها سيفاً ، ولا كانت له عشيرة ضخمة ، ولا عدد من

(٢٦) مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية ص ٣٨٨-٣٨٩ تحقيق عبد الصمد شرف الدين ط بباي بالهند ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م .

الموالى تقوم بنصره ، بل ، ولا قال : بايعونى ، وانما أشار فى سقيفة بنى ساعدةبيعة عمر أو أبو عبيدة • ثم الذين بايعوه طائعين هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ الذين رضى الله عنهم ، فقاتل أبو بكر بهم المرتدين وفارس والروم وثبت بهم الاسلام فلما جاءه اليقين (الموت) خرج من الدنيا أزهد مما دخل فيها ، ولم يستأثر فيها بشيء عن الرعية ولا أثر قرابته بل نظر الى أفضلهم فى نفسه فولاه عليهم وهو عمر رضى الله عنه . فأطاعوه كلهم ، ففتح الأمصار وقهر الكفار ، وأذل أهل النفاق ، وبسط العدل ووضع الديوان والعطاء لازما لبعيـش من قبله فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، حتى خرج منها شهيدا لم يتلوث لا بمال ولا ولى أحدا من أقاربه ولاية ، وهذا أمر يعرفه كل من يعرف وينصف •

ثم بايعوا عثمان كلهم طوعا منهم غصاروا على أمر قد استقر فى عهده وفى عهد من قبله بسكينة وهدى ورحمة وكرم ولين لكن لم تكن فى عثمان رضى الله عنه قوة عمر ولا سياسته التى بهرت العقول فطمع فيه الناس بعض الطمع وتوسعوا فى الدنيا ، وكثرت عليهم الاموال وتحركت اليهود لاثارة الفتن مستغلة بعض الاوضاع السائدة حين ذاك •

كذلك ثبت أن عليا لم يطلب الامر لنفسه فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ولم يبايعه أحد على الخلافة أيام الخلفاء الثلاثة •

ثانيا : الخلافة أو الامامة :

١ — وضع الشيعة مسألة الامامة فى المكان الاول من الامة كما رأينا وعدوها أهم المطالب فى أحكام الدين ليست هذا فحسب بل أدخلوها ضمن العقائد الایمانية ، وقد تعرضت هذه الفكرة للنقد الشديد بواسطة أهل السنة والجماعة لان القواعد التى بنى عليها الاسلام معروفة محفوظة ،

وأولها الشهادة فهي تنقل غير المسلمين الى الاسلام ، ولم يحدث أن ذكر الرسول ﷺ مسألة الإمامة حين كان يدعو الناس للاسلام ، وانما دعا الى الشهادة فحسب كما لم تظهر حاجة المسلمين للإمامة حال حياته لانه صلوات الله عليه وسلم كان امام المسلمين •

إذا افترضنا أن الإمامة هي أهم اصل من اصول الدين لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب الكريم ، ولاظهرتها السنة فان القرآن بين أيدينا يتضمن مواضيع عدة تتناول ذكر الخالق سبحانه وتعالى وصفاته وآياته ومخلوقاته كما يحتوى على قصص الانبياء والرسل ، وينص فيه على الفرائض التي كلف المسلمون بأدائها ، فلو كانت أهم مسائل الدين لنص عليها الكتاب كما فعل بالنسبة لغيرها من الموضوعات ، ولكنها في الحقيقة ليست أشرف المسائل • هذا هو الدليل الاول •

٢ — أما الدليل الثانى : فهو أن المصنفين فى أصول الدين يذكرون مسائل أكثر أهمية منها. وهى التوحيد والعدل والنبوة ثم يأتون بالإمامة فى نهاية المطاف ، كذلك رتب المعتزلة أصولهم الخمس حسب درجاتها من الأهمية ، فوضعوا الأصل الخامس — وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — الذى تتعلق به مسائل الإمامة فى آخر هذه الأصول من حيث الترتيب •

ثالثا : الإمامة بالاختيار لا بالنص :

يرى ابن تيمية أن الأحاديث التى تؤيد فكرة النص على بن أبى طالب لا تخلو من الوضع منها حديث يستشهد بها الحلى (عالم شيعى) حرما كما يذكر بواسطة أحمد بن حنبل فى مسنده عن أنس بن مالك قال « قلنا لسلمان سأل النبى ﷺ من وصيه فقال سلمان يا رسول الله من وصيك؟ فقال يا سلمان من كان وصى مرسى فقال يوشع بن نون فقال ان وصى ووارثى ويقضى بعدى وينفذ وعدى على بن أبى طالب •

ويكذب شيخ الاسلام هذا الحديث وحجته أن مسند الامام أحمد خال منه فضلا عن أن المسند احتوى أحاديث أضيفت اليه بواسطة ابنه ومع هذا فإن الحديث المذكور لم يكن ما رواه الامام أحمد .

أما عن الآية القرآنية (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) [الأحزاب ٣٣] فقد اشترك في مضمون الآية السيدة فاطمة والحسن والحسين مع علي ومعلوم أن المرأة لا تصلح للامامة فعلم أن هذه الفضيلة لا تختص بالائمة بل يشركهم فيها غيرهم ثم أن المفهوم من الآية أن الرسول ﷺ دعا لهم باجتناب الرجس والتطهير والابتعاد عن الرجس واجب على المؤمنين فقد أمرهم الله تعالى بالطهارة والكتاب الكريم حافظ بمثل هذه الايات كقول الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وتمشيا مع ما تضمنته مثل هذه الآية أن الرسول ﷺ قصد الدعاء لاهل بيته بأداء الاوامر الالهية واجتناب النواهي كما دعى لغيرهم بالجنة والمغفرة أما الحديث المشهور أنت منى بمنزلة هارون من موسى فينبغي تفسيره في ضوء الاحداث التاريخية ومعرفة المناسبة التي قيل فيها .

فقد كان الرسول ﷺ يترك بالمدينة في كل غزوة رجالا من المهاجرين والانصار باستثناء غزوة تبوك حيث أمر الرجال جميعا بالنهوض للجهاد وعدم التخلف فلم يقعد بالمدينة الا العصابة لا وامره ، أو المذورين والنساء والاطفال ، فكره علي بن أبي طالب التخلف ورغب في الالتحاق بالجيش ولم يرض البقاء مع النساء والصبيان وهو المحارب المشهود له بالشجاعة والكفاءة القتالية ولذلك فقد خفف عنه الرسول ﷺ من وقع حزنه مبينا له أن الاستخلاف ليس فيه غضاظة وضرب له مثلا بموسى عليه السلام الذي

استخلف أخاه هارون على قومه لآمانته ولكن موسى عليه السلام استخلف نبيا ولا نبي بعد محمد ﷺ وهذا تنبيه في أصل الاستخلاف فان موسى استخلف هارون على جميع بنى اسرائيل والنبي ﷺ استخلف عليا على قليل من المسلمين وجمهورهم استصحبه في الغزوة .

أما حديث (غدير خم) عند مرجع الرسول ﷺ من حجة الوداع فانه وصى فيه باتباع كتاب الله كما وصى فيه بأهل بيته ولكن بعض أهل الأهواء زأد في الحديث وادعوا انه عهد الى علي بالخلافة فسموه نسا جليا كما زعموا أيضا أن الصحابة تماؤا على كتمانهم ، ويرى ابن تيمية أن الدليل الذي ينقد هذا الزعم هو العادة التي جبل عليها بنى آدم ثم ما كان عليه القوم من الآمانه والديانة وما أوجبته شريعتهم من بيان الحق يوجب العلم اليقين بأن مثل هذا يمتنع كتمانهم .

ويطول بنا المقام لو استعرضنا آراء علماء السلف في نقض دعوى النص الا أنهم أجمعوا على نفيه نفيا قاطعا بأدلة شرعية وعقلية وأحلوا القول بالاختيار محله اذ لو ثبت صحة نقل النص كما يذكر شيخ الاسلام ابن تيمية لما تصور سكوت القوم أو سكوت واحد منهم في سقيفة بنى ساعدة عندما بدأ النقاش حول من يستحق منصب الخلافة اذ لم يظهر من بين الصحابة حين ذاك من يوقف المناقشات ويصدها بدعوى النص كما فعل أبو بكر مثلا حين ذكر القوم بحديث الأئمة من قریش فأذعن الانصار لهذا النص القطعى ولم يجدوا بعده مجالا للمطالبة بالخلافة ومن ناحية أخرى لو كان هناك نص لاظهره صاحبه أى على بن أبى طالب ولكن خفاءه يدل على عدم وجوده أصلا اذ لو كان لاظهره المنصوص عليه واستدل على امامته، وفي علمنا أنه لم يفعل دليل على أنه لم يكن .

والآن نتساءل ما هى الخلافة أو الامامة عند أهل السنة ما دام هذا

المنصب هو محور الخلاف الاساسى بينهم وبين الشيعة للاجابة على ذلك
فوجز القول بما يلى :

الامامة أو الخلافة عند أهل السنة (٢٧) :

يظهر تعريف الامامة عندهم من سياق فكرتهم عن دور الامام من حيث
قيادته للمسلمين وتطبيق قواعد الدين وتقييده بأحكام الشريعة أو كما
يعرفها المساوردى بأنها « موضوعة بخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة
الدنيا » فهو تبعا لتصور أهل السنة فى الامامة يربط بين معنى الخليفة
ومعنى الامام هالاثنتان مترابطان ، ويذهب بن خلدون الى نفس الرأى (واذ
قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين
وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماما) •

وقد عبر الامام أحمد بن حنبل عن موقف السلف من هذه القضية
الهامة فى رسالة عبدوس بن مالك العطار حيث قال :

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ • •
الى أن قال : ومن ولى الخلافة فأجمع عليه الناس ورضوا به ، ومن
غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فدفعت الصدقات اليه
جائز برا كان أو فاجرا) •

وعندما سئل عن تفسيره لحديث الرسول ﷺ (من مات وليس له
امام مات ميتة جاهلية) •

قال : تدري ما الامام ؟ الامام الذى يجمع عليه المسلمون كلهم بقول:
هذا امام •

وبتطبيق رأى الامام أحمد على خلافة الخلفاء الراشدين — لا سيما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما — نصل الى قاعدتين هامتين رنسخهما علماء السنة والسلف فى مجال الفقه السياسى الاسلامى :

القاعدة الاولى :

فى كون أبى بكر كان هو المستحق للامامة — وليس غيره — وأن مبايعة الصحابة له مما يحبه الله ورسوله ، فهذا ثابت بالنصوص والاجماع •

القاعدة الثانية :

تستحق الخلافة أو الامامة بمبايعة أهل القدرة ، لذلك فإن عمر — رضى الله عنه — لم يصير اماما بمجرد عهد أبى بكر رضى الله عنه اليه ، انما صار اماما لما بايعه جمهور الصحابة وأطاعوه •

ولو فرضنا أنهم لم ينفذوا عهد أبى بكر ولم يبايعوه لم يصير اماما سواء كان ذلك جائزا أو غير جائز •

ويعل ذلك ابن تيمية فيفرق بين أداء البيعة كفعل من الأفعال الخاضعة لأحكام الحلال والحرام وبين استحقاق الولاية نفسها اذ أن (الحل والحرمة متعلق بالأفعال ، وأما نفس الولاية والسلطان فهو عبارة عن القدرة الحاصلة : ثم قد تحصل على وجه يحبه الله ورسوله — ﷺ — كسلطان الخلفاء الراشدين ، وقد تحصل على وجه فيه معصية كسلطان الظالمين) •

وحتى اذا فرضنا أن بعض الناس كان كارها للبيعة ، فإن ذلك لا يقدح فى مقصودها فإن نفس الاستحقاق لها ثابت بالأدلة الشرعية الدالة على أنه أحقهم بها . ومع قيام الأدلة الشرعية لا يضر من خالفها . ونفس حصولها ووجودها ثابت بحصول القدرة والسلطان بمطوعة ذوى الشوكة •

السلفية بين العقيدة الاسلامية

والخوض في هذه التفاصيل الخاصة بالبيعة والولاية واستحقاق
الامامة لا يبعد بنا عن الغرض الجوهرى من ذلك كله — الا وهو إقامة
شرع الله ونصرة دينه •

وهنا يقول ابن تيمية (فالدين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادى
والسيف الناصر) كما قال تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان ليقيم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب — سورة الحديد » •
وتفسير الآية أن الكتاب يبين ما أمر الله به وما نهى عنه ، والسيف
ينصر ذلك ويؤيده •

وبناء على تطبيق ذاك على خلافة أبى بكر — وهى الخلافة القدوة
التي ينبغى أن يتخذها المسلمون — ثبتت خلافته بالكتاب والسنة ، أن الله
أمر بمبايعته والذين بايعوه كانوا أهل السيف المطيعين لله في ذلك فانهقدت
خلافة النبوة في حقه بالكتاب والحديد (٢٨) •

أما كيف يتم اختياره :

فقد أوضح أهل السنة السبيل الى ذلك عن طريق أهل الحل والعقد
أو أهل الصلاح والعلم ، وقد اختلف شيوخ أهل السنة والجماعة في مسألة
عدد أهل الحل والعقد ولكننا لا نرى بأسا في هذا الاختلاف اذ يدلنا على أن
الامر متروك للاختيار ووفقا لمصالح المسلمين على مدى العصور لتنظيم
مصالح الجماعة الإسلامية في شؤون الحكم والسياسة وفقا لظروف
ومقتضيات الأزمنة المتعاقبة واختلاف البيئات والمجتمعات وحمام الأمن

فى ذلك كله اتفاقهم على مسئولية الخليفة ونوابه فى حفظ أمور الدين والدنيا •

ولنترك الجوينى يوجز لنا هذا المقصد فيذكر (أن مطلوب الشرائع من الخلائق على تفنن المسالك والطرائق » الاستمسك بالدين والتقوى والاعتصام بما يقربهم الى الله زلفى « (٢٩) •

بقى بعد ذلك كله أن نعرف أنه بالإضافة الى موضوع الامامة فان للشيعة الاثنى عشرية ثلاثة أصول أخرى هى التوحيد ، العدل ، النبوة • وفى هذا الحد يد يقول ابن المطهر الحلى « ذهبت الامامية الى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحا ولا يخل بواجب وأنه لا يفعل الظلم ولا الغش وأنه رؤوف بالعباد وأنه لما بعث الله محمدا ﷺ قام بنقل الرسالة ونص على أن الخليفة بعده على بن أبى طالب ثم الحسن ثم الحسين ... الخ وأن النبى ﷺ لم يبت الا عن وصية بالامامة ، فنصب أولياء معصومين يأمن الناس غلظهم وسهوهم •

وقد اجأ الشيعة المتأخرون فى مسألتى التوحيد والعدل الى أصول المعتزلة واعتنقوها •

أما النبوة فليست ثم خلاف جوهرى بينهم وبين أهل السنة والجماعة فكل الفريقين يختم النبوة بمحمد ﷺ •

أما من حيث التشريع فالامام عندهم هو مصدر التشريع بعد القرآن ، والسنة المؤكدة لا تأتى الا عن طريق أهل البيت ولا يقبل الشيعة اسنادا الا عن طريقهم أو بعبارة موجزة لا اجماع ولا قياس وانما نص قرأنى أو حديث عن امام أو اجتهاد منه •

(٢٩) الجوينى — غياث الالم فى التياث الظلم ص ٥١ تحقيق د. مصطفى حلى و د. فؤاد عبد المنعم — دار الدعوة — اسكندرية ١٤٠٠ هـ •

(٢) المارقون عن الاسلام

اولا : الباطنية او الاسماعيلية :

لعل من المناسب ونحن أمام موضوع الفرق الباطنية التي اتخذت من الانتساب الى الاسلام وسيلة لنشر كل ما هو مخالف لهذا الدين ، ان نقف لنستقريء الاحداث الجسام التي نجمت عنها •

ونحن هنا لا نسرد أحداثا تاريخية تدور حول نشأة فرق الباطنية وبيان معتقداتها وذكر أسماء أصحابها فقد أشبعها الدارسون من كتاب الفرق وغيرهم ولكننا نبغى توجيه الانتظار الى ضرورة العناية بالعلل والدوافع وراء هذه الفرق •

وليس من المتصور أمام عقيدة الاسلام السمحة التي تمكنت من النفوس والقلوب لانها تجاوبت مع أصداء الفطرة الاسلامية ، ليس من المتصور أن ينقسم أتباع (هذا الانقسام أو يحملوا عقائد متناقضة وأفكار متضاربة تتنافر في جزئياتها وكلياتها مع عقيدة الاسلام ، فان المطلع على كتب الفرق كمقالات الاسلامية للاشعري أو الملل والنحل للشهرستاني أو الفصل لابن حزم وغيرها لتذهله كثرة عدد الفرق فضلا عن خروج أغلبها

(٣٠) الباطنية صفة تجمع الفرق الغالبة جميعا ، ويصفهم الشهرستاني بأنهم (قوم يخالفون الوثنيين والسبعين فرقة) أي يخرجهم عن الاسلام . والحق بهم (الاسماعيلية) التي امتازت عن الوثني عشرة ، باثبات الامامة لاسماعيل بن جعفر وهو ابنه الاكبر المنصوص عليه في بدء الامر . ثم ذكر القابهم المختلفة ، وأشهرها الباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل قنديل ناويلا . ولهم القاب أخرى ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، ونجراسان التعليمية والملاحدة . . (الملل والنحل ق ١ ص ١٧١—١٧٢) واطلق عليهم الاشعري في مقالاته : القرامطة وكان يعنى الاسماعيلية (مقالات ج ١ ص ١٠١) •

عن العقيدة الصحيحة وظهور مسحة الوثنية والافكار الفلسفية عليها وقد
وضع كل ذلك في قوالب يظهر فيها الاصطناع والوضع بقدر أكبر بكثير من
مجرد الاختلاف في الرأي أو الخطأ في الاجتهاد ، فما السبب ؟ هل هو
نشاط أعداء الاسلام وتكاتف اليهود مع الشعوبيين وغيرهم ؟ أم غفلة
وسذاجة جماهير المسلمين الذين انخدعوا فساروا مغمضى الاعين وراء
كل ناعق ؟

والظاهر لنا تكاتف العاملين معا وراء تعدد الفرق لا سيما الغلاة منهم
ونقصد بذلك :

: العامل الاول :

الحركات النشطة لاعداء الاسلام لا سيما اليهود وتاريخهم طويل في
معادات الاديان وقد فعلوا ذلك في المسيحية قبل الاسلام ثم دسوا على
الاسلام مذاهب واتجاهات متناقضة وكان من أهم التيارات المدسوسة على
المسلمين تهدف تشويه عقيدة الوحدانية المنزهة في الاسلام .

وقبل الخوض في مناقشة أصحاب التفسير المادى نصب أن نوضح
قاعدة هامة من قواعد البحث المنهجى في موضوعنا ، ونعنى بذلك الاستناد
الى المصادر الاسلامية التاريخية التى نقلت لنا عقائد ومذاهب الفرق
المختلفة وناقشتها وعرفت بانحرافاتهما عن عقيدة السلف وأهل السنة (٣٠) .

وهناك اجماع بين علماء السنة على خروج الباطنية بعقائدهم ونحلهم
وعباداتهم عن الاسلام ، فيميزون بينهم وبين الشيعة المعتدلة من الامامية

(٣١) مثل : الفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير في الدين للاسفرابينى
وكشف اسرار الباطنية للباقلانى وفصائح الباطنية للغزالى وفرق المسلمين
والمشركين للرازى ومنهاج السنة لابن تيمية وتاريخ الخلفاء للسيوطى .

والزيدية ، فان الباطنية من بنى عبيد بن ميمون القداح الذين ادعوا أنهم من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر ، لم يكونوا من أولاده ، بل كان جدهم يهوديا ؛ رببها لجوسى ، وأظهروا التشيع •

ويذهب ابن تيمية الى أكثر من هذا فيذكر أن هؤلاء لم يكونوا فى الحقيقة على دين واحد من الشيعة — لا الامامية ولا الزيدية بل ولا الغالية الذين يعتقدون الهية على أو نبوته ، بل كانوا شرا من هؤلاء كلهم ، ولهذا فإننا أكثر تصانيف علماء المسلمين فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم وأكثر غزو المسلمين لهم لكسر شوكتهم (٣٢) •

ويصف السيوطى « المهدي حاكم المغرب » فيقول : (وهو جد خلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهالة الفاطميين ، فان المهدي هذا ادعى أنه علوى وانما جده مجوسى) •

وأىضا استند الى رأى القاضى أبو بكر الباقلانى الذى وصفه بأنه مجوسى ولم يعرفه أحد من علماء النسب ، وكان باطنيا خبيثا حريصا على ازالة ملة الاسلام (لا التطبيق الاشتراكى المتخيل فى أذهان المحليين الماركسيين) أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من اغواء الخلق ، وجاء أولاده على أسلوبه ، أباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض (٣٣) •

ومما يعضد ذلك أيضا ما نقرأه لعبد القاهر البغدادى — وكان معاصرا لهم حيث توفى سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٧م — الذى اختتم كلامه عن القداح بقوله : (ثم ظهرت فتنة بالمغرب وأولاده اليوم مسئولون عن أعمال مصر) (٣٤) •

(٣٢) ابن تيمية : فتاوى شيخ الاسلام ج٤ ص ١٦٢ وما بعدها ط الرياض

(٣٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٩١ تحقيق الشيخ محمد محبى الدين

عبد الحميد ط التجارية ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م •

(٣٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٨٣ ط صبيح •

والى القارىء أيضا نص الوثيقة التاريخية التى نشرها الدكتور سهيل زكار وهى الرسالة التى بعث بها المعز الى القرامطة عندما علم باتجاههم الى غزو مصر ، فكتب اليهم كتابا ، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن دعوة القرامطة كانت له والى آباءه من قبله (٣٥) .

العامل الثانى :

غفلة وجهل الجماهير التى انسأقت وراء هذه الافكار المضالة التى كان من الممكن اكتشاف زيفها وانصرافها بأقل قدر من النظر والفقه فى الدين ، ومعرفة عقيدة السلف هنا بالذات ضرورية للتمييز بين السنة والبدعة .

ولعل هذا يذكرنا بأهمية معرفة عقيدة السلف ونشرها لتعريف جماهير المسلمين بالاسلام ، واليقظة الدائمة لمواجهة الانحرافات المدسوسة سواء فى العقيدة أو العبادات أو المعاملات .

اذ لا شك أن دعاوى الباطنية قد أحدثت أثرها العميق فى نفوس المسلمين فكانت بمثابة رأس حربة للغزوات الصليبية والمغولية ونعرف ذلك من متابعة تاريخ هذه الغزوات ومقارنتها بالاحوال الداخلية لدول المسلمين فحيث سادت مبادئ الباطنية فسدت أخلاق أهل الملة الاسلامية ووهنت العقائد وبدأ الوهن يدب الى جسد الدولة شرقا وغربا اذ تبدلت الشجاعة بالجبن والصدق بالكذب ووقع المسخ فى الهمم وانصرف الجميع عن الصالح العام سعيا لتحقيق المآرب الشخصية ولذا لم يكن عجبا أن أصبحوا هدفا للغارات الصليبية ثم جاءت الطامة الكبرى فزحف القطار

(٣٥) ثابت بن سنان : تاريخ اخبار القرامطة ص ٥٩-٦٠ ترجمة الحسن

الاعصم القرمطى تحقيق د. سهيل زكار ط دار الامانة - لبنان ١٣٩١هـ-١٩٧١م

ودخلوا بغداد وحطموا آخر أثر لمدينة زائلة لذلك فاننا لنعجب أشد العجب من المحاولة التي تجرى باسم اعادة كتابة التاريخ بواسطة أنصار المذهب الماركسي^(٣٦) الذين لا يعجبهم الا تلك الجوانب الشعريية الباطنية التي كانت خروجاً عن منهج الفكر الاسلامي فهل اغفل هؤلاء حقائق التاريخ وخطأ القياس اذا ما قورنت حركات الباطنية بما يدعونه من اشاعة روح العدالة الاجتماعية وتطبيق الانظمة الاشتراكية ، ان خطأهم واضح من حيث النظر الى عقيدة الاسلام والممثلين لها المعبرين عنها وتقصدهم علماء السلف وأهل السنة والمتابعين لهم وواضح أيضاً من حيث عقد مقارنات بين مجتمعات مختلفة تماماً من حيث العقيدة والظروف التاريخية التي اجتازتها فيقعون في خطأ علمي ومغالطة تاريخية .

كلمة عن المنهج :

سنقتصر في هذه الدراسة على اعطاء فكرة عن المذاهب الباطنية في تجريدتها النظري من زاوية مخالفتها لعقيدة السلف^(٣٧) وننتقل بعدها الى ترجمة بعض دعائها المؤثرين في الحركة الباطنية ، وبهذه الطريقة نصل الى هدفين معا لشرح مذاهبهم من العقيدة ثم ظهور دعواتهم وحركاتهم بخطواتها وأساليبها ونتائجها كانهراغات بل انسلاخ كامل عن الاسلام الذي عرفه السلف واعتنقوه ودعوا اليه ونشروه في ربوع الارض ، فأين

(٣٦) ينظر كتاب (الحركات السرية في الاسلام) للدكتور محمود اسماعيل من سلسلة (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣ م .

(٣٧) يستطيع القارئ اذا اراد الاستزادة الاطلاع على كتب المشرق والمذاهب ، ومن اهمها كتاب الشيخ محمد ابو زهرة (المذاهب الاسلامية) وكتاب الدكتور محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهاية للاستاذ عبد الرحمن الوكيل والقاديانية للشيخ محمد الخضر حسين ودراسات عن البهاية والبابية للاستاذ محب الدين الخطيب وآخرين والقادياني والقاديانية للشيخ أبي الحسن الندوي .

هؤلاء من أولئك ؟ ثم اتفقهم على ابتداع عقائد مخالفة للإسلام والكيد لشريعته عن عمد ، وستر ذلك بالتشيع أو محبة آل البيت أو الاتصال بالائمة كما سنرى عند ترجمة حياة أمثال المغيرة العجلي وأبى منصور قديما وغلाम أحمد والبيهاء في العصر الحديث •

وتنكشف النوايا بصورة لا تقبل الشك اذا عرفنا عنف الحركة على يد الحسن الصباح الذى أنشأ منظمة (الفداوية) أو (الخناقين) للتخلص من علماء المسلمين وأمرائهم من أهل السنة ، وكان توقيت الحركة عندما تصدى السلاجقة لصد الحملات الصليبية •

ألا يرجح ذلك الى وجود اتفاق خفى بين العداء الخارجى والداخلى وأن وراء ذلك التوقيت رؤوس مدبرة للكيد للإسلام والمسلمين ؟ وأن تشابه العقائد المنحرفة عن عقيدة السلف وتشابه الحركات السرية تدل على وحدة التخطيط مع اختلاف أشخاص المنفذين ؟

صاحبنا فى ترجمة بعض أشخاص دعاة الباطنية ، منذ عبد الله بن سبأ ولعل هذا المنهج يفيدنا أيضا فى دحض التفسير المادى للتاريخ لاننا لا نعتمد على اجتهادات فى رأى يقبل احتمال أو أكثر ، ولكننا نعتمد على سجلات التاريخ وأحداثه الثابتة •

كما سنلقى الضوء على طريقة الدعوة واتفاقها فى الاسلوب والاعراض مع محاولة تحليلها :

والآن ، علينا أن نبحث كيف نجح هؤلاء الباطنية فى تحقيق مآربهم • وهنا يتدرج بنا الحديث عن :

طريقة الدعوة الباطنية :

تتميز هذه الطريقة بسمات بارزة لا تخفى على الباحث منها :

أولاً — ادعاء محبة آل البيت والدعوة لهم تحت ستار أحقيتهم في الإمامة ثم ينفقون بعد ذلك سموم الالحاد والتعطيل في نفوس المسلمين ، وكان بعضهم كما سنرى يتقرب الى أحد الائمة ثم يفتري عليه الكذب ومن أشهر هؤلاء أبى منصور العجلي وأبى الخطاب •

ثانياً — اتخاذ السرية ستارا لنشر معتقداتهم ولا نستبعد احتضان المحافل الماسونية لهذه المعتقدات والمذاهب ونشرها في طي الكتلمان اذ أن التنظيمات الماسونية القديمة والتي خططت للحرب والقضاء على المسيحية منذ عصر الميلاد ما أن فوجئت بالمجتمع الاسلامى في القرن السابع الميلادى يقوم على دعامة التوحيد لله التوحيد الخالص المنزه الذى لا يشوبه ضم ولا وثن ، ما أن فوجئت التنظيمات اليهودية الماسونية حتى ظهرت الاحقاد التى تكره الحق أن ينتصر ويسود •

ثالثاً — التفسير أو التأويل الباطل للقرآن : بأن يخرجوا الايات عن دلالاتها الحقيقية النى اتفق عليها جمهرة المسلمين والزعم بأن كل ما جاء في القرآن عن البعث والجنة والنار والفرائض والمعجزات انما هو رموز واشارات لا يحيط بحقيقة أمرها سوى الامام المعصوم وعلى سبيل المثال : فالظهور لديهم هو التبرؤ من كل اعتقاد آخر سوى مبايعة الامام ، والصيام هو الامساك عز، كشف السر الباطن ممن هو غير أهله ، والفرائض انما شرعت للجهلة ، أما فرائض الخاصة والعقلاء في زعمهم فهي اتباع الامام فاذا نال الجاهل على الباطن بعد أن ثبت صلاحيته له أى بعد الخروج عن دينه سقطت عنه أغلال التكاليف وسعد بالخلاص منها •

وما أغرب وأبعد عن النصوص الاسلامية وروحها التأويلات التى جنحوا فيها الى الشطط والغرابة بحيث لا يسع أى مسلم — اذا أخلص النية وتجرد لمعرفة الحق — لا يسعه الا أن يدينهم من تفسيراتهم المسرفة

في الغرابة ، لان القرآن الكريم ميسر لكل ذى لب • قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ١٧، ٢٢، ٣٣، ٤٠ سورة القمر •

أنظر مثلا الى بعض هذه التأويلات المنحرفة :

منها تأويل بيان سمعان التميمي لقوله تعالى (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ١٣٨ آل عمران فكذب على الله بقوله (أنا البيان وأنا الهدى والموعظة) •

وقد زعم أتباعه انه كان نبيا وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ (٢٨) •
والمغيرة بن سعيد العجلي زعيم المغيرة كذب على الله تعالى عندما فسر قوله سبحانه (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) ٧٢ الاحزاب •

كذب المغيرة وانحرف عن نص الاية وتفسير السلف لها بقوله :
(ان الظلوم والجهول أبو بكر) (٢٩) رضى الله عنه ••

أو تأويل أبى منصور العجلي زعيم المنصورية من الغلاة الذى أدعى انه خليفة الباقر ، فقد تأول — وأتباعه من بعده الفرائض والمحرمات فزعموا أن الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم (٤٠) •

رابعا التدرج في الدعوة :

يدعون المستجيب لهم أولا الى التشيع ، والتزام ما يوجبه الشيعة

(٣٨) الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج ٢ ص ١٣ دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨١هـ — ١٩٦١م •
(٣٩) المصدر السابق ص ١٤ •
(٤٠) المصدر السابق ص ١٥ •

المعتدلة وتحريم ما يحرمونه : ثم بعد ذلك ينقلونه درجة بعد درجة حتى ينتهى بهم الامر الى الانسلاخ من الاسلام تماما .

ويوضح لنا البغدادى هذه الخطة اللثيمة فى الدعوة مثبتا لذلك بقوله (والدليل على أنهم كما ذكرنا ، قرأته فى كتابهم المترجم « السياسة والبلاغ الاكيد والناموس الاعظم » وهى رسالة عبيد الله بن الحسين القيروانى — أى المهدي — الى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنبابى — أوصاه فيها بأن قال له :

. . أدع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون اليه ، وأوهم كل واحد منهم بأفك منهم ، فمن آمنت منه رشدا فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وأنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الانبياء ، وعلى القول بقديم العالم (٤١) .

ولكن علماء السلف كانوا على بينة بحقائقهم . وهذا هو ابن تيمية يكشف الغطاء عن حقيقتهم فيقول (فان هؤلاء القرامطة الباطنية يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاته أهل البيت ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب . . ولهم فى معاداة الاسلام وأهله وقائع مشهورة . وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ثم بسببهم استولى النصارى على القدس (٤٢) .

بعض دعاة الباطنية :

تمتلىء الكتب التاريخية بأسماء الفرق والدعاة الذين شذوا عن طريقة السلف والسنة وتجمعهم رابطة واحدة هى الكيد للاسلام وأهله ، ولن نطيل فى ذكر أسمائهم وفرقهم اكتفاء بالإشارة الى بعض رؤوس الباطنية الذين

(٤١) البغدادى — الفرق بين الفرق ص ٢٩٤—٢٩٥ .

(٤٢) فتاوى ابن تيمية ج٣ ص ٢٠٩—٢١٢ ط الرياض .

كان لهم أبلغ الاثر في تشويه العقيدة الاسلامية وبث الفتن بين صفوف المسلمين واشاعة الفرقة بين مجتمعاتهم ، وهدفنا من ذلك أخذ العبرة والعظة من تاريخنا وما يتصل بذلك مما نراه في وحدة الاساليب والطرق المتبعة كالادعاء بالانتساب الى أحد الائمة ثم الانشقاق عليهم والاعتماد على التأويل الرمزي للقرآن للقضاء على التكاليف الشرعية واشاعة الاباحية والتحلل وقتل روح الجهاد في الامة ثم تكوين الفرق كطلائح لتدمير المجتمعات الاسلامية كما حدث بواسطة السبئية ومنظمة الفداوية كما أننا عندما سندرس بعض أفكار المنشقين عن الاسلام في العصر الحديث فإننا سنقف على الرابطة الجامعة بين أفكارهم وأفكار أسلافهم كنظرية استمرار النبوة عند الاسماعيلية والبهائية وكان الواضح لاساسها المغيرة بن سعيد العجلي كما سنرى .

عبد الله بن سبأ :

أول الغلاة حيث أظهر الاسلام نفاقا وأول من أعلن ألوهية على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وأنه لم يمت ، وسيرجع الى الدنيا قبل يوم القيامة ، وهذا هو مبدأ الرجعة .

وأنبأه يطلق عليهم اسم (السبئية) (٤٣) .

ويذكر الطبرى في تاريخه أنه كان « عبد الله بن سبأ » يهوديا من أهل صنعاء ، أمه « سوداء » ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر (٤٤) .

وشرحا لدوره وبيانا لخطأه يقول الاستاذ محمد الراشد : كان بتسقط

(٤٣) الاثسمرى : مقالات ج ١ ص ٨٦ .

(٤٤) تاريخ الطبرى : الطبعة الاولى القسم الاول ٢٩٤٢ .

خلال رحلته ضده كل سارق وقاطع طريق ومفسر نالته عقوبة من أحد
الولاة فتوترت نفسه ، ويواعدهم أن يكونوا بالمدينة أيام يكون الناس
حجاجا بمكة ، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون •
ووضع لهم خطة أوجزها بقوله لهم :

(انهضوا في هذا الامر ، فحركوه ، وابدأوا بالظعن على أمرائكم ،
وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعواهم
الى هذا الامر) •

هكذا ، باسم الامر بالمعروف يكون الهدم •
انها الخطة الدائمة لكل ذي هوى •

ثم كان من ابن سبأ أنه :

بث دعايته ، وكاتب من كان استفسر في الامصار وكاتبوه ودعوا في
السرا الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم ، ويكاتبهم
اخوانهم بمثل ذلك : ويكتبه أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون ،
فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة
وأوسعوا الارض اذاعة : وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير
ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : أنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء (٤٥) •

وبهذا فسدت النفوس . وحان يوم انقلابهم ، فاذا بهم حول دار
عثمان (٤٦) ••

(٤٥) المصدر السابق ٨-٣٠-٣٠٢ •

(٤٦) محمد أحمد الراشد - العوائق ج ٢ ط مؤسسة الرسالة - بيروت

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م •

ويربط ابن تيمية في شرحه لدور ابن سبأ ودور القديس بولص في النصرانية ، فيذكر أن كلاهما كان يهوديا ، ويقرر أن ابن سبأ كان منافقا زنديقا فأراد بذلك افساد دين المسلمين ، كما فعل (بولص) حيث ابتدع لهم بدعا أفسد بها دينهم ، وكان يهوديا فأفطر النصرانية نفاقا بقصد افسادها ، وكذلك كان ابن سبأ يهوديا ففقد ذلك وسعى في الفتنة لقصده افساد الملة .

فلم يتمكن من ذلك ، لكن حصل بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها عثمان رضي الله عنه ، وجرى ما جرى من الفتنة ، ولم يجمع الله — ولله الحمد — هذه الامة على ضلالة ، بل لا يزال فيها طائفة قائمة بالحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة (٤٧) .

ونذكر من الباطنية أيضا المغيرة بن سعيد العجلي الذي كان يتردد على الامام محمد بن الباقر (١١٤ هـ) ثم ابتعد عنه وأخذ في ذم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما علم الباقر بذلك تبرا منه وهنا أخذ المغيرة ينشر أفكاره الباطلة وربما يعتبر أول من أدخل التفسير الرمزي في القرآن الكريم مثل قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) .

فقال ان العدل والاحسان يعنى فاطمة وعليها ، وذى القربى أبى الحسن والحسين ، وينهى عن الفحشاء أبى أبا بكر والمنكر عمر ثم أخذ يغلو

(٤٧) مجموع الفتاوى ج ٣٥ ص ١٨٤ ط الرياض ١٣٨٦ هـ .

وفي العصر الحديث رأينا من يتفق مع ما ذهب اليه ابن تيمية آنفا حيث يقول كولن ولسن (اجل ، لقد كان بولس مختلفا جدا عن المسيح — عليه السلام — كما ان الدين الذى اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس ، سقوط الحضارة ص ١٧٩ ط دار العلم للملايين — بيروت ١٩٥٩

في حق علي أنسد الغلو حتى قال : ان عليا يحيى الموتى كما كان يدعى العلم بالغيب •

وبعد ذلك ادعى الامامة لنفسه ثم ادعى النبوة •

وكان من تلاميذ أبو منصور العجلي حيث أعلن بدوره النبوة وقال ان النبوة لا تنقطع أبدا بل هي متجددة دائما وقد فتح بهذا الباب للاسماعيلية من بعد ثم بعده للبهائية في العصور الحديثة^(٤٨) ، ووضع الخطط للاجهاز عليه . اذ أعلن الجهاد الخفي وهو خنق واغتيال كل من يخالفه في مذهبه وقد أدت هذه الدعوة الى أفظع النتائج اذ تكونت فرقة الخناقين من أتباعه واتباع المغيرة ونشروا الذعر في العالم الاسلامي كذلك ظهرت فرقة الخطابية وعلى رأسها أبى الخطاب الاسدي الذي نشأ في الكوفة وتردد على الامام جعفر الصادق (١٤٨ هـ) للاخذ عنه ولكن ما لبث الامام أن ذمه ولعنه لما علم بأخباره وما كان يدعيه كذبا من معرفة الامام بالعلم الغيبي ؛ فغضب منه وأخبر أصحابه بذلك فأخذ يدعو لنفسه وينشر مبادئه ويكون

(٤٨) د. النشار: التفكير الفلسفي في الاسلام (مذاهب وشخصيات) ص ١٢٧ .
المغيرة بن سعيد العجلي ادعى ان الامامة بعد محمد بن علي بن الحسين في محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، الخارج بالحقبة ، وزعم انه حي لم يموت •

وكان المغيرة مولى لخالد بن عبد الله القسري وقد مات محروقا على يديه سنة ١١٩ هـ ويسمى اتباعه (المغيرية) •

الشهرستاني : الملل والنحل ق ١ ص ١٥٧ ومقالات الاسلاميين للآشعري ج ١ ص ٩٨-٧١ •

أبو منصور العجلي : وهو الذي عزا نفسه الى أبى جعفر محمد بن علي الباقر أولا ، فلما تبرأ منه الباقر وطرده زعم انه هو الامام ، ودعا الناس الى نفسه ولما توفي الباقر قال : انتقلت الامامة الى وتظاهروا بذلك . ويسمى اتباعه (المنصورية) نفسه ص ١٥٨ •

وعن أبى طالب الاسدي ينظر المصدر نفسه ص ١٥٩ •

فرقته الخطابية مدعيا أن جعفر الصادق قد جعله وصية من بعده وأن جعفرا علمه اسم الله الاعظم ثم كرمنى فادعى النبوة والرسالة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله الى أهل الارض والحجة عليهم ويذكر أن أصحابه من الخطابين كان كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا يا أبا الخطاب .. خفف علينا فيأمرهم بتركها حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا : خفف عنا بأبى الخطاب .

ومن أشهر دعاة الباطنية رجل يسمى ميمون بن ديصان (مات في الغالب ١٩٨ هـ) (٤٩) وكان غيما يقال يهوديا وأسلم ويقال أيضا إنه كان ثانويا يقول بوجود الهين تتلمذ على أبى الخطاب الذى تكلمنا عليه آنفا مما جعله عارفا بالمذاهب الفلسفية والاديان كما كان يتسم بحنكة سياسية وقد استغل جميع هذه الامكانيات في نشر الدعوة والغلو الى حد كبير في فضائل اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد محاولا تدعيم آرائه بمختلف العناصر الفلسفية الملم بها وأخذ يؤول الايات القرآنية بما يتفق مع عقيدته في امامة اسماعيل وابنه معلنا أنه حجة الامام ونائبه وداعيه ثم أخذ يضع أصول الدعوى وتتلخص عناصرها الرئيسية في الايمان بعصمة الامام اللامتناهية وأن الامام ينصب من الله تعالى وانها واجبة لحفظ الشريعة وجوبا أزليا في علم الله القديم ، مع وجود النور الاول الازلى الذى انتقل من نبي ثم من امام الى امام وينسب الى ميمون هذا نشأة الفرقة الاسماعيلية اذ عندما رأى ما حل ببعض الدعاة الذين جاھروا بأرائهم الاحادية عقد العزم على تقويض أسس الاسلام فجعل الدعوة سرية

(٤٩) ينظر كتاب الدكتور النشار : التفكير الفاسفى فى الاسلام ص ١٨٩

وقسم النظريات التي كان يهدف بها الى القضاء على الاسلام الى سبع درجات تعليمية لا يرتقى المرء من درجة الى أخرى الا اذا اختبر اختبارا دقيقا حتى اذا انتهى المرید الى الدرجة السابعة صرح له بأن جميع الديانات أوهايم وخرافات •

• واستخدم التأويل في آيات القرآن فزعم أن كل ما جاء في القرآن الكريم عن البعث والجن والنار والمعجزات والفرائض انما هو رموز وإشارات لا يحيط بحقيقة أمرها سوى الإمام المعصوم وقد ضرب لنا الغزالي في كتابه عن فضائح الباطنية أمثلة لنماذج عديدة من هذا التأويل فمن ذلك انهم أولوا جميع المعجزات فقالوا ان المراد من عصى موسى هو غلبة حجته التي تلقت كل ما كان سخرة غرعون يقدمون اليه من شبه وأباطيل في حين أنه يمكن تأويل الغمام الذي أظلم بني إسرائيل انه الامام الذي نصبه عليهم موسى لكي يرشدهم •

أما الجراد والقمل والضفادع فهي الالزامات والاوامر التي أوجبها موسى عليهم (٥٠) •

ولا يميز مؤرخو الفرق عادة بين الاسماعيلية والباطنية ، يقول الخوازمي ، الاسماعيلية هم الباطنية ، ويرى الغزالي أن من أسباب تلقيبهم بالباطنية هو دعواهم أن لظواهر القرآن والاخبار بواطن رأسها بصورتها الظاهرة كوههم عند الجاهل والاغبياء صور جليلة وهي عند العقلاء والاذكياء ، رموز وإشارات الى حقائق معينة والبعض يرى أن الاسماعيلية فرقة من الفرق الباطنية أو هي إحدى مظاهر الدعوى الباطنية التي اتخذت

الاسماء المختلفة مع اتحادها في الوسائل والاهداف كالقرامطة والنصيرية والدرزية والقاديانية والبهائية •

والواقع أننا حين نتكلم عن الاسماعيلية لا نتكلم عن احدى الطرق التي انقضت وذهبت مع التاريخ ولكننا نعرض لمعتقدات وحركات سرية ما رالت تعيش في قلب العالم الاسلامي وما الاسماعيلية أو القاديانية أو البهائية الا بمثابة فقاعات على السطح تخفى في أعماقها البؤرة اليهودية التي ما رالت تعمل لتقويض الاسلام والقضاء على شوكة المسلمين للاستمرار احتلال أراضيهم واذلالهم ونهب خيراتهم •

ويلاحظ الدارس لظهور الفرقة المنتسبة للاسلام زورا أن العلاقة طردية بين هجمات الصليبيين والتتار وقوة شوكة الباطنية في الداخل تمهيدا للغزو الخارجي فلا غرابة إذن أن يحصل الباطنية ثمار محاولاتهم المذهبية فعندما انتشر عملاؤهم في مصر وخراسان وبلاد فارس كان ذلك من الاسباب التي ساعدت الصليبيين على غزو البلاد الاسلامية في أواخر القرن الخامس الهجري والحق أن الحروب الصليبية لم تنته في الظاهر الا في القرن العشرين أي بعد أن نجحت بمعاونة الصهيونية في هدم الدولة العثمانية والاستيلاء على بلاد المسلمين ومنها مدينة القدس وبها المسجد الاقصى ، ثالث المساجد التي يشد إليها الرحال ، كما ورد في الحديث النبوي •

ونشأة اسم الاسماعيلية يرجع الى افتراقها عن الاثني عشرية في انتقال الامامة من موسى الكاظم حينما اتخذت الاخيرة الامام الكاظم باعتباره الامام السابع في سلسلة الائمة نقلت الاسماعيلية سلسلة أئمتها أما باضافة اسماعيل بن جعفر أو محمد ابن اسماعيل •

ويحدثنا النوبختي عن الاسماعيلية عند ظهورها فيذكر أنها أنكرت موت اسماعيل أثناء حياة أبيه وزعموا أن أباه عييه عن الناس وأخبر بموته ولذا فانهم يعتقدون أن اسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض . ويقوم بأمر الناس وقد منعت إليه الامامة من أبيه لا إياه أشار إليه بالامامة وتكونت العقائد الباطنية الاسماعيلية الاولى على أثر موت محمد بن اسماعيل اذ ادعى بعض أنبأه أنه المهدي وأنه سيعت بشريعة جديدة تفسخ شريعة موسى ، عيسى ومحمد ﷺ . ويضيفون عليا ومحمد بن اسماعيل أما تعليل هذا العدد فيرجع في زعمهم الى أن النظامين الكوني والانساني قائمان على هذا العدد فان السماوات والأرضين سبع وكذلك الجسد الانساني يتكون من سبعة أعضاء والائمة سبعة فأتدبر محمد بن اسماعيل .

وتناولت هذه الطائفة نسخ الشريعة الاسلامية بأحاديث نسبوها الى الامام جعفر الصادق ومنها انه قال (لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جيدا وأنه قال بدأ الاسلام عربيا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

وترى هذه الطائفة شأنها في ذلك شأن الباطنية جميعا أن الفرائض والمسنة التي أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن وأن جميع ما استعبد الله به العباد (ما وضعه من عبادات ، في الظاهر من الكتاب والسنة هي أمثال مضروبة لها تنم أو معان هي بطونها ، بعبارة أخرى فان ظواهرها هي جزء من العقاب الادي عذب الله به قوما اذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به .

من هذا نفهم أن الشريعة عندهم هي عقاب يكلف به من لم يعرف امام زمانه الذي يرفعها عنه . والى الاسماعيلية تنسب رسائل احوال الصفا . التي حاولت الاسماء بحمض مواحي الفلسفة اليونانية ويتصح فيها مشكل خاص الموصود أي له من عن طريق الاله 'و لدى أغلوصر السكندري (لتثبت معرفه الائمة معلوم باطنية لا يعرفها سواهم .

وقد اتخذ الدعاة الاسماعيليون كل الوسائل لنشر دعوتهم فاستخدموا التصوف واستمدوا بعض أساليبه واستخدموا المذهب المعتزلى ووجدوا أعوانا فى أوساط الشعوبية •

وفتية لذلك دخل فى أعماق المذهب الاسماعيلى مزيج غريب من المعتقدات والآراء حيث أراد الدعاة أن يستسيغوا أو يشيعوا أو يرضوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذين حاولوا جذبه الى موالاته الامام الاسماعيلى حدث كل ذلك فى سرية لم يعرف التاريخ لهلا مثيلا (٥١) •
حركة القرامطة الباطنية :

تنسب القرامطة الى حمدان بن الاشعث الذى اشتهر بزهده وكان فقيرا ومن عادته السير بخطوات متقاربة فدعى بقرمط • ودعى الى المذهب الاسماعيلى وكان قبل ذلك يدعى الكيسانية أى يؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن الحنفية وسنعود الى عرض انحرافات العقائدية عند مناقشتنا للمذهب • ويقول عنهم ابن كثير أن القرامطة تحركوا عام ٥٢٨ هـ ويصفهم بأنهم من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة وكانوا يبيحون المحرمات ويتبعون كل ناعق من جهة الرافضة (٥٢) •

أخذ حمدان هذا يرسل الدعاة الى البلاد القريبة فأرسل أبا سعيد الجبابى كما يذكر البغدادى الى البحرين وتغلب عليها • كما أرسل زكرويه ابن مهرويه الى شمال العراق كما أرسل أخاه حمدان فى أرض فارس أما أهم دعائهم فقد كان صهره وصديق الداعى عبد الله وقد أنشأ أسويا دار الهجرة •

ويروى المقرئى عنه انه أقام الدعاة فى كل قرية ليجمع الاموال

(٥١) د. النشار — التفكير الفلسفى فى الاسلام من ٢١٩—٢٢٠ • •

(٥٢) ابن كثير — البداية والنهاية ج ٥ ص ٣١٠ •

وليفيق على الاتباع ما يكفيهم بحيث لا يملك أحد منهم الا سلاحه ، فلما
المهتكم له ذلك كله أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ويختلطن بالرجال وقال أن
ذلك من سمة الود والالفة منهم) •

وربما كان هذا التصرف ما أدى ببعض الدراسات التاريخية المعاصرة
وليف الحركة بالاشتراكية ، فمن الملاحظ أن أصحاب التفسير المسمى
للتاريخ جاءوا من الحركات السرية الباطنية حركات تحريرية ثورية تستهدف
تحقيق العدالة الاجتماعية ، بينما حقيقة أمرهم تحطيم كيان الامة الاسلامية
في أعز مقدساتها وهي العقيدة •

وكان لخطر انحراف ظهر بالقرامطة هي غزوهم للكعبة سنة ٣١٧ هـ
يوم الترويه برئاسة أبى طاهر الجنابى هقتلوا الحبيب وانتكوا أمبوالهم
ولم يبسلم منهم أحد سواء في رحاب مكة أو في المسجد الحرام أو في جوف
الكعبة واقتلعوا الحجر الاسود فمكثت عندهم اثنين وعشرين سنة ••

ومنهم أيضا عبيد الله بن ميمون القداح (توفى ٥٣٢ هـ) الذى زعم انه
من نسل فاطمة رضى الله عنها ، ثم تمكن حفيده المعز من انشاء الدولة
المسماة بالدولة الفاطمية بمصر والمغرب واستمرت نحو مائتى عام حتى
أزالتها صلاح الدين •

يقول ابن القيم (وكان جده يهوديا من بيت مجوسى ، فانتسب بالكذب
والزور الى أهل البيت وادعى انه المهدي الذى يبشر به النبى ﷺ ، وملك
وتغلب واستفحل أمره ، الى أن استولت ذريته الملاحدة المناهقون — الذين
كانوا أعظم الناس عداوة لله ورسوله — على بلاد المغرب ومصر والحجاز
والشام • واشتدت غربة الاسلام ومحنته ومصيبته بهم • وكانوا يدعون
الالهية ويدعون أن الشريعة باطنا يخالف ظاهرها) •

ويستطرد بعد ذلك فيصفهم بأنهم ملوك القرامطة الباطنية ، تستروا كذبا

بالتشيع وانتسبوا زورا الى أهل البيت ودانوا بدين أهل اللاحاد وروجوه، ولم يزل أمرهم ظاهرا الى أن أنقذ الله الامة منهم ، ونصر الاسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٨٩ هـ) فاستنقذ الملة الاسلامية منهم وأبادهم وعادت مصر دار الاسلام بعد أن كانت دار نفاق والحاد في زمنهم (٥٣) .

وظهر أخطر دعائهم أيضا في القرن الخامس الهجرى ، ويدعى الحسن بن الصباح الذى سنعرّف به بدعوته وعقيدته وعقيدة أتباعه لازالة اللبس عند البعض حيث يظن الاخذون بالتفسير المادى للتاريخ أن حركة الباطنية كانت حركة اشتراكية بغرض اقامة العدل الإجتماعى . وسنثبت من خلال هذا العرض لعقيدة وحركة الصباح وأتباعه أن الغرض من الثورة الباطنية القضاء على عقيدة التوحيد (٥٤) .

الحسن بن الصباح :

بدأ بتكوين دولة اسماعيلية في ايران سنة ٤٨٣ هـ عندما استولى على قلعة الموت المنيعه ولم ينجح السلاجقة في استرداد هذه القلعة لا سيما أن الاسماعيلية قتلوا نظام الملك وشغلت الاسرة الحاكمة بالنزاع على العرش وانشغل أيضا أمراء الفرق بالقتال فيما بينهم وتحولوا عن مهاجمة الاسماعيلية فانتهاز ابن الصباح فرصة النزاع فأخذ يثبت أقدامه ويثبت دعائه ويوسع أراضيه (٥٤م) .

أما تاريخ حياته وعقيدته كما يوردها عطا ملك الجوينى في كتابه (تاريخ جهانكساي) فنتلخص في الوقائع الاتية :

(٥٣) ابن القيم : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص ١٥٤ .
(٥٤) د. محمد بدیع شریف : الصراع بين الموالى والعرب ص ٦٤ — دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٩٥٤م .

قدم أبوه من اليمن الى الكوفة ، ومن الكوفة الى قم ، ومن قم الى الري ، فاستوطنها وهناك ولد الحسن بن الصباح • ص ١٨٤—١٨٥

ويقرر الحسن في إحدى رسائله انه كان متبعا لمذهب آبائه ، وهو مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، وكان في الري رجل على مذهب باطنية مصر فكنا يتناظران معا دائما •

يقول الحسن :

(وكنا نتناظر معا بصفة دائمة ، فيكسر مذهبنا ولكني لم أكن أسلم بيئنا استقرت آراؤه في قلبي •

وفي تلك الاثناء أصبت بمرض خطير شديد غفلت في نفسي : ان ذلك المذهب هو الحق ، ولكني لم أقبله من جراء تعصبى الشديد) (٥٥) •
وبعد أسفار وانتقالات عدة من أصفهان الى أذربيجان ثم الى الشام حتي وصل الى مصر عام ٤٧١ هـ وظل بعدها يسافر من بلد الى آخر متخفيا لانه كان مهذبا بالقبض عليه بأمر من نظام الملك •

ويقول عطا ملك الجويني :

(وعن طريق زهده الشديد وقع كثير من الناس في حبائله وقبلوا دعوته فحملوه الى القلعة في مساء يوم الاربعاء السادس من رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة •

وعندما استقر بالقلعة أخذ يجاهر بدعوته حيث سماها أتباعه (الدعوة الجديدة) •

وقد أسسوا مذهبهم على تأويل التنزيل وعلى الاخص الايات

(٥٥) تاريخ جهانگشاي ص ١٨٥ ، وقد نقل الشهرستاني ملخصا لعقيدته بعد ان ترجمها الى العربية (ينظر الملل والنحل ق ١ من ص ١٧٥ الى ص ١٧٨ •

المتشابهة ، وكانوا يقولون — كدأب الباطنية جميعا — ان لكل تنزيل تأويلا ولكل ظاهر باطنا ، وفتح الحسن بن الصباح باب التعليم والتعلم^(٥٦) على مصراعيه وفق الطريقة الباطنية حيث زعم أن معرفة الله تعالى لا تكون بالعقل والنظر بل بتعليم الامام^(٥٧) .

وقد استخدم دعوته في جمع الاتباع والاستيلاء على الاراضي المتأخمة (وأما ما لم يغتر بتغريره فكان يستولى عليه بالقتل والهتك والنهب والسفك والحرب ، وكان يستولى على كل ما يستطيع من القلاع ، وحيثما كان يجد منطقة صخرية تصلح للبناء أقام عليها قلعة)^(٥٨) .

وقد حاول السلطان ملكشاه استئصال هذه الطائفة ولكنه مات ولم ينجح في تحقيق غرضه فقتلهم^(٥٩) .

وكان وزيره نظام الملك الحسن بن علي بن اسحق الطوسي قد بذل من قبل قصارى جهده في استئصال الفتنة الصباحية .. (وذلك لما كان يراه بنظرة الثاقب من شمائل أحوال الحسن بن الصباح وأتباعه وهم امارات الفتن في الاسلام ولما كان يشاهده من علامات الخلل) ولكنه لم ينجح أيضا وقتله أحد أتباع الصباح في رمضان سنة ٤٨٥ هـ^(٦٠) .

(٥٦) ويرجع الدكتور محمد العبد اصول نظرية (التعليمية) الى ابي حاتم الرازي الداعي والفيلسوف الاسماعيلي المبكر — ينظر تعليقه رقم ٣ ص ١١٦

(٥٧) تاريخ جهانكشاي ص ١٩٠-١٩١ .

(٥٨) نفسه ص ١٩٢ .

(٥٩) نفسه ص ١٩٥ .

(٦٠) نفسه ص ١٩٧ .

وظال مستمرا في خطته بالتخلص من كل خصومه بالقتل — فقتل
الامراء والقواد والمشاهير الواحد تلو الآخر (بحيلة الفداوية) (٦١) فكان
يتخلص من كل من يتعصب معه بهذه الحيلة (ويطول بنا المقام لو ذكرنا
أسماءهم) .

وبقي مستوليا على الامور طوال خمسة وثلاثين عاما . . الى أن
مرض ومات سنة ٥٥١٨ هـ (٦٢) .

خلفه بعد موته شخص يسمى برزك أمين حيث استمر في انتهاج
نفس المنهج طيلة أربعة عشر عاما (٦٣) الى أن مات سنة ٥٥٣٣ هـ ، فتولى بعده
زهاد الامور ابنه محمد وولى عهده الى أن مات سنة ٥٥٥٧ هـ فخلفه ابنه
الحسن الذي تتبع باتقان كلام الدعوة وصار بارعا في تقرير المذهب الباطني
وتجاوز به الحد في الانسلاخ عن الملة حيث أضاف عقيدة جديدة وشجع
أتباعه على شرب الخمر وارتكاب الموبقات في شهر رمضان يقول :

(وكان أتباعهم الكفرة الفاسقون الذين أوشكوا على الانسلاخ من
شعار الشريعة ، يعتبرون ارتكاب المحظور وشرب الخمر علامة على ظهور
الامام الموعود ، فلما قام مقام أبيه بدأ أئشياعه وأتباعه بزيادة توقيره بحكم
اعتقادهم فيه ، اذ كانوا يظنون أنه الامام) (٦٤) .

(٦١) يصف الدكتور محمد السعيد جمال الدين (الفداوية) بانها منظمة
رهيبة كان نشاطها قائما على اساس فردي باغتيال المناوئين لكل من الدولة
والمذهب على حد سواء فلوتموا الخلل والتوتر في نفوس المخالفين لمذهبهم حتى
انعدم الابن ، ووصل الامر الى ان الملوك والسلطين لم يجدوا في حفظ أنفسهم
من الفداوية حيلة . دولة الاسماعيلية في ايران ص ١١١—١١٢ .

(٦٢) تاريخ جهاتكشاي ص ٢٠٢ .

(٦٣) كانت في اصل المخطوطة طيلة عشرين عاما ولكن المحقق رجع المدة
اعلاه . ينظر تحليله ص ٢٠٧ من المصدر نفسه .

(٦٤) نفسه ص ٢١٢ .

الى ان يذكر انه في رمضان سنة ٥٥٩ هـ أمر بإقامة منبر في ساحة ميدان أسفل الموت بحيث تكون قبلته في الواجهة المغايرة لقبلة أهل الاسلام فلما كان السابع عشر من رمضان^(٦٥) أمر أهالي ولايته الذين كان قد استدعاهم الى الموت في ذلك الحين بأن يجتمعوا في ذلك الميدان .

وأعلن على أتباعه أن رجلا قدم اليه في المخفاء من لدن الامام المفقود حيث فتح باب رحمته وأبواب رأفته على المسلمين وعليهم كذلك ودعا أتباعه الخاصين المختارين ورفع عنهم آصار الشريعة ، ثم نزل من على المنبر وصلى ركعتي العيد وقال (اليوم عيد) .

ومنذ ذلك الحين — كما يخبرنا المؤرخ عطا ملك الجويني — وهم يطلقون على اليوم السابع عشر^(٦٦) من رمضان اسم (عيد القيام) ، وفي ذلك اليوم كان أغلبهم يشرب الخمر بشره ويتظاهر باللهو والطرب^(٦٧) .

كما ادعى أحد دعائهم وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح (توفي ٣٢٢ هـ) ويقال انه كان يهوديا ثم ادعى الاسلام وأنه من نسل غامضة وقد تمكن حفيده المعز من انشاء الدولة المسماة بالدولة الفاطمية في مصر ، واستمرت نحو مئتي عام حتى أزالها صلاح الدين الايوبي ، ويجمع

(٦٥) واختيار هذا اليوم بالذات يحتاج الى وقفة تأمل لانه يوافق — كما تروى كتب السيرة والتاريخ الاسلامي — بداية الالتحام في معركة بدر الكبرى ، فاذا أضفنا الى هذه الملاحظة ما تعبه هذا الملحد من مخالفة جهة القبلة ظهر لنا بوضوح الدوافع العدائية للاسلام وعبادته وتاريخه .

(٦٦) واختيار هذا اليوم يحتاج الى وقفة تأمل كما قلنا آنفا ، للمقارنة ينظر كتاب (مختصر سيرة الرسول ﷺ) لمؤلفه الشيخ محمد ابن عبد الوهاب حيث يذكر ص ٢١٠ . . . وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتابها واصطف الفريقان (المطبعة السلفية بالروضة بالقاهرة ١٣٩٦ هـ .

(٦٧) تاريخ كهانجشاي ص ٢١٤—٢١٥ .

المؤرخون على عدم صحة انتساب هؤلاء الفواطم الى السيدة فاطمة مؤكدين أنهم من أصل يهودى •

وظهر أخطر دعائهم أيضا فى القرن الخامس الهجرى ويدعى الحسن ابن الصباح — جال من الاقطار الاسلامية للقضاء على الدولة العباسية فذهب الى مصر وتلقى تعليم الباطنية فى دار الحكمة ثم عاد الى الشام ورجع فى آخر الامر الى خراسان فى عهد نظام الملك حيث مد سلطانه الى مناطق بلاد فارس الجبلية فبنى بها حصونا يشن منها هجماته •

مناقشة المدافعين عن الباطنية :

نود بعد هذا كله أن نعرض باتجاه بعض البحوث المعاصرة التى تبرز فى عرضها لحركات الباطنية من اسماعيلية وقرامطة وغيرها ، تبرز العامل الاقتصادى مستندة الى ما أقامه حمدان القرمطى من نظام سموه نظاما اشتراكيا لانه حرص فى دعوته على التنظيم النقابى والاجتماعى وفرض الضرائب المتدرجة على أتباعه (٦٨) •

وقبل مناقشة هذه الدعوى ينبغى أولا التعرف على الاتجاه الذى يتبنى هذا التفسير الاقتصادى فاذا عرفنا أن القائمين بهذه الابحاث أو الدراسات هم أصحاب الميول الماركسية فلا ندعش عندئذ تقويمهم لحركات الباطنية ولن نتعرض لما أكده المؤرخون جميعا من كذب ادعاء نسبة الباطنية لآل البيت اذ ربما نواجه بالحجة القائلة أن مصادر أهل السنة والجماعة هى التى تشكك فى نسبهم ، ولا ينتظر من خصومهم الا مثل هذا الموقف أما مدخلنا لنقد هذا التفسير المادى فانه يبدأ من نقطة أساسية

(٦٨) ينظر على سبيل المثال كتاب الدكتور محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام من سلسلة كتاب (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣ م •

لابد من تسليم المعارضين بها وهي أننا نناقش هذه الحركات من حيث بواعثها وأهدافها ومن حيث وسائلها أيضا ، نناقش هذا كله ونزنه بميزان الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا ، ثم تأتى الى تفسير علماء المسلمين وأدلتهم .

أولا : بواعث الحركة وأهدافها :

من المتفق عليه حتى في مصادر الاسماعيلية أنفسهم مثل رسائل أخوان الصفا انهم أحسوا لرؤسائهم تأويل الكتب السماوية فخرجوا بهذا التأويل عن عقيدة الإسلام بدعوى أن للشريعة ظاهرا وباطنا وأن الباطن الحقيقي لا يعرفه الا الامام الذي يفيض الله عليه نور المعرفة فتتكشف له الحقائق وتنتج عن ذلك استطاعة الامام التصرف في العقيدة كما يشاء ، وهذا دليل على أنها لم تكن حركة اصلاحية اجتماعية تبغى التنظيم الاقتصادي داخل الاطار الاسلامي بل هي عبارة عن خروج على العقيدة بدافع العداء لها ، غذتها خصومه اليهود والشعوبية وغيرهم .

لهي في حقيقتها لم تكن الا حركة هدامه تحاول قلب الدولة الاسلامية عن طريق الثورات والقتال وتبديل العقيدة وما تحصيل الضرائب الا وسيلة للحصول على المال الذي تحتاج اليه الحركة .

وهناك أدلة أخرى لا مود الاطلاعه مذكورها غير أنه يكفيننا معرفة النتائج التي أسفرت عنها اذ لما استقرت الحركة في مصر أسس لها الجامع الازهر لبث آراء الباطنية واستمرت حكومتهم حتى أيام الحاكم بأمر الله الذي أدعى الألوهية . والقارىء للتاريخ بوعى يرى المظالم والانتهاكات ومظاهر التعسف وشها موضح عكس من يحوره الاخذين بالتفسير المادى النرجع كما يذكر . واقعه اقتلاع الحجر الاسود وقتل الحجيج بالحرم ثم أسلموا . ولا غوب أيضا أن حركة الاغتيالات على يد حسن الصباح

بلغت ذروتها ضد السلاجقة وكانوا السد المنيع في مواجهة الحروب الصليبية .

ثانيا : وسائل التنفيذ .

من الحديث عن الحسن بن الصباح اتضحت خدائوته بين الدعاة مما تجاسر عليه من أعمال القتل والاغتيال وقد وصفه أحد المؤرخين للماسونية، أنه ليس هناك من يجهل اسم الأستاذ الأكبر الرقيب لما سماه بالماسونية الاسلامية. الذي يعرف على وجه الخصوص باسم «شيخ الجبل» حيث قسم المريدين والاتباع الى طبقات منها طبقة الرفقاء وطبقة الدعاة ، أو المرشدين وهم يقابلون الاساتذة في درجات الماسونية والطبقة الثالثة تتألف من جماعة الفدائيين الذين أعدوا اعدادا خاصا للتضحية بأنفسهم في سبيل الجماعة وهم يشبهون أمثالهم أيضا في بعض الجماعات الماسونية الغربية وقد استخدموا نفس الاساليب لبث الرعب في نفوس كل من يقف ازاء الدعوة الباطنية .

وأما التفسير الاسلامي الصحيح كما ورد في كتب السنن والسلف ، أن تسليط القرامطة — أى الباطنية — فأنسا كان عقوبة بسبب ذنوب الناس، فأخذوا الحجر والباب وقتلوا الحجاج وسلبوهم أموالهم .

يقول ابن رجب (ولم يتمكنوا من منع الناس من حجه بالكلية ، ولا قدروا على هدمه بالكلية كما كان أصحاب الفيل يقصدونه ، ثم أذلهم الله بعد ذلك وخذلهم وهتك أشعارهم ، والبيت المعظم باق على حاله من التعظيم والزيارة والحج والاعتماد والصلاة) .

وعلى بعد ذلك ما فعلوه من أخافة حج العراق حتى انقطعوا بعض السنتين ثم عادوا ، علله بأن الله تعالى لم يزل يمتحن عباده المؤمنين بما يشاء من المحس ، ولكن دينه قائم محفوظ لا يزال تقوم به أمة من أمة محمد ﷺ ،

لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ؛ أى لا بد أن يبقى من أمتهم من يقوم بهذا الدين .

ومعلوم أنه يستند الى حديث نبوى صحيح بهذا المعنى (٦٩) .

كذلك الآية فى قول الله تعالى (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ٣٢ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ٣٣) التوبة .

وابن رجب (٧٠) يعبر بتفسيره بهذه الآية وذاك الحديث عن علماء السلف والسنة ، فان طاعة الامة لربها عز وجل ورسوله ﷺ هو أساس العز والسؤدد ، وبالعكس فان المعاصى والذنوب تورث الهزائم والمحن وانتصار الاعداء ، وكان الباطنية من أقوى الاعداء وأشدّهم على المسلمين ، وليسوا دعاة عدالة اجتماعية أو تطبيقات اشتراكية ..

وللقارىء فكرة عامة عن تفسير أحد علماء السلف للأحداث التاريخية فمن وجهة النظر الاسلامية :

فكرة عن تفسير ابن تيمية للتاريخ (٧١) :

(٦٩) روى البخارى فى صحيحه عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما . قال رسول الله ﷺ : من يرد الله خيرا يفتهقه فى الدين ، والله المعطى وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الامة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون) .

(٧٠) ابن رجب (متوفى ٧٩٥ هـ) : لطائف المعارف فيها لمواسم العام من الوظائف ص ٩٧ ط مكتبة الرياض الحديثة — الرياض .
نسخة مصورة عن مطبعة دار احباء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٤٣ هـ بتصحيح محمد الزهرى العمراوى .

(٧١) سبق ان عرضنا لنفس المصنوع كتابا قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى ، ص ١٢٥—١٢٩ وقد اعدناه هذا لاتساق الغرض باعتبار ابن تيمية ممثلا عن الاتجاه السلفى .

كثيرا ما يتوقف الباحث عند النظرات العميقة لابن تيمية في تاريخ الامم السالفة . وفي نظرقنا بعة من مقارنة بين الامم أصحاب الرسالات وغيرها التى لم يبعث فيها أنبياء ، وبلغتنا المعاصرة ، وفي ضوء دراستنا لفلسفة التاريخ ، قد لا يصبح من قبيل التسرع فى الحكم ، القول بأنه صاحب نظرة تفيد أن التاريخ سجل لاعمال الإنبياء والرسول ، وأن الحضارات من صنعهم ، وبقدر الاقتراب أو الابتعاد من تنفيذ الرسالات السماوية التى نيطت بهم ، تنهض الحضارات الإنسانية أو تندثر . بل تتحقق سعادة البشر أو تشقى (والله سبحانه يثبت وجود جنس الانبياء ابتداء فى السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس ، وسعادة من اتبعه وشقاوة من خالفه) (٧٢) ، وتوجه عز وجل للمكذبين بالرسول بمثل قوله (أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

والامم — حسب تقسيمه — نوعان : نوع لهم كتاب منزل من عند الله تعالى كاليهود والنصارى ، ونوع لا كتاب لهم كاليهن واليسوتان والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ ، وقد بعث ابراهيم عليه السلام الى الروم المصابتة الذين عاشوا بمقدونيا وغيرها ، فان من آثار المصابتة بحران الهياكل التى لليلة الاولى والعقل والنفس والكواكب ، فان هذا ليس من دين اليهود والنصارى ولا فارس والروم المنتصرة (٧٣) وكثيرا ما يرى أن هناك علاقة بين فلاسفة اليونان وبين عبدة الكواكب لانهم يعظمون الافلاك ، كما سمحت له قراءاته فى التاريخ تصحيح الخطأ الذى كان شائعا عن اسكندر

(٧٢) النبوات ص ٢٧ .

(٧٣) الجواب الصحيح : ليدن ج١ ص ٩٩ والاستغاثة ج٢ ص ٢٠٤-٢٠٥ .

ذى القرنين الوارد بالقرآن الحكيم ، اذ ظن البعض أنه اسكندر المقدونى
يتلمذ أرسطوطاليس .

ان مسار التاريخ يمضى على أقدام الانبياء والرسل ، فهم رسل الله
الى البشرية خصهم بآيات ودلائل ومعجزات ، ويسر معرفتهم على خلقه ،
بل ان طريق معرفة الانبياء كطريق معرفة نوع من الاديان خصهم الله
بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء
والفقهاء ، مثال ذلك من رأى نحو سيبويه ، وطب أبقراط ، وفقه الأئمة
الأربعة نحوهم ، كان اقراره بذلك من أبين الامور . ومن هنا قرب الله تعالى
فى القرآن أمر النبوة واثبات جنسها بما وقع فى العالم من قصة نوح وقومه ،
وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى
وغيرهم (٧٤) .

كما يحدثنا القرآن أن كل أمة قد جاءها رسول ، قال تعالى (ولقد بعثنا
فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله
ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين) ١١٩ البقرة (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) ٢٤ طاهر (وان
من أمة ألا خلا فيها نذير) (٧٥) والانبياء وسائط بين الله وبين عباده فى تبليغ
أمره ونهيه ووعدده ووعيدة (٧٦) وقد بعثوا صلوات الله عليهم بتحصيل
المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفسد وتقليلها ، فأصبح أتباع الرسل أكمل
الناس ، وعلى العكس من ذلك ، فان المكذبين للرسل يتبعون المفسد
ويعطلون المصالح (٧٧) .

(٧٤) النبوات ص ٢٦—٢٧ .

(٧٥) النبوات ص ٢٥ .

(٧٦) طريق الوصول ص ١٤٠ .

ويقرر ابن تيمية أن السعادة اذن في اتباع الانبياء والمرسل ومناهجهم أدعى الى الاقناع ومخالفة الكافة ودليله على ذلك أن البشرية لم تنقطع صلتها بالانبياء على طول تاريخها ، مع توافر أخبارها ، غصار ظهور الانبياء مما تؤرخ به الحوادث في العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة ، فإن التاريخ يكون بالحوادث المشهور الذي يشترك الناس فيه ليعرفوا به حكم ماضي قبله وبعده (٧٨) .

أما اذا قارن بين الانبياء والفلاسفة ، فإنه يرى أن منهج الانبياء قائم على أمر البشر بما فيه صلاحهم ونهيهم عما فيه فسادهم ، سالكين في ذلك أقرب الطرق فلا يشغلونها بالكلام في أسباب الكائنات كما تفعل الفلاسفة ، فإن منهج هؤلاء كثير التعب قليل الفائدة ، أو مسوجب الضرر . ويشرب مثلاً على ذلك ، فيذكر أن مثل النبي ﷺ مثل طبيب زار مريضاً فبرأى مرضه فغذله على شرب دواء معين وأمره بنظام خاص في الطعام والشراب فأطاع المريض فشفى ، ولكن الفيلسوف يسلك طريقاً طويلاً ، إذ يتكلم في سبب للمرض . وصفته ، وذمه ، وذم ما أوجبه ولو سأل المريض عما يشفيه ، عجز عن الاجابة (٧٩) .

ويمثل هذه القاعدة ، ينتقل الى النظر الى تاريخ المسلمين خاصة ، فيبين ابن تيمية على أن اتباع محمد ﷺ أدعى للعلم والتوحيد والسعادة . ويعنى بذلك المقارنة بين الصحابة والتابعين لهم ، وبين المتكلمين وفلاسفة المسلمين ، ويقف أمام الاحداث التاريخية فيعللها بسبب مخالفة الأصول الاسلامية في القرآن والحديث ، فيرى أن انقراض دولة بنى أمية كانت

(٧٧) نقض المنطق ص ٦٨ .

(٧٨) نقض المنطق : ص ١٥—١٤٦٤ .

(٧٩) نفس المصدر ص ١٣٦—١٣٧ .

بسبب الجعد من درهم والجهنم ابن صفوان ، الى جانب أسباب أخرى .
أوجبت أدبارها (٨٠) .

وربما يعنى بذلك أن العقيدة عندما خمدت في النفوس وفقدت غايليتها
عما كانت لدى المسلمين ، ظهر الضعف في الامة ، اذ تحولت العقيدة المراسخة
من قوة محركة ناجمة عن اقتناع عقلى و يقين قلبى ، الى مجرد أفكار جدلية
تتطاول الى الحديث عن الذات الالهية ، ففقدت القلوب الهيبة . ولما
تضاءلت العقيدة في النفوس وأصابها الوهن ، وتحولت الى مناقشات وجدل
كلامى وفلسفى ، وظهر النفاق والبدع والفجور ، هان المسلمون على
أعدائهم ، غزى الصليبيون أراضى الاسلام واستولوا على بيت المقدس
في أواخر المائة الرابعة (٨١) وكذلك بالنسبة لحروب التتار، حتى رأى البعض أن
هولاكو ملك التتار بمثابة بختنصر لبنى اسرائيل ، مستنديين الى تفسير سورة
بنى اسرائيل التى توعدهم الله تعالى اذا أفسدوا في الارض (٨٢) .

ويمضى شيخ الاسلام في تفسير الاحداث التاريخية ونقلا لهذه
القاعدة . فيذكر أن محنة خلق القرآن كانت بداية لتشجيع القرامطة
الباطنية في اظهار آرائهم . بعد ترجمة كتب الفلاسفة ولما رأت الفلاسفة
أن القول المنسوب الى الرسول ﷺ وأهل بيته هو القول الذى يقوله
المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا أن هذا القول الذى يقولونه فاسد من
جهة العقل ، طمعوا في تغيير الملة ، فمنهم من أظهر انكار الصانع ، وأظهر
الكفر الصريح ، وقتلوا المسلمين ، وأخذ قرامطة البصريين الحجر
الاسود (٨٣) ، ولم يقتصر الامر على انتصار الخصوم في مجال الحروب

(٨٠) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٢٢ — ط السنة المحمدية بالقاهرة .

(٨١) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٨٢) نفس المصدر ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٨٣) شرح حديث النزول ص ١٧٣ — ط المكتب الاسلامى ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

يفحص ، بل اشتد المخطب الى مجال الفكر والعقيدة ، لان مفتاح باب القياس في العقائيات بواسطة المتكلمين ، شجع الزنادقة على المضي في تنفيذ مخططاتهم ، فانتهى بالقرامطة الى ابطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال : اللهم رئيسهم بالشام . لقد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة (٨٤) .

وقبل الانتهاء من هذه اللوحة اسوقف ابن تيمية من التاريخ ، فاننا نعجب من تفاؤله بينما كان في وسط ظروف حالكة الظلام ، ومع هذا فانه يقدم تفسيراً للحديث (ان الله يبعث لهذه الامة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ، فالتجديد انما يكون بعد الدروس ، وذلك هو غربة الاسلام ، ثم يحاول ادخال الطمأنينة على القلوب بقوله (وهذا الحديث يفتيد المستلم بأنه لا يعتمد بقلة من يعرف حقيقة الاسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون في شك من دين الاسلام ، كما كان الامر حين بدأ ، قال تعالى : (ان كنت في شك مما أنزلناه اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) (الى غير ذلك من الايات والبراهين الدالة على صحة الاسلام) (٨٥) ، ولكنه في الوقت نفسه يحذر من مخالفة الاوامر الالهية ، لان الذنوب تورث الهزائم والكوارث للمسلمين : كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد ، ويعال المقصود بقصص بنى اسرائيل في القرآن اقتضاؤهم عبرة لنا ، مستشهدا ببعض السلف القائلين (ان بنى اسرائيل ذهبوا ، وانما يعنى أنتم) ومن الامثال السائرة (اياك أعنى واسمعى يا جارة) .

وهكذا يعود بنا الى نفس الاصل يفسر به التاريخ .

ونقطة الخلاف الرئيسية بين التفسير الاسلامي والتفسير المادى

(٨٤) نفس المصدر ص ١٦٩ (وينظر ايضا ص ١٦٣ و ١٦٥) .

(٨٥) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج ١٨ ص ٢٩٨-٢٩٩ ط الرياض .

للتاريخ ، ان علماء المسلمين أخضعوا تفسيرهم للسنة الالهية كما وردت في القرآن الحكيم ، بينما يرى الماديون اخضاع حوادث التاريخ الى القوانين التاريخية وفلسفة الصراع بين الطبقات .

ويظهر بوضوح الفرق بين المنهجين :

(فان الماركسية تعتبر أن للحدث التاريخي مغزى واحدا وهو المغزى المادي البحث ، بينما يرى الاسلام للحدث التاريخي مغزيين أحدهما مادي أي دنيوي والاخر معنوي أي أخروي) (٨٦) .

مع العلم بأن النهضة الاسلامية المعاصرة قدمت الكثير من البحوث المستفيضة في مجال التفسير الاسلامي للتاريخ وهي تضع أصولا للبحث والتفسير التاريخي للاحداث التي مرت بالامة بحيث ينبغي على أي دارس في هذا الصدد أن يطلع عليها والا سيقع في نتائج خاطئة ويجاني الروح العلمية التي تلزمه بالاطلاع على وجهات النظر المختلفة في الموضوع الذي يبحثه (٨٧) .

(٨٦) الاستاذ عبد المعنى سعيد في رده على صاحب كتاب (الحركات المرية في الاسلام وهو ملحق بنفس الكتاب ص ٢٤٤) .

(٨٧) ونقترح الاطلاع على كتب العلماء المعاصرين الذين كتبوا في التفسير التاريخي الاسلامي ملتزمين بالموقف السلفي بأبعاده الثلاث : أي أولا : من حيث النظر الى العقيدة السلفية خالية من البدع وثانيا : أعمال المسلمين ومدى التزامهم بشرع الله تعالى وإقامة العدل الذي أقام به السموات والارض وأمر بالحكم به ، وأخيرا : موقف الامم الاخرى في السلم والحرب من الامة الاسلامية . كل هذا مع استلزام الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي أكدت وجود سنة الهية تحكم المجتمعات والامم كما تحكم مخلوقاته الكونية .

وبتطبيق هذا المنهج — دون غيره — سيظل الباحث باذن الله وعونه الى استجلاء النتائج الاقرب الى الصواب .

واذا كان هدفنا (التفسير التاريخي) استخدم نتائجه والدروس المستفادة منه في بناء المستقبل والارتقاء بالاجيال الجديدة بناء على التربية المعتمدة على التوجيه العلمي وأهم مقرراته الانتفاع بالدلة .

اما رؤية التاريخ الاسلامى من احدى زوايا فلاسفة الغرب فسيبعد بنا عن التفسير الصحيح ، فضلا عن مجافاة هذه الخطة للروح العلمية ومنهج البحث الذى يشترط مراعاة اختلاف الامم فى عقائدها ومواقفها الجغرافية واحداثها التاريخية وعوامل نهوضها وكبوتها . . الخ .

رد ولنلقى نظرة الان الى هذه (القوالب) الغربية لكى نزداد اقتناعا بما نريد ايضاحه .

يقول هيوج . اتكن :

وبينما يقترب المؤرخ من دراسة التغير ، يجد مجموعة كبيرة من الانكار العامة عن موضوعه . فهناك ، اولا ، الحقيقة البديهية التى تقول ان المجتمع يتغير تبعض الشئ باستمرار ، حتى ولو اقتصرت التغير على تحديد اعضائه بسبب المواليد والوفيات . ومن هنا يمكن القول بان التغير اصيل فى المجتمع .

ثانيا : سواء من حيث الحيلولة دونه او زيادته ، هم اعظم ما تعنى به البشرية . وعلى هذا فان التغير هو هدف غالبية السياسات الخاصة والعامة اى هدف محاولات الانسان للتحكم فيما يحدث وتنظيمه .

ينظر كتاب (دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية) هيوج اتكن ترجمة د. محمود زايد تقديم د. قسطنطين زريق ص ١٢١ دار العلم للملايين — بيروت سنة ١٩٦٣ م .

وقد نجد هذه التصورات قبولا مباشرا لدى المؤرخ . اما فيما يخص بتفسير سبب التغير وكيفية حدوثه فان العالم يواجه صعوبات اكثر خطورة . ذلك انه يجد هنا نظريات كثيرة تستهويه . فاذا سبق له ان درس كتاب ارنولد ج . توينبى (دراسة التاريخ) (١٩٣٤ — ١٩٣٩) فقد يكون قد اعجب بالازدواجية التى يعتمدها المؤلف بين (التحدى والاستجابة) و (الانسحاب والعودة) او يكون قد اخذ بسحر كتاب (انحطاط الغرب — ١٩٢٦ — ١٩٢٨) لازملا شنبجلر ، واستحالته مقارنة المؤلف للمجتمع بالجسم الحى — اى بشئ

يولد ، ويصبح شابا قويا ، ثم ينضج ، واخيرا يموت . او يكون تسد اعجب
بالتحليل الماركسي فيسعى الى تفسير التغير بالدرجة الاولى على اساس
الصراع بين الطبقات الاقتصادية — الاجتماعية ، ونظرية العمل في القيمة .

او يكون قد استمد من مونتسكيو وبكلى وهنتجن الاعتقاد بانه ينبغي
البحث عن مصدر التغير في تعاقب الاحوال الجغرافية والمناخية . وقد
يكون سبق له ان تأثر بالقاتلين بالتطور الاجتماعى ، مثل هربرت سبنسر وكون
رايا محواه ان التغير يحدث بسبب الصراع التى تكتب الحياة فيه (للاملاح) من
المؤسسات الاجتماعية والثقافية . او قد يكون استمد من احسدى الفلسفات
اللاهوتية الايمان بقوة خارقة تقرر ما يحدث على الارض من تغير . نفسه ص ١٢٢
فباى هذه الفلسفات نأخذ عند النظر الى تاريخنا ؟

لاول وهلة يبدو اختيار التفسير الماركسي تحيزا غير مقبول فى البحث
العلمى .

هذا ، وقد اجتهدنا مستعينين بالله تعالى فى الفصل الاخير من هذا الكتاب
الى محاولة وضع ضوابط للتقدم او التغير الذى يتحدثون عنه فى الغرب ويعلقونه
على الزمن او القيم الاقتصادية .

والتعليق الاخير لنا على النص المتقدم هو التحفظ فى قبول رايه عن
الفلسفة اللاهوتية التى تؤمن بقوة خارقة تقرر ما يحدث على الارض من تغير ،
ولا شك ان المؤلف يعبر عن النظرة الدينية فى الغرب ، وربما هو متأثر ايضا
بعقيدة القضاء والقدر .

ويجب هنا تصحيح النظرة وفقا للتفسير الاسلامى الذى يأخذ فى الاعتبار
عاملين اساسيين :

الاول : ان (الابتلاء والاختبار) من السفن الماضية على الاتمسك
لا يمكن رفعها من واقع الحياة ، اى الحكمة الرئيسية من خلق الانسان .

الثاني : مرتب على الاول فان الابتلاء والاختبار يقتضي منح الانسان حرية الاختيار وهي الامانة الكبرى ومناط المسؤولية والتكليف بها يكون النجاة، ويكون الهلاك يوم يعود ليحاسب عن تلك الحرية من خالقه — عز وجل — فاما الوفاء بتلك الامانة واما الهلاك . ينظر كتاب الاستاذ ابراهيم بن علي الوزير : على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ص ٦٨—٩٦

دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر دار الشروق ١٣٩٩ هـ — ١٤٧٩ م .
ومن المؤلفات التي نعتها :

— كتاب العلامة الشيخ السيد ابي الحسن علي الحسيني الندوي بعنوان :
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين وقد صدر في عدة طبعات .

— كتاب الاستاذ الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ
ط دار العلم للملايين — بيروت الطبعة الثانية — فبراير سنة ١٩٧٨ .

— كتاب الاستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان : التاريخ الاسلامي ..

والمذهب المسادي في التفسير — الدار الكويتية ١٩٦٩م

— كتاب الاستاذ ابراهيم بن علي الوزير : على مشارف القرن الخامس

عشر الهجري (دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر) .

دار الشروق ١٣٩٩ هـ — ١٤٧٩ م .

وغيرها كثير — فضلا عن المقالات والابحاث في الموضوع نفسه .

ثانيا : البابية والبهائية

١ — البابية :

تحدثنا فيما تقدم عن الانحرافات العقائدية التي ابتدعها الباطنية وأنسلخوا بها عن الاسلام الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ — وقلناه عنه سلف الامة ومن تابعهم باحسان : انسلخوا عن الاسلام بحقائق باطلة كالقول بأن النبوة لم تنقطع ، وادعاء بعض الدجاجة النبوة مع التأويل العالي بزعم أن الشريعة لها ظاهر وباطن .

وها نحن مرة أخرى أمام فرع من فروع النحل الباطنية المتصلة بأسلافها عقائديا وتاريخيا ، ولكنه ظهرت في العصر الحديث تحمل نفس الافكار وتلبس نفس النياب لتشبههم بدورها في اضعاف شوكة المسلمين ببعث النحل والعقائد الخارجية عن الملة ، وتضم الى صفوفها المناهقين والحاقدين ليؤدوا دور الطابور الخامس^(١) في المجتمعات الاسلامية افسادا وهودما .

(١) ولله دار ابن الجوزي الذي اجاد في التحليل النفسي لاتباع الباطنية عموما : وحصرهم في الاصناف الاتية :

- أ — منهم قوم ضعفت عقولهم وغلبت عليهم البلادة والجهل .
- ب — طائفة انقطعت دولة أسلافهم بظهور دولة الاسلام كائناء الاكاسرة واولاد المجوسى . فهؤلاء مورتورون استكن الحقد في قلوبهم .
- ج — ومن اتباعهم قوم لهم تطلع الى التسلط والاستيلاء وحب الرئاسة ولكن حالت دونهم العقبات فراوا في اتباع هذه المذاهب تحقيق غاياتهم .
- د — ومنهم قوم جعلوا على حب التمييز عن 'العوام' فيزعموا أنهم يطلبون الحقائق .

هـ — ومن اتباعهم ملاحدة الفلاسفة الذين مالوا الى عاجل اللذات ولم يكن لهم علم ولا دين .

(تنظر رسالة « الترامطة » للامام ابن الجوزي ص ٦٦ — ٦٨ تحقيق الدكتور الصباغ — طبع المكتب الاسلامى) .

وقد مر بنا أن الباطنية يعرفون بأسماء عدة ، ولكي يعرفهم المسلم المعاصر ويستدل عليهم ينبغي أن يعرف أسماءهم في بلاد العالم الاسلامى اليوم :

ان الباطنية اليوم — كما يذكر الدكتور الذهبى — رحمه الله تعالى — يوجدون بالهند ويعرفون بالبهرة أو الاسماعيلية ، وزعيمهم الان كريم خان حفيد آغا خان الزعيم الاسماعيلى المعروف . ويوجدون في بلاد الاكراد ويعرفون بالعلوية حيث يقولون : على هو الله (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) ، وفي تركيا ويعرفون (بالبكداشية) ، ويوجدون في ايران (٢) ويعرفون (بالبابية) ، وفي فلسطين ويعرفون (بالبهائية) ، ومنهم جماعات في بلاد متفرقة ، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هي القاديانية ، وهي أحدث مرقهم عهدا ، وأقربهم ظهورا (٣) .

وقبل التطرق الى التعريف بالبابية وعرض عقائدهم ، ينبغى التنويه بأنهم في حقيقة الامر طائفة واحدة نسبت إلى زعيمها الأول فليل لها (بابية) ونسبت إلى زعيمها الثانى ، فليل لها بهائية كما سيأتى :

وحركات الباطنية تكاد تكون حلقات سلسلة لا تنقطع بدأت بالسبئية وظهرت في شكلها المعاصر في مذهبى البابية والبهائية .

وكنا عند الحديث عن أبى منصور العجلى قد بينا أنه فتح الباب للاسماعيلية في الماضى ثم للبابية والبهائية في العصر الحديث للادعاء بأن النبوة لا تنقطع أبدا ، بل هي متجددة دائما .

(٢) د. الذهبى : التفسير والمفسرون ج٢ ص ٢٥٣ .

(٣) وقد أعلن أخيرا أن الحكومة هناك حظرت جميع أنشطة البهائيين واعدمت منهم ١٤٢ شخصا (الأهرام في ١٥-٩-٨٣ .

(٤) الذهبى : نفس المصدر والصفحة تعلية ٣

وتنسب البابية الى شخص يدعى محمد على الشيرازى (١٢٣٦ هـ — ١٨٢١ م — ١٢٦٦ هـ — ١٨٥٠ م) .

ولد عام ١٢٣٦ هـ وتوفى والده وهو صغير ، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ سن الرشد فشرع يشتغل بتجارة والده ، ولكنه منذ نعومة أظفاره شغل بالبحث فى الامور الاعتقادية متظاهرا بالزهد والنسك ، ولقى هناك بعض المنتسبين للطريقة الشيعية^(٥) — وهم طائفة من الشيعة أتباع الشيخ أحمد زين الدين الاحسائى — ولما عاد الى شيراز ، شرع يقرأ فى المساجد ويجادل علماء الدين ، ويثير الخلافات معهم ويدعو الى مذهبه .

ثم أعلن أنه (باب المهدى) المنتظر^(٦) ، وأنه المراد من الحديث (أنا

(٥) نسبة الى الشيخ احمد الاحسائى الذى ولد سنة ١١٦٦ هـ — ١٧٥٣ م ، والذى أسس طريقة فى مذهب الشيعة الامامية سميت فيها بعد بالشيخية .
والشيخية يقولون : ان الحقيقة المصدية تجلت فى الانبياء — عليهم السلام — قبل محمد ﷺ تجليا ضعيفا ، ثم تجلت تجليا اقوى فى محمد ﷺ — والائمة الاثنى عشرية ، ثم اختفت زهاء الف سنة ، وتجلت فى الشيخ احمد الاحسائى ، والسيد كاظم الرشتى ، ثم تجلت فى كريم خان الكرمانى وأولاده الى أبى قاسم خان ، وهذا التجلى هو أعظم التجليات لله تعالى ، والانبياء والائمة .

د. محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ص ٥٥ ط المكتب الاسلامى ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

وينظر ايضا كتاب الاستاذ عبيد الرحمن الوكيل — البهائية تاريخها وعقيدتها ص ٧٣ — ٧٤ مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .
(٦) يقول الامير شكيب أرسلان : ولقطة الباب متداولة كثيرا عند الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونها على بعض أركان دعوتهم بمعنى انهم هم واسطة الدخول ، وسبب الوصول . . والباب هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد فى داخل البناء من البدائع والفنائس وخررات الانفس ، مما كان يبقى مجهولا عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب ، غالباً عند المتصوفة وعند هذه التحل ، هو رمز الدخول ، والابتداء ، والواسطة واللمس والمعرفة ، وجميع انواع المقاصد العالية ، وقد شاع استعمال لفظة (الباب)

مدينة العلم وعلى بابها) وأدعى أن العناية الالهية أرسلته لاصلاح ما أفسده علماء المسلمين لانهم اقتصروا في رأيه على ظاهر الشريعة فحسب ، مع العلم بأن الحديث موضوع •

واستطاع بذكائه وسعة حيلته وطلاوة عبارته أن يستغل بعض الدهماء وضعفاء النفوس من المثقفين ويجعلهم يصدقونه في زعمه أنه باب المهدي •

ولما انتشرت تعاليم الباب كثرت الفتن والمنازعات بين الناس ، فرأت الحكومة الفارسية حينذاك استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا الدفاع عن أنفسهم بالسلاح ، ثم دارت معارك كثيرة ، وقبض عليه وقدم للمحاكمة •

وفي أول الامر عقدت له جلسة بواسطة العلماء لامتحانه والحكم عليه أو عليه ، فأعلن لهم كتابه (البيان) مفضلا اياه على القرآن الكريم ، فأفتى بعضهم بكفر بعد الاطلاع على عقيدته المكتوبة بخطه ، وقال آخرون نحل عقله ، وعته وأجاز تعزيزه (٧) •

وقد أدخله حاكم شيراز السجن ولكنه تمكن من الفرار ، ثم قبض

.. (فالباب العالي) هو مكان الوزارة ، لانها هي الواسطة بين الراعى والمرعية ، والكتاب يتسمونه الى ابواب ، ويقولون ابواب الرزق وقولهم (يا مفتاح الابواب) يعنون به يا ميسر الاسباب .. ولكن لم يشهرها احد بمثل ما شهرها به على محمد الشيرازي ، الذي سمي نفسه (الباب) بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية وتبعه أناس تلقبوا من اجله بالبابية •

شكيب ارسلان : تعليقه بكتاب حاضر العالم الاسلامي ج٤ ص ٣٥١ دار

الفكر ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م •

(٧) ينظر تفاصيل محاكمته بمقالة الاستاذ محمد كرد علي (البابية) بكتاب :

دراسات عن البهائية والبنية ص ١١٠ — ١١٨ المكتب الاسلامي ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

عليه مرة أخرى وأعيدت محاكمته بواسطة العلماء ، وانتهى الامر باعدامه رميا بالرصاص في ١٢٦٦هـ (يوليو ١٨٥٠م) (٨) .

عقيدة الباب وتعاليمه :

زعم الباب أن الانبياء — عليهم السلام — تنقضى شرائعهم بموت كل واحد منهم وبذلك ينتهى دوره ، وادعى أنه جاء بعد محمد — ﷺ — بديانة وشريعة جديدة ، وهى فى حقيقتها لا تمت الى الاسلام بصلة .

(أ) أعلن أنه الممثل الحقيقى لكل الانبياء والسابقين وأنه تتجمع فيه كل الرسالات الالهية ، وأنه لهذا يلتقى عنده كل أهل الديانات ، هفى البابية ، تلتقى اليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا غارق بينها .

(ب) عدم اعتباره نبينا محمدا ﷺ آخر الرسل والانبياء ، فقد أعلن ان الله تعالى قد حل فيه — تعالى الله عما يقول علوا كبيرا وأنه سيحل فى آخرين من بعده (٩) .

(ج) أسس العقيدة والعبادات فى الغالب على العدد (١٩) ، فحسب

(٨) وقد تدخلت الحكومة القيصرية عن طريق قنصليتها فى طهران تدخلًا مباشرًا لانتقاذ الباب من الاعداد مما كشف الستار على أنه صفيعتها ، ولكن بعد فوات الاوان . وبلغت الدكتور محسن عبد الحميد النظر فى كتابه القيم عن البابية والبهائية الى ظاهرة تثير التأمل وهى دخول عدد ضخم من اليهود فى هذه الحركة تحت شعار (وحدة الاديان والانسانية) . وقد كتب مفصلا عن البهائية واليهودية العالمية) — ينظر ص ١٢٧ من كتابه .

(٩) الشيخ محمد أبو زهرة : المذاهب الاسلامية ص ٣٥٩ (الالف كتاب — العدد ١٧٧ باشراف وزارة التربية والتعليم بمصر .
وقد أوضح الشيخ — رحمه الله تعالى — عند تناوله لفظة البهائية فى هذا الكتاب ، انها خارجة عن المبادئ الاسلامية التى أجمع عليها المسلمون ، والتى تعتبر المقومات الحقيقية لهذا الدين الحكيم ص ٣٥٧ .

السنة الى (١٩ شهرا) كل شهر منها ١٩ يوما ، وجعل عدد كل فرقة من الفرق التابعة للمذهب ١٩ شخصا •

(د) وفي النظام المالى جعل الضريبة بمقدار الخمس • ورفع عن أتباعه كافة العقوبات ما عدا الغرامة والطلاق مكروه وليس بمحرم ، وأعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا ، ويمكنهما استئناف حياتهما الزوجية بعد شهر من الطلاق ، وذلك الى حد تسع عشرة مرة (١٠) •

(هـ) ويجب الصيام كل عام لمدة ١٩ يوما من شروق الشمس الى غروبها ، والوضوء مستحب وليس بفرض ويجوز رؤية جميع النساء بغير حجاب أو نقاب ، والكلام معهن بدون حرج الا أنه لابد من الاقتصاد والحشمة فى الكلام معهن (١١) •

وسن لاتباعه أن لا يصلوا الى الكعبة وأن يتوجهوا فى صلاتهم حيث يدفن • وقد نقل خليفته جثته سرا الى قبر بناء له بعكا بأرض فلسطين وجعل عليه مشهدا كبيرا ، وأصبح كعبة لطائفته يحجرون اليه بدل البيت العتيق ••

٢ — البهائية :

أما البهائية فهى امتداد للفرقة السابقة وتنسب الى أحد تلاميذ الباب وهو المدعو الميرزا حسين على المازندارى الملقب ببهاء الله المولود سنة

(١٠) وواضح من الاعتماد على الارقام تأثير فلسفة (فيثاغورث) ، حيث يرى استاذنا الدكتور النشار — رحمه الله — ان الفيثاغورية الجديدة وجدت لها مكانا ممتازا فى آراء البهائية — وهى فرقة شيعية غالية متأخرة — انفصلت عن الشيعة الاثنى عشرية مؤخرا ، ثم عن الاسلام كله . (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج١ ص ١٤٩ دار المعارف سنة ١٩٧١م) •
(١١) الامير شكيب ارسلان : حاض العالم الاسلامى ج٤ ص ٣٥٣ •

١٢٣٣هـ واليه تنسب البهائية ، وكانت طريقته في الدعوة الى نحلته الباطلة قائمة على عدة طرق لخداع أتباعه : منها محاولة اسباغ هالة من الهيبة والعظمة على نفسه ، وذلك بعدم السماح بمقابلته الا لاشخاص معدودين . وكان هؤلاء أيضا يمرون بمراسم معقدة قبل الوصول اليه ، توقعهم حاشيته أثناءها تحت تأثير احياءات نفسية مستمرة ، ويشيرون عليهم باتباع تقاليد معينة في الدخول والجلوس والكلام والرجوع .

كذلك يحذرونهم من النظر الى وجه الميزرا حسين ، حيث كان يضع برقعا على وجهه ، ويدعى أن (بهاء الله) المتجلى في وجهه لا يرى بالابصار (١٢) .

وبتتبع مراحل دعوته الباطلة ، نجده استند أولا الى تنبؤ سلفه الباب . حيث أخبر أتباعه أثناء حياته بأن نبيا سيأتي بعده ، وسماه تارة (الرجل الموعود) وتارة (من يظهره الله) .

زعم أولا انه هو هذا الرجل فادعى النبوة ثم ادعى الألوهية .

ولما هلك البهاء سنة ١٣٠٩ هـ ودفن بمكا قام ابنه عباس بعده بالامر ولقب نفسه بعبد البهاء ، فقدس البهائيون وعبدوه كما فعلوا مع أبيه .

وكان أكثر خداعا من أبيه اذ دأب على ايهام كل ملة أنه من أبنائهم وسلك أتباعه هذا المسلك الخادع : ففي الشرق يصلون مع المسلمين مظهرين الاسلام مبطنين الكفر ، ولكنهم في أمريكا مثلا يجهرون بعقيدتهم لا يخشون حسابا ولا نقدا . حيث أقاموا مؤسسات لهم هناك وانتشرت معابدهم واتخذوا مركزا في شيكاغو ويسمون المعبد (بدار مشرق الازكار) .

(١٢) د. محسن عبد الحميد — حقيقة البابية والبهائية ص ١٤٨ — ١٥٠

ط المكتب الاسلامي ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

ولهم هناك مجلتهم المعروفة باسم (نجم الغرب) ويستمدون عونهم من اليهود هناك حيث بلغ الامر ببعض اليهود أن استخلصوا بالتأويل نصوصا من العهد القديم ، زاعمين انها بشرت بظهور عباس أفندي 'عبد البهاء' ، وأن كل آية تشير بظهور بهاء الله انما تعنى ظهور مخلص لعالم في شخص هذا البهاء (١٣) .

ومن مظاهر الانحلال في هذه النحلة ما نقرأه من آراء تنسب الى أحد كبار الاتباع وهي السيدة المسماة زرين تاج وكانت قد طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بالباب عن غيب وكانت تكتبه ويكتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك (١٤) .

ونستخلص من خطبة أعلنت فيها اباحة النساء للرجال جميعا ، وشبهت النساء بالورود والازهار التي ينبغي اقتطافها والتمتع بها والسياق العام للخطبة يومئذ يحض نساء المسلمات على الثورة والانخلاع من تعاليم الدين ونحن نرى أن زعمها انها آمنت به غيبا زعم لا يمكن تصديقه ونرجع انهما ينتميان معا الى الباب الى جمعية سرية كالماسونية مثلا رأت في جهودهما ما يخدم المخططات العدائية للإسلام (١٥) .

ولكى نعلم مدى ارتباط البهائية بالاستعمار البريطاني والصهيوني معنا حسبنا أن نعرف أنه عندما هبطت قوات الاحتلال البريطاني أرض فلسطين هتف لها عبد البهاء قائلاً ان الله خلص فلسطين من أيدي العرب

(١٣) عبد الفتاح عبد الحميد : يا مسلمي العالم اتحدوا ص ٨٤

دار الانصار بالقاهرة يوليو سنة ١٩٧٦ م .

(١٤) العقاد : الاسلام في القرن العشرين : حاضره ومستقبله ص ١٥٧ .

دار الكتاب العربي بيروت فبراير سنة ١٩٦٩ م .

(١٥) الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ٢٥٤ .

الدار السعودية بجده سنة ١٣٨٤ هـ .

لتنعود الى أصحابها — يقصد اليهود — ومكافأة له قدم له الجنرال النبي وسام الامبراطورية من طبقة سير في احتفال كبير ، ومن المعروف أن الطائفة البهائية التي تتولى شؤونهم اليوم تقيم في حيفا وتطبع كتبها لدى الحكومة الاسرائيلية التي تمدّها بالاموال والمعونات (١٦) .

وقد كشفت الاخبار أخيراً عن اجتماع للبهائيين في مؤتمر عالمي في القدس المحتلة سنة ١٩٦٨م أعلنوا فيه أن دعوتهم مستمدة من الصهيونية أساساً . كما أن التاريخ كما رأينا يثبت كيف كان لهم نشاط ابان الاحتلال الانجليزي لفلسطين . ومنه امتد الى كثير من البلاد الاسلامية والعربية وقد جدد فيهم كثير من الناس دون أن يتبينوا مدى صلّتهم بالتلمود (١٧) .

ثالثاً : القاديانية :

عندما استعمر الانجليز شبه القارة الهندية ، وبلاد العالم الاسلامي، وجد في طريقه عقبتين .

أولاهما : وحدة المسلمين الفكرية وتمسكهم الشديد بالمعتقدات الدينية والاخوة الاسلامية التي جعلت المسلمين في الشرق والغرب كجسد واحد .
والثانية : حماس المسلمين الدائم للجهاد الذي كان وبالا على الاستعمار الاوروبي . فعمد الانجليز الى تمزيق وحدة العالم الاسلامي الجغرافية — عن طريق إلغاء الخلافة الاسلامية — والفكرية عن طريق بث الفرقة بين المسلمين بابتداع نحل ومذاهب باطلة .

(١٦) عبد الله عبد الجبار . العرو الفكرى في العالم العربى ص ٣٢—٣٣

(١٧) انور الجندي . وحده الفكر الاسلامى مقدمة للوحدة الاسلامية الكبرى

ص ٧ - مطبعة دار الانعصام ١٩٧٥م .

وقد قاومت الشعوب الاسلامية الاستعمار البريطاني مقاومة شديدة في أفغانستان ومصر والسودان و (الخليج العربى) و (عدن) •

لذلك أرسلت انجلترا وفدا من المفكرين البريطانيين الزعماء في سنة ١٨٦٩م الى الهند لدراسة الوسائل والطرق التى يمكن أن تتخذ لتسخير المسلمين وحملهم على طاعة السلطة البريطانية فلما رجع الوفد قدم تقريرين وذلك في سنة ١٨٧٠م وذكر فيهما (ان أكثر المسلمين في الهند يتبعون زعمائهم الدينيين اتباع الاعمى ، فلو وجدنا شخصا يدعى انه نبي نحوارى لاجتمع حوله كثير من الناس ، ولكن ترغيب شخص كهذا أمر في غاية الصعوبة ، فان حلت هذه المسألة فمن الممكن أن ترعى ثبوت هذا الشخص بأحسن وجه تحت اشراف الحكومة . والان — ونحن مسيطرون على سائر الهند — نحتاج الى مثل هذا العمل لاثارة الفتن بين الشعب الهندى وجمهور المسلمين واضطرابهم الداخلى) (١٨) •

وليس هناك فيما نعتقد أوضح من هذه الوثيقة بيانا لدور الانجليز في ابتداء نحلة (القاديانية) كما سنرى . حيث وجدوا بغيتهم في شخص يسمى مرزا غلام أحمد القاديانى :

شخصية المرزا غلام أحمد :

ولد سنة ١٢٥٢هـ — ١٨٣٩م في بيت معروف بالولاء للانجليز حيث

(١٨) كتاب الازهر عن : موقف الامة الاسلامية من القاديانية (وثيقة تاريخية ضد القاديانية اتفق على قبولها أعضاء مجلس الامة في باكستان وبضوئها اصدر مجلس الامة الباكستاني قرارا باعتبار القاديانية اقلية غير مسلمة تاليف نخبة من علماء باكستان . من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م ص ٩٩ — ١٠١ .

تعاون كل من أبيه وأخيه مع القوات البريطانية ، وتلقى علومها في داره على يد استاذة في المنطق والحكمة والعلوم الدينية والادبية وعرف بالعكوف على المطالعة واجهاد النفس ، ثم توظف لمدة أربع سنوات ودخل اختبارا في الحقوق واخفق فيه . أما عن حالته النفسية والاخلاقية فقد كان معسروها بالغفلة وقلة الفطنة . وأصيب في شبابه بنوبات عصبية عنيفة وكان يشتغل بالعبادات والخلوات ثم منعه انحراف صحته وضعفه من مواصلة المجاهدات ومات عام ١٩٠٨م^(١٩) .

قال في أحد كتبه (قرأت في كتب سوانح آبائي ، وسمعت من أبي : ان آبائي كانوا من الجرثومة المغولية ولكن أوحى الى : انهم كانوا من بني (غارس) لا من الاقوام التركية .

ومع ذلك أخبرني ربي بأن بعض أمهاتي كن من بني الفاطمية ، ومن أهل بيت النبوة ، والله جمع فيهم نسل اسحاق واسماعيل من كمال الحكمة والمصلحة^(٢٠) .

ولم يجرؤ غلام احمد على اعلان (نبوته) دفعة واحدة ، ولكنه خطب لكيلا يفاجيء المسلمين بهذا الكذب ، فبدأ في المرحلة الاولى بدعوى الاصلاح والتجديد حيث ألف كتابه (براهين أحمدية عام ١٨٧٩م) فأعلن انه مأمور من الله تعالى لاصلاح العالم والدعوة الى الاسلام ومجدد لهذا الدين . لذلك ادعى أن له مماثلة للمسيح عليه السلام منكرها الحاجة الى نبوة جديدة .

(١٩) ابو الحسن الندوي : القادياني والقاديانية ص ١٦٤ ط دار السفودية للنشر بجدة ١٣٩١هـ — ١٩٧١م ولفظ ميرزا معناه : السيد ويلقب به الاشراف .
(٢٠) حسن عيسى عبد الظاهر : القاديانية — نشأتها وتطورها ص ٤٠ عن كتاب (الاستفتاء ص ٧٥) ط مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م

وكان في هذه المرحلة مظهرها لفضل الاسلام ومبيناً لعجاز القرآن ومثبتاً
لنبوة محمد ﷺ (٢١) .

ثم بدأ في المرحلة الثانية يستغل عقيدة المهدي المنتظر والمسيح
الموعود ، يشجعه على ذلك من وراء الستار الانجليز — كما قدمنا — وصديقه
الحكيم (الحكيم بور الدين) الذي اقترح على غلام أحمد بأن يظهر المسيح
— ويدعى أنه من المسيح الذي أخبر بنزوله — بحيث قدر الحكيم بذكائه أن
المسلمين بعد ما تأثروا بدفاع مرزا عن الاسلام واعتقدوا بغيه الولاية لكثرة
الهامات ومناماته ومبشراته يرحبون به ويخضعون له .

وقد صادف هذا الاقتراح هوى في نفس غلام أحمد فأعلن على الناس
انه المسيح المنتظر (مفسراً ظهور المسحاء في الاسلام بأنهم الاولياء ورثة
الانبياء وانه له خصائص المسيح وما سيؤديه من دور في الحياة) . وقد
انتهى في هذه المرحلة الى الزعم بأن المسيح — عليه السلام — توفي في
كشمير ودفن هنالك بعد أن هاجر اليها من فلسطين قبل ألفي سنة (٢٢) .

وفي المرحلة الثالثة والاخيرة كشف النقاب عن نواياه الخبيثة ، ولم
يعد يتذرع بحجج الالهام أو التجديد أو المهديّة والمسيحية وغيرها من
المقامات التي تحتمل التأويل ، فانتهى الى ادعاء النبوة صراحة وكتب ما نصه
(ان الروضة الانسانية كانت لا تزال ناقصة وقد تمت بأوراقها وأشعارها
بقدمه) (٢٣) .

وظهرت عمالته للانجليز سافرة عندما أعلن انه وضع الجهاد بالسيف
بأمر الله وقال (من رفع السيف بعد هذا على الكفار مسمياً نفسه غازياً فقد

(٢١) المصدر السابق ص ٦١ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٦٧—٦٩ .

(٢٣) نفسه ص ٧٦ نقلاً عن (براهين احمدية ج ٥ ص ١١٣) .

عصى رسول الله ﷺ الذى أنبأنا منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان أن يوضع الجهاد بالسيف عند ظهور المسيح الموعود فلا جهاد بالسيف عند ظهوره ، وما قد رفعنا اللواء الأبيض للصالح والامان^(٢٤) .

وليت أمر الوحي المزعوم قد خصه وحده ، بل صار الى أتباعه من بعده أيضا فادعوا كذبا أيضا أنه ينزل عليهم الوحي ، وورد في أحد منشوراتهم (أن طريق الوحي لا يمكن أن يسد في وجه الناس) وأيضا (أن المهدي والمسيح قد ظهر في الهند بمحل يقال له (قاديان) وأنه يوجد الآن آلاف من من حواربيه يستمعون الوحي الالهى)^(٢٥) .

ولكن بموت الغلام سنة ١٩٠٨م انقسم أتباعه الى فريقين :

فريق يسمى القاديانية ، وهم القائلون بنبوته .

وفريق يسمى (الاحمدية) وهم الذين يؤمنون بامامته ولا يؤمنون

بنبوته^(٢٦) .

ولكن الدراسة التى أجراها علماء الباكستان أثبتت أنه لا فرق بين عقيدة الجماعتين اذ تبين لهم ان عقائد الجماعة الاحمدية — أو اللاطورية — التى نشرها بعد سنة ١٩١٤م .

فوجدوا أن موقفهم كان محض حيلة ولا فرق حقيقيا بينهم وبين الجماعة القاديانية ، فالجماعة القاديانية تعتبر الهام المزرا حجة شرعية يجب اتباعها ويراه هؤلاء أيضا واجب الاتباع .

(٢٤) نفسه ص ٩٥ عن (الخطبة الالهية) .

(٢٥) الشيخ محمد الخضر حسين : القاديانية ص ٢١ ط مجمع البحوث

الاسلامية ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

(٢٦) العقاد : الاسلام في القرن العشرين ، حاضره ومستقبله ص ١٦٦ —

١٦٧ ط دار الكتاب العربى — بيروت فبراير ١٩٦٩م .

ويجمع بين الطائفتين عقيدتان :

١ — استعمال لفظ (النبي) على مرزا غلام أحمد القادياني •

٢ — تكفير غير الاحمديين •

رابعاً : النصيرية :

النصيرية تنسب الى (أبى شعيب محمد بن نصير النميري) عاش في القرن الثالث الهجري (توفي حوالي ٥٢٧٠) وعاصر ثلاثة من الائمة الاثنى عشر وهم على الهادي (٥٢١٤ — ٥٢٥٤) والحسن العسكري (٢٣٠ — ٥٢٦٠) ومحمد المهدي (المولود ٢٥٥) •

زعم ابن نصير انه (الباب) الى الامام الحسن و (الحجة) من بعده ، فتبعه طائفة من الشيعة سمو (النصيرية) • ولكن ابن نصير لم يكتف بذلك وإنما ادعى النبوة والرسالة ، وغلا في حق الائمة فنسبهم الى الالوهية ، ولما بلغت مقاتله الامام الحسن العسكري تبرا منه ولعنه وحذر أتباعه من هتنته (٢٧) •

وتتلخص عقيدة النصيريين بالايان بأفكار ثلاثة :

أولها : زعم النصيرية أن الله تعالى حل في على بن أبى طالب — تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا — وأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والارض •

الثانية : التناسخ — أى انتقال الروح من بدن الى بدن آخر وهبو : معنى القيامة عندهم وبذلك ينكرون البعث والثواب والعقاب في جنة أو نار والمقول بالجزاء في الدنيا وذلك اما بانتقال الروح الى بدن أسعد فتسعد

(٢٧) السيد عبد الحسين مهدي العسكري : العلويون أو النصيرية ص ٧

ط شركة الشماع للنشر — الكويت ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م •

بذلك ، واما الى بدن اشقى فتشقى بذلك وهكذا أبد الابدين فالابدان
جنتهم ونارهم (٢٨) .

الثالثة : التأويل الفاسد مدعين أن القرآن ظاهرا وباطنا وأن المراد
منه باطنه دون ظاهره وهم لا يختلفون عن غيرهم من الباطنية في عقيدتهم
فهم يستحلون الخمر من حيث القول بقدم العالم وتناسخ الارواح وأنكار
البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا وبأن الصلوات بمبارة
عن خمسة أسماء على ، وحسن ، وحسين ومحسن ، وفاطمة فذكر هذه
الاسماء الخمسة على رأيهم بجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقيّة
شروط الصلاة وواجباتها والصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلا
واسم ثلاثين امرأة ، يعدونهم في كتبهم ويدعون ألوهية على بن أبى طالب ،
فهو عندهم الامام في السماء والامام في الارض .

فكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوت على رأيهم أن يؤنس
خلقه ، ولن نطيل كثيرا في تتناول تاريخهم ولكننا نكتفى بالاستناد الى
حادث بارز ونعنى به سقوط بغداد في أيدي التتار وكان معول الهُتُهم
للخلافة العباسية على يد نصير الدين الطوسي الذي لا نستبعد بعد معرفتنا
بعقيدته وتصرفاته أن يكون منهم ، فقد ذكر ابن قيمية عن هذا المياطيني انه
سبب زوال الخلافة العباسية لانه استغل صفته كوزير للمستعصم وضرار
يكتب هولاءكو ويطمعه في ملك بغداد ويطلبه على أخبارها . ويعلمه كيفية
أخذها ويخبره بضعف الخليفة وانصراف الجند عنه بينما ينصح المستعصم
بتسريح الجنود لاضعاف شوكتة متظاهرا بالعمل على توفير نفقاتهم
وما زال بكيد حتى دخل التتار بغداد فقتلوا من المسلمين ما يقارب بضعة
عشر ألف انسان أو أكثر أو أقل .

ولو ترجمنا المصطلحات والرموز العقائدية النصيرية لوجدنا بأن
الغاية الرئيسية التي ترمى اليها هي أن لكل عمل وكل قول تأولا خاصا
لا يعرفه الا المشائخ الذين تعلموه عن الائمة .

ويقول صاحب كتاب (الحركات الباطنية في الاسلام) مستطردا :

(وهذا التأويل الباطنى هو الذى يفرقهم عن اخوانهم الشيعة لعلو
النصيرية فى تأويلاتهم بسبب اسباغ مناقب خاصة وصفات قدسية عالية
على الامام على بن أبى طالب — ع — هذا بالاضافة الى الغموض الشديد
الذى يشوب الاصول والاحكام النصيرية مما يحملنا على التروى والحذر
والإقتباء الدقيق للمعنى المقصود من وراء الرموز والمصطلحات والكرامات
والمعجزات التى بنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم) .

وبمضى بعد ذلك فيصرح بأنه لا ينكر المعجزات والكرامات التى ملئت
بها الكتب النصيرية ولكنه يعترض على استغلالها كبرهان على تأليه
الائمة (٢٩) .

ويبدو من كتابه انه متعاطف مع أصحاب هذا المذهب ، محاولا
التقريب بينهم وبين الشيعة الاثنى العشرية ، ولكن الحقيقة أن الطائفة
الاخيرة لا تعترف بالنصيرية بخاصة والغلاة بعامة بين صفوفهم وتخرجهم
من دائرة الاسلام . والسبب فى ذلك واضح لا يحتاج الى دليل ، لان
القول بالحلول معناه انكار الالهية وفساد النبوة والقول بالتناسخ انكار
الحياة الاخرى بما يتخللها من حساب وتواب وعقاب فى جنة أو نار والتأويل
الفساد افساد للوحى الالهى .

(٢٩) مصطفى غالب : الحركات الباطنية في الاسلام ص ٢٧٣—٢٧٤ ط دار
الكتاب العربى — بدون تاريخ .

وهذا مما دفع أئمة الشيعة الى البراءة منهم ومحاربتهم^(٢٠) ثم أصبح نصير الدين الطوسي وزيرا لهولاكوك ملك التتار بعد دخولهم بغداد .

وأما عن واقعهم المعاصر فنقول : كما كان أجدادهم ركائز للصليبيين والتتار فان طائفة النصيرية الان (وقد سمتهم فرنسا بالعلويين)^(٢١) لاخفاء حقيقةتهم وخداع المسلمين لايهاهم بأنهم من الشيعة المعتدلة ولكنهم يتعاونون مع الصليبية واليهودية كليهما . وكما وجدت أنجلترا في القاديانية بغيتها كذلك أقامت فرنسا للنصيرية دولة أيام الانتداب في مطلع هذا القرن ومازالت تخططهم قائمة على البطش والارهاب بالمسلمين وعلماهم وإشاعة الفساد والاباحية وتضييق الحياة والتسيب لكي يقع المسلمون فريسة في أيدي الصهيونية .

تعقيب :

وبعد ، فنكتفى بما قدمنا عن النحل الباطنية في ضوء الغرض المستهدف من الكتاب ، أي تمييزا بينها وبين عقائد السلف ، وتحذيرا من الوقوع في أخطاء الحكم على ممثلي الاسلام الحقيقيين فان الله تعالى قد أمر بالعدل في الاحكام .

والمعلومات لمن يريد المزيد لا حصر لها في بطون الكتب ، ولكننا لم نفعل أكثر من اختصار مادتها الى الحد الذي يفي بالغرض — أي لاستخلاص ما رأيناه من وحدة الخط وتشابها من حيث العقائد الغالية واللجوء الى العنف واثارة الفتنة . كل ذلك من أجل النيل من الاسلام في عقيدته التي

(٢٠) السيد عبد الحسين مهدي العسكري ص ١٤-١٨ ، ص ٢٧ .

(٢١) وقد لزمته هذه التسمية وقد ارتاحوا لها لانها تخلصهم مما علق تاريخيا باسم النصيرية من ذم وتشنيع وتكفير ، كما انها تفتح لهم آفاقا أرحب للتقارب مع الشيعة .

حملها السلف بين جوانحهم وعضوا عليها بالنواجذ من جيل الى جيل • كما رأينا أيضا تكرار المحاولات على طول التاريخ بنفس الطريقة والاسلوب مع تغيير القادة والمنفذين ، وكأننا أمام ابن سبأ في كل عصر ومصر ، اختفى شخصه وبقي دوره ودور أتباعه • اختلفت الاشخاص ولكن الخطة واحدة منذ عهد الله بن سبأ في اشغال نيران الفتنة وابتداع عقائد باطلة تظل تعمل في السر والعلن في دوائر متلاحقة حتى وصلت الى العصر الحديث في شكل البابية والبهائية وهذا ما أثبتته أيضا الاستاذ عبد الرحمن الوكيل اذ علل الحوادث الجارية تباعا الى (السبئية — وجعل الصهيونية مرادفة لها) ، ولم يقصد بطبيعة الحال تلك التي سببت القلاقل والحروب أيام الصحابة رضوان الله عليهم فحسب ، ولكن أعبرها عنوانا واحدا على كل الخطط الهادمة التي صاحبت تاريخ المسلمين حتى العصر الحاضر حيث بثت العقائد الضالة وهي أمشاج من اليهودية والمجوسية والصليبية (٣٢) •

كذلك فان كل من يطلع على العقائد المنحرفة عن الاسلام وخطط معتنقيها لمحاربة الاسلام والمسلمين ، لا يشك في روح العداء التي تحركها وتوجهها الى أهدافها التخريبية — مع الاختفاء وراء التشيع ومحبة آل البيت للنفاذ الى قلوب الجماهير وخداعها • وقد أورد الدارمي (٥٢٨٠) في كتابه (الرد على الجهمية) نصا هاما في هذا الصدد على لسان أحد الملاحدة الذي سئل عن سبب تظاهره بالتشيع ، بينما هو في الواقع ليس كذلك ، فأجاب (اذن أصدقك ، انا ان أظهرنا رأينا الذي نعتقده رمينا بالكفر والزندقة ، وقد وجدنا قوما ينتحلون حب على ويظهرونه ، ثم يعقون بدن شاعوا ، ويقولون ما شاعوا فنسبوا بذلك الى الترفض والتشيع ، فلم نر

• (٣٢) عبد الرحمن الوكيل : البهائية تاريخها ومعتقداتها وصلتها بالباطنية والصهيونية ص ٣٢ مطبعة السنة المحمدية ١٣٨١هـ — ١٩٦٢م •

لإذهابنا أمراً لطف من انتحال حب هذا الرجل ثم نقول ما شئنا ، ونعتقد ما شئنا ونقع بمن شئنا فلأن يقال لنا رافضه أو شيعة . أحب إلينا من أن يقال زنادقة كفار ، وما على عندنا أحسن حالا من غيره ، ممن تقع بهم (٣٣) . أضف الى ذلك توقيت الحركات الباطنية كأعمال خيانة للامة الاسلامية في المواقف الحرجة من تاريخها ، (كحروب الروم مع المسلمين ، وهجوم الصليبيين على ديار الاسلام ، ومؤمرات الجوسية لاستعادة مجدها القديم واندفاع القتر للقضاء على الحضارة الاسلامية) (٣٤) .

كان الخناقون أتباع أبى منصور المعلى والمغيرة بن سعيد يقتلون الناس بالخنق والحجارة لانهم لا يستحلون حمل السلاح حتى يظهر القائم (٣٥) .

والمسلمون أمام أمرين كلاهما مر : اما اتباع هؤلاء الائمة الضالين المضلين جهلاً أو خوفاً . واما التعرض للفتك بهم وقتلهم وإشاعة الذعر في قلوبهم .

ومما يجدر ذكره أن كتب التاريخ تروى أن المسلمين المستمسكين بعقيدة السلف والسنّة أيام الحسن الصباح كانوا يخفون عباداتهم ويؤدونها خلسة خوفاً من بطش أعوانه . .

ولا ننسى أيضاً كيفية اختيار القادة لهذه النحل الباطلة ، وأقر بها الى البهائية في العصر الحديث شخصية الاحسائي معلم الباب ، حيث

(٣٣) كتاب عقائد السلف ص ٣٥١ بتحقيق د. على سامى النشار و د.

عمار الطالبي منشاه المعارف بالاسكندرية ١٩٧١ م .

(٣٤) د. محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ص ٤٨ .

(٣٥) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٥ .

يستند أحد الآراء الى تقارير المستشرقين فيقرر (أن الاحسائي لم يكن أصله من الإحصاء ، ولا ثبت ذلك تاريخيا ، وانما كان قسا غربيا أرسل من أندونيسيا الى الشرق حسب خطة مرسومة لافساد العقيدة ، وتغيير أحكام الدين) (٣٦) .

وخلاصة القول أن أمثال الباب والبهاء وعباس وغلام أحمد وغيرهم ليسوا الأجدالين حذرنا الرسول ﷺ منهم . فقد روى أبو داود في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال (سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي .) وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، لا نبي بعدى) .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (أن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم) .
هذا من جهة أشخاصهم .

أما من جهة الاختفاء وراء أفكار خادعة براقية ، فقد كشف القرآن الكريم عنها بجلاء . ولعل أظهرها زعم طائفة البابية والبهائية أنها ترمى الى إخضاع الشرائع السماوية للعقل وحل المشكلات القائمة بين أهل الأديان وأنها ترمى الى وحدة العالم الانساني ونشر السلام العام (٣٧) .

(٣٦) د. محسن عبد الحيد : حقيقة البابية والبهائية ص ٤٩ نقلا من (البصرة تستأصل شاة الشيخية) لمحمد مهدي الخالصي .
كذلك عندما تابع دراسة خطط تلميذ الاحسائي — وهو كاظم الرشتي — الذي سار على طريقة استاذة خلص الى وجود اتصال بين هذه الحركة ومراكز التبشير العالمي ومساندة الاستعمار واليهودية العالمية لها .
انظر الفصول الآتية في كتاب الدكتور محسن :
مناصرة المستعمرين للبهائية — و — البهائية والانجليز — و — البهائية واليهود .

(٣٧) محمد كرد علي : البابية (من كتاب دراسات عن البهائية والبابية) ص ١١٧ ط المكتب الاسلامي ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

وهذه دعوى باطلة وهى تردد على السنة الكثير من المسلمين مع
الاسف ولو عرفوا فهم السلف لايات القرآن فى هذا المعنى لتنبهوا لما
يحاط لهم من مؤمرات ، ولعل أيسر سبيل لفهم حقيقة هذه الدعوى ، ان
الحق واحد لا يتعدد •

أما ما كان يزعمه عباس أفندى من رغبته فى ازالة الخلافات واشاعة
روح المحبة والسلام والوثام فمردود عليه أيضا بأن القارىء للتاريخ يوقن
أنه لم تمر فترة فى تاريخ البشرية الطويل بلا نزاع وحروب وصراعات
بسبب اختلاف الامم فى عقائدها ومصلحتها ، ولولا ذلك لم يقم للحق وأهله
قائمة وهذه سنة من سنن الله تعالى اذ قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ٢٥١ البقرة • وقال
عز وجل (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا واينصرن الله من ينصره ان الله لقوى
عزيز) ٤٠ من سورة الحج •

والمعنى انه لولا أن الله تعالى يسخر للقوى المعتدى من هو أقوى
منه لطنى فى الارض وعم شره حتى خرب بيوت العبادة (٣٨) •

الفصل الرابع

هدف السلفية وضوابطها

— تمهيد :

— التقدم ومعناه في ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة :

هل تحققت السعادة في ظل التقدم ؟

• لابد للتقدم من (عقيدة) أو (أيديولوجيا)

• النظرة الشمولية للإسلام

• نهى الشرع عن تقليد الأمم الأخرى

— الزمن كمقياس للتقدم

— التقدم في الإسلام

تمهيد :

ان السؤال الذى نطرحه بين يدي الفصل الرابع والاخير من الكتاب هو :

كيف نحل هذه الظاهرة المحيرة ؟

نحن أمام عقيدة دينية — أو أيديولوجية^(١) كاملة بلغة الفلسفة المعاصرة ، نابضة بالحياة ، وكانت سببا فى اقامة حضارة عظمى احتلت مكانتها المؤثرة فى تاريخ العالم لعدة قرون ، وما زالت مع ضمورها فى قلوب معتنقيها ترهب العالم وتجعله خائفا يترقب ؟؟

كيف ضمرت هذه العقيدة فى نفوس أصحابها فانعكست على أعمالها ونظمها وأضعفت من قدرتها فى الاسهام فى واقع العالم المعاصر الاليم ، وكيف أصبحت فى الصفوف الخلفية ويشار اليها بأنها من الدول المتخلفة واذا روعيت آداب اللياقة فى الوصف اعتبرت نامية ؟؟

واذا أنصتنا الى أحد معلى انحصار الحضارات وجدناه يرى أن العالم كله قد تغرب ، ولا توجد أمة جديرة بقيادة الحضارة من جديد لانقاذ العالم مما ينتظره من كوارث .

فهل هذا صحيح ؟

هل ماتت حضارة الاسلام ؟ أم أنها مجرد حضارة نائمة ولا بد للنائم من أن يستيقظ يوما ؟؟

(١) لعل افضل تعريف لهذا المصطلح ما اورده الاسناذ الدكتور فؤاد زكريا بقوله انها : (مجموعة الافكار الاساسية التى تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم او الموقف الاساسى الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وامانيه فى المستقبل) ص ٥٧ من كتابه : العرب والنموذج الأمريكى ط دار الفكر المعاصر بالقاهرة — مايو سنة ١٩٨٠ م .

كذلك كثيرا ما نواجه بالسؤال الاتى :

الى متى سنظل نتغنّى بأمجاد الاجداد والاباء ، ألم يحن الوقت بعد الحياة فى العصر ؟ اننا نعيش فى القرن العشرين ، وينبغى التطور مع مفاهيمه وأساليبه فى الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية أفرادا وشعوبا .

ومثل هذا التساؤل يفتح بابا واسعا للبحث فى موضوعات ذات صبغة حضارية عامة . انه ليس مجرد سؤال قد يعن لبعضنا أو أغلبنا ثم نطويه بين صدورنا ونهضى غير مباليين ، بل ان له مغزى خاص لانه يعبر عن انعكاس أثر الثقافة العصرية السائدة ، ولا يستطيع المسلمون تجاهل الاجابة عليه لانه يمس طريقتهم فى الحياة وألوان عقائدهم ومثلهم وقيمهم ونظمهم ، فقد أصبح العالم صغيرا يؤثر فى بعضه البعض ، وتنتقل المؤثرات بوسائل الاعلام والمواصلات والاسفار والهجرات من بلد الى آخر فى أقل وقت عرفته المجتمعات الانسانية من قبل .

السؤال اذن يزداد الحاحا فى عصر تقريب المسافات وتشابك المصالح بين أقطار الارض حيث تتبادل العلاقات عن طريق الثقافات والمصالح الاقتصادية والسياسية وبسبب المقدرات العلمية التقنية لاوروبا وأمريكا وأطماع الشعوب الغربية فى أراضي الشرق الاسلامى رغبة فى استغلال شعوبه ، بسبب كل هذا أصبحت مؤثرات المفاهيم الغربية فى الفكر والسلوك ذات نفوذ كبير على الشعوب وتؤثر فى أعماق نفوسها بوسيلة من وسائل الحرب النفسية حتى تفقد هذه الشعوب مقوماتها الشخصية وتفقد احساسها بكيانها وحضارتها وتاريخها . والحق ان هذا المشعور بالتميز الذاتى يعد ضرورة ملحة فى الالونة الحاضرة حتى لا تذوب الامة فى كيان غيرها ومن ثم تفقد القدرة على المقاومة وتنقاد طائفة لمسايراد لها .

ونرى أولا أنه لا ينبغي أن نخدعنا العبارات الطنانة والاصطلاحات الرنانة كالفكر الحر والعقلانية والتقدم والحرية التي يقصد بها النيل من السلف ومنهجهم ، حيث أثبتنا فيما تقدم من هذا الكتاب أن السلف يحترم من أحكام العقل خضوعا لأوامر القرآن والحديث وانهم استنادا الى الأدلة العقلية سواء في التفسير والفهم أو في الرد على مخالفاتهم ، وكان هذا المنهج كقبلا بلفظ كل المذاهب والنحل المنشقة عن طريقة الرعيل الاول

ونتوقع بعد هذا ، بل نتطلع الى اجتذاب الناهرين من الموقف السلفي رتحت التأثيرات المخلفة ، أما لعدم الاطازع على مؤلفاتهم أو الخضوع لتأثير فلسفة العصر وأنكاره واستخدام معايير واصطلاحاته في الحكم على عقيدة وقيم وحضارة لها ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز •

وهي بالاشك تختلف — بل تتفوق على حضارة العصر الحالية •

فلنستخدم اذن هذه الضوابط والمعايير — وهي مستمدة من المنهج السلفي — في الولوج الى حضارة العصر غير هيايين ولا وجلين من (عقدة النقص) ازاءها ، ومننتكلم في هذا الفصل عن هدف السلفية وضوابطها من لخلال مناقشة حقيقة (التقدم) سواء بلغة الاقتصاديين المعاصرين ، أو المرتبط بالزمن عند آخرين •

وبعد ذلك نختم حديثنا بتوضيح التقدم في الاسلام :

هدف السلفية وضوابطها

ان الضوابط والمقاييس الثابتة التي تحددها السلفية كفيلة بتخريج
طبائع أفذاذ لقيادة الحضارة الاسلاميه من جديد كما خفت ضوؤها ، وهم
يشكلون باجتهاداتهم سلسلة متصلة من الجهود المبذولة المحافظة على
طريقة الاتباع — لا التقليد — ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخلاص
التوحيد لله تعالى وحده ، والايمان بالوحي طريقا لمعرفة عالم الغيب ، مع
استسلام الانسان في شئون حياته لما أمر به الله بواسطة خاتم الرسل
والانبياء وتحرير العقول من الوثنيات واصر الشرك لتتفرغ فيما يعود على
الانسان بالنفع في ميادين المعارف والعلم ووسيلتها النظر والتجربة مع
ثبات الفضائل الاخلاقية والاداب الانسانية .

وهنا تظهر لنا ضوابط السلفية في نصوص كثيرة سنختار منها ما يشرح
معنى (الصراط المستقيم) لاننا نلاحظ في التصور الاسلامى أن أصوله
وقواعده محددة وفق هذا الصراط المستقيم ، وهو المانع من التذبذب أو
الارتداد أو الدوران في حلقات مفرغة قد توحى بها أشكال أخرى غير الخط
المستقيم ، كالخطوط المتعرجة أو أشكال الدوائر والمنحنيات مثلا ، اذا جاز
لنا التشبيه بالاشكال الهندسية للتوضيح والبيان .

قال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) سورة الانعام ١٥٠ .
وفي شرح معنى هذه الاية ، نستدل بالحديث : عن جابر قال : كنا
جلوسا عند النبى ﷺ فخط خطا هكذا أمامه ، فقال (هذا سبيل الله) ،
وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال (هذه سبل الشيطان) ثم وضع
يده في الخط الاوسط ثم تلا هذه الاية (٢) .

(٢) ابن كثير — تفسير القرآن العظيم ج٢ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

وفي حديث آخر ، سأل رجل ابن مسعود رضى الله عنه ، ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ، ثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجسود انتهت به الى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به الى الجنة . ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (٣) .

وبعد أن عرفنا هذا الصراط ، فقد أصبح لزاما علينا أن نعرف السبائرين على هداة ، وهذا ما أخبرنا به الرسول ﷺ ، فمن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (ما من نبى بعثه الله في أمة قبلى ، الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خايف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدتهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) رواه مسلم .

فاذا أضفنا اليه حديثا آخر أمر فيه الرسول ﷺ باتباع سنته ، وسنة الخلفاء الراشدين ، ازداد الامر وضوحا .

قال العرباض بن سارية : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم فسيروا اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا

بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) رواه أبو داود •

• وابقاء على هذا العهد نستطيع أن نتحقق تاريخيا — وفي العصر الحاضر أيضا — من الدور الذى أداه السلف ، فيتأكد لدينا موضوعية المنهج وتعلقه بمعايير وضوابط لا بعصور وأزمنة ، فمن الثابت تاريخيا :

وقوف السلف فى وجه الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وغيرها كما رأينا •

تسبب الاتجاه العقلى المنحرف عن السلف كالمعتزلة والفلاسفة ، وحتى أصحاب المواقف الوسط كالأشاعرة ، وهذا ما تعبر عنه مواقف الفقهاء وتعلماء الحديث أمثال ابن حنبل والدارمى والشافعى ومالك •

وظهر أيضا كأوضح ما يكون فى مؤلفات ابن تيمية وابن القيم حيث أحاطا بعلوم وثقافة عصرهما — فى القرنين السابع والثامن الهجرى — ووقفا بثبات ضد كل الاتجاهات التى استفحل خطرهما فى دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع •

ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفى فى العصر الحديث وإن بدت فى جهود متفرقة لعلماء فى شتى أنحاء العالم الإسلامى لا تجمعهم وحدة المكان والامثلة على ذلك : اظهار التوحيد بواسطة الإمام محمد بن عبد الوهاب وتبعيه الآخرون فى الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والمغرب والقارة الهندية •

وكان دور السلفيين ظاهرا فى هذا الدور للمحافظة على نقاء التوحيد الإسلامى فى العقيدة والعبادة ، ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربى الصليبي •

وعندما ظهرت مشكلات جديدة بسبب ازدياد حملات الغزو
الاستعماري وفتح منافذ جديدة للتسلل منها الى عقيدة الاسلام ، كانت
السلفية بارزة المعالم في عدة مواقف ، نذكر منها :

معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات
العلمية المعاصرة •

نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن
الكريم وعدم الخذ بع لتصوراتها التي أخذت في الزحف على العالم
الاسلامى وأحدثت ثغرات في الجبهة الاسلامية مستهدفة النيل من أصالة
العقيدة الاسلامية ووجدتها وشمولها ، متبعة في ذلك شتى الاساليب
كالفصل بين الدين والدولة أو العلمانية ، والنيل من السنة واحلال القوانين
الوضعية بدل الشريعة الاسلامية • وكلها حيل جديدة منبثقة مما مر بحضارة
الغرب وتاريخه وفلسفاته ، وما أصاب مجتمعاته من تغييرات اقتصادية
وسياسية تخصه وحده •

وما دام الامر كذلك ، فان مما يستوقفنا ملاحظة طرق وأساليب أعداء
الاسلام ، اذ تتجمع كلها — بالرغم من تعداد وسائلها — للنيل من الاسلام
عامة ، ومن الطريقة السلفية خاصة ، ثقافيا واجتماعيا وسياسيا • ففي
المجال الثقافي والتعليمي ، كان من دأب المستشرقين وما زال تعظيم الفرق
المنشقة من الجماعة أمثال الخوارج والشيعة ، واثارة الافكار المخالفة
للسلفية كالمعتزلة والجبرية والقدورية • وغيرهما من المذاهب الكلامية والافكار
الفلسفية مع تعظيم أصحابها وترويج أفكارهم ، مع النيل من شيوخ السلف
وعلمائهم • أضف الى ذلك فرض دراسة الفلسفات الغربية قديمها وحديثها
بكافة مذاهبها وأصحابها •

وفي المجال الاجتماعي توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرق الصوفية

وتحبيذ نشر البدع باسم الاسلام ، أو تكوين ما يسمى فرق الانشاد الدينى بضورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الاضرحه ، والهلب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفى للدين ، واخفاء منهج السلف فى فهم الاسلام وتطبيقه •

وسياسيا - دأب الاستعمار الغربى على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة كما أسلفنا ، مع ابتداء أساليب جديدة كالباكية والبهائية والقاديانية ، ومدها بالعون المادى ، وتمكين أتباعها من الوصول الى مراكز التأثير . الى جانب اذاعة آراءها والترويج لها تحت ستار الاسلام، مع الاعتماد أيضا على الفرق التى ما زالت تتوارث عقائدها الباطلة المنحرفة عن الاسلام منذ ظهورها فى المجتمعات الإسلامية كالباطنية الاسماعيلية والنصيرية والدروز •

واذا كان خصوم السلفية ينفرون منها بدعوى منافاتها للتقدم ، فما التقدم ؟

أصبح لفظ (التقدم) هو الشائع الان وأخذت الغالبية تخضع للتفسير الذى يميل الى وصف كل ما هو حديث ومعاصر بالتقدم ، وامتدت هذه النزعة الى الاعمال الأدبية والفنية حتى الكتابات الصحفية اليومية وامتد نفوذ الفكرة ليشمل كل شئ ، فلم يميز بين التقدم فى دوائر العلوم التجريبية وغيرها من ألوان الأنشطة الانسانية •

ولبيان خطأ الفكرة بالرغم من ذيوها وانتشارها ، فاننا سنناقشها وفقا للترتيب التالى :

ان الفكرة مرتبطة بالمراحل التاريخية التى مر بها الغرب ، اذ انتقل فى تطوره المسمى من العصور القديمة الى الوسطى فالحديثة والمعاصرة ،

وفي ضوء هذا التقسيم واقتتران كل مرحلة بظروفها ، أصبح الغربى عندما ينظر الى تاريخه ، يفرغه المدلول السلفى لان مضمونه التاريخى والحضارى يلتقى في قلبه الرعب . فالسلفية في نظر الانسان هناك عموما — وقد عرفنا تفصيل ذلك فيما تقدم — تعوقه عن التقدم المادى في الصناعة والزراعة وحقول العلوم والمعارف المختلفة التى انفجرت على أثر الثورة الصناعية ، واستخدام المنهج التجريبي في العلوم ، بدلا من المنهج الصورى اليونانى ، وهو من نتائج سلف الحضارة المعاصرة وكان منطقا عقيما لم يتقدم بالعلم خطوة واحدة ؛ كما تحرمه السلفية هناك من العلمانية التى غصلت بين الدين والدولة سياسيا واجتماعيا طبقا للشعار (دع ما لله لله ودع ما لقيصر لقيصر) .

وفي الميدان العلمى ، انطلق العلماء يبتدعون سعيًا وراء الحقائق التى تقدمها التجارب والاكتشافات العلمية ، غيأتى العلم كل يوم بالجديد المذهل ، بعد أن فك عن نفسه قيود تفسير رجال الكنيسة . ولان السلفية عنده كانت مضادة للفكر الفلسفى الذى أراد التحرر من علم اللاهوت وحاول حل مشكلة التعارض بين الايمان والعقل في الدين المسيحى .

والسلفية بعد كل ذلك بالماضون الغربى تعيد الى الازهان الصور المظلمة المقترنة بالظلم الاجتماعى والسيطرة السياسية في عصور طغيان الملوك والامراء ورجال الاقطاع في القرون الوسطى .

ولكن نتوقف لنتساءل : ماذا نريد بقولنا : التقدم ؟ التقدم على ماذا ؟ أو على من ؟ أو بالنسبة لـ ماذا ؟ أو لمن يكون التأخر أو التقدم (٤) .

ويجيب على هذا السؤال أحد المؤرخين الذين فسروا الحضارة

(٤) دكتور حسين مؤنس — الحضارة صفحة ١٤٩ .

بالتغير وليس بالتقدم ؛ فإن المجتمعات تتغير والتغير قد يكون تخلفا أو تقدما من نموذج ومثل أعلى ذلك لان في كيان الانسان مقومات ثابتة كالروح والغرائز والميول وحاجته الى المسكن والطعام والشراب والنوم والتناسل، ولكن التغير يصيب وسائله للوصول الى اشباع حاجاته . قد يتقدم في استخدام وسائل أرقى ، ولكنه يستخدمها في الحروب وميادين القتال والسطو والسرقة .

ولكن هل خفف الانسان من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء وفرض سيطرته على الضعفاء ؟ أما زالت الحروب المستهدفة لاذلال الشعوب واستغلالها ونهب ثرواتها مستمرة في القرن العشرين الميلادي ؟ ألم تعجز الشعوب الصغيرة والضعيفة — التي كانت مستعمرة بالامس — أن توجد لها مكانا في عالم الاقوياء من الدول الكبرى ؟ وفي ضوء ذلك كله ، هل التقدم حقيقى أم مجرد وهم وخيال ؟

يجيبنا على هذا التساؤل هارى ألر بارنز بقوله :

(وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الامام أو الى الاحسن انما هو وهم ، لان غرائز الانسان وأخلاقياته المركبة في طبعه باقية كما هى ، بل زادت حدة وضراوة ، ولا زال الوحش راقدا تحت جلد الانسان المتحضر : بل ان لفظ (الوحش) فيه تجمل في وصف خلفية الانسان المتحضر اليوم . فان الوحش يهاجم لياكل أو ليدافع عن نفسه ، وفيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان ، أما الانسان فيدبر لآبادة الالوف أو الملايين وهو راقد في غراش وثير في غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادى . فأيهما الوحش ؟

ان الانسان اليوم مخلوق ضعيف العقل في يده قنبلة يمكن أن يحطم

بها نفسه وغيره ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسة اليوم^(٥) .

وازاء كل مانراه ماثلا للعيان ، فان البعض ومنهم المسلمين يميل إلى الاخذ بالتفسير التاريخي القائل بأن التاريخ في سيره يأخذ اتجاها متحدرا^(٦) مستدين في ذلك إلى أن العصر الذهبي للإنسانية تحقق في عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين ، وبعد القرون الثلاثة المفضلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما فرق المسلمون شيئا وأحزابا متعدين عن تلقى الإسلام حسبما فهمه السلف وطبقوه عقيدة وشرية وأخلاقا .

ويتضح من حديث نبوى أن الرسول ﷺ قد أمر في هذه الاحوال بالصبر على الازدائد والمحن متنبئا بأنها ستزداد على مر الاعصر :

عن الزبير بن عدى قال : أتينا أنس بن مالك رضى الله عنه فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج فقال . اصبروا فانه لا يأتى زمان الا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم . سمعته من نبيكم ﷺ . (رواه البخارى)

وربما نقع أحيانا نحت تأثير الاخذ بهذا التفسير — أى اتجاه الانحدار — لا سيما عند مراقبتنا لاحوالنا الحاضرة معشر المسلمين . ولكن الحقيقة أن هذه النظرة نعبر عن طرف واحد للقضية وتتطلب نظرة أخرى من الطرف المقابل للتوفيق بين الحديث الانفس الذكر والاحاديث النبوية الاخرى المبشرة بانتشار الاسلام وعودته للظهور ظاهرا مقتحما كل العقبات من جديد .

(٥) هارى المر بارنز في كتابه المسمى (النظم أو المؤسسات الاجتماعية)
نقلا عن كتاب الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٩-٣٦٠ .

لؤلوه ف. نيل

(٦) وظهر كتاب بهذا العنوان

والاحاديث المبشرة كثيرة منها :

(لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) (٧) ، ويروى الامام أحمد عن تميم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك بيت مدر ولا وبر الا أدخله هذا الدين يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الاسلام ، وذلا يذل الله به الكفر) فكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية (٨) .

وفى تفسير قول الله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) سورة براءة آية ٣٣ ، يقول ابن كثير (أى على سائر الاديان ، كما ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ انه قال : ان الله زوى — أى جمع — لى الارض مشارقها ومغاربها ، وسيملئ ملك أمتي ما زوى لى منها) (٩) .

ويستند ابن كثير أيضا فى شرح الآية الى مسند الامام أحمد بن حنبل حيث روى بسنده عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدى ، أسلم تسلم ، فقلت : انى من أهل دين ، قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بلى . قال : فان هذا

(٧) الحديث بروايات متعددة والفاظ مختلفة فى البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى .

(٨) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٧٨ ط دار الشعب .

(٩) المصدر السابق — والحديث رواه مسلم ، كتاب الفتن باب (هلاك

هذه الامة بعضهم ببعض) .

لا يحل لك في دينك • قال : فلم يعد ان قالها فتواضعت لها ، قال : اما انى أعلم ما الذى بمنعك من الاسلام ، تقول : انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له — وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أرها ، وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليرتد هذا الامر حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد : ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز — قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد — قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لنكونن الثالثة . لان رسول الله ﷺ قد قالها (١٠) .

ونعود الى الحديث الذى بدأنا به ، والذى قد يشعر بقرب الساعة مما يوجب على من يأخذ به الفرار بدينه من الفتن والاعتزال في شعاب الجبال • والحق انه كما يرى الاستاذ الدكتور محمد رشاد سالم — أن اعتزال الدنيا والناس هو نوع من الهروب من تحمل الامانة والمسئولية ، وهو أيسر من مخالطة الناس والصبر على آذاهم ، ومن جهاد الكفار والمنافقين والعصاة الفاسقين) وقد يؤدى الى اليأس والقنوط ، وقد نهانا الله تعالى نهيا شديدا عن ذلك بقوله سبحانه وتعالى (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) الحجر ٥٦ وقوله عز وجل (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) يوسف ٨٧ (١١) •

كذلك يتضح لنا من مناسبة ذكر الحديث وملابسائه أن المقصود باستداد الزمن شدة المحن والابتلاءات للامة الاسلامية على مدار تاريخها

(١٠) المصدر السابق ص ٧٩ •

(١١) د. رشاد سالم — المدخل الى الثقافة الاسلامية دار القلم الكويت

الطويل حيث يذكر المناسبة ، فيروى عن ذهب الى أنس بن مالك للشكوى من الحجاج فقال (اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم الا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبيكم ﷺ . وهذا رواه البخارى (لا يأتي عليكم زمان الا والذي بعده شر منه) الحديث (١٢) وهذا ما نستخلصه مما رواه ابن كثير في تاريخه حيث أورد حديثا آخر مضمناً المعنى نفسه ، قال

وروى في الحديث (كل يوم ترذلون نسما خبيثا) فيحتمل هذا انه وقع للإمام أحمد مرغوعا ومثل أحمد لا يقول هذا الا عن أصل . وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم .

ثم يعلق بعد ذلك بقوله مفسرا للحديث في ضوء الاحداث التاريخية التي عاصرها (فدل على أنه له أصلا ، اما مرغوعا واما من كلام السلف ، لم يزل يتناولوه الناس قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، حتى وصل الى هذه الازمان ، وهو موجود في كل يوم ، بل في كل ساعة تفرح رائحته ولا سيما من بعد فتنة تمرلنك ، والى الان نجد الرذالة في كل شيء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم) (١٣) .

والذى يستوقفنا بعد هذه الرواية التى ذكرها ابن كثير فى تاريخه أن الامام الحسن البصرى قد سئل هذا السؤال (انك تقول الاخر شر من الاول ؛ وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج) فقال الحسن : لا بد للناس من تنقيسات (١٤) ..

(١٢) البداية والنهاية ج٩ ص ١٣٤—١٣٥ .

(١٣) ابن كثير — البداية والنهاية ج٩ ص ١٣٤—١٣٥ .

(١٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج٩ ص ١٣٤—١٣٥ .

اما اشارة ابن كثير الى الطائفة (تمرلنك) فيحسن بنا شرحها للتارىء حيث اورد السيوطى بعض افعاله ، قال (وفي هذه السنة — ٧٧٣ هـ — كان ابتداء

وفي ضوء هذا الرأي ، يصبح الاصل أن تمضى المحن وصور
الابتلاءات قدما في شدتها وقوتها . وتأتى فترات (التنفيسات) على حد
قوله ، استثناء على فترات مؤقتة — والله أعلم •

وعلى أية حال فإن أقرب التفسيرات التاريخيه لحضارة المسلمين
يستند الى ملاحظة أن انتصار المسلمين وعزتهم كانت في كل مرة بعد
الاستمساك بتعاليم الكتاب والسنة — وفقا لمنهج السلف — والعكس ، ان
هزائمهم والكوارث التى حلت بهم ، كانت جزاء وفاقا لمخالفتهم لتعاليم
الاسلام •

والنظرة المعاصرة لما يدور في العصر الحاضر من ابتلاءات بالامة
الاسلامية ترجح امتداد التفسير بالمد والجذر • وصاحب هذا التفسير
العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى ، حيث يحال 'النكبات' التى حلت بالعالم
الاسلامى من زاوية الرسالة المناطة بهذه الامة لانها حاملة لواء الاسلام —
أى رسالة الله تعالى الاخيرة •

ومن هنا يحدد النكبات الحادثة للامة وما يعرضها ، فعندما حدثت
كارثة خسارة الاندلس الاسلامية عوضها الله تعالى بدولة آل عثمان في
تركيا قامت في نفس الفارة الاوربية ا وعلى أثر نكبة بغداد بغارة التتار ،
اتسعت الدولة المسلمة في الهند وأخذت في الازدهار •

وبنفس القدر من النكبات ، خسرت الدول العربية فلسطين العربية

خروج الطاغية تملرك الذى خرب البلاد وأباد العباد — واستمر يعثو في الارض
بالفساد الى ان هلك لعنه الله في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان اصله
من ابناء الفلاحين ونشأ يسرق ويقطع الطريق ، ثم انضم الى خدمة صاحب خيل
السلطان ثم فرر مدنه بعد موته • وما زال يترقى الى ان وصل الى ما وصل •
السيوطى : تاريخ الخلفاء — تحقيق مدد محى عبد الحميد • المكتبة
النجارية الكبرى ١٢٨٩هـ — ١٩٦٩م •

الاسلامية ولكن عوضها الله تعالى بدولتين غيتين احداهما دولة باكستان والاخرى أندونيسيا .

ويعلل الشيخ الندوى تأرجح التاريخ الاسلامى بين الاسفل والاعلى بأن الاسلام رسالة الله الاخيرة والمسلمون هم الامة الاخيرة (فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، واذا هلكوا فقد غرقت السفينة التى تحمل الذخيرة) (١٥) .

ويشترك فى هذا التفسير التاريخى أحد المؤرخين العربيين بحيث يتفق مع غيره فى التنبؤ ببزوغ شمس حضارة الاسلام من جديد بناء على دراسة مقارنة لحدثين بارزين فى تاريخ الاسلام :

الاول : فى عهد الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ ، حرر الاسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريبا .
الثانى : وفى عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك ، احتفظ الاسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .

وبناء على استقراء توينبى لما كان فى هاتين المناسبتين يتنبأ بظهور شمس الاسلام مرة أخرى اذا (سبب الوضع الدولى الان حربا عنصرية ، يمكن للاسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى) (١٦) .

(١٥) الندوى : الانسان الكامل كما يراه محمد اقبال مجلة البعث الاسلامى

— لكنؤ — الهند محرم ١٣٩٧هـ — يناير سنة ١٩٧٧م .

(١٦) ارنولد توينبى : الاسلام .. والغرب .. والمستقبل ص ٧٣ تعريف د .

نبيل صبحى ط دار العروبة بيروت ١٣٩٩هـ — ١٩٦٩م .

« التقدم » في ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة

معناه وتاريخ ظهوره :

أصبح (التقدم) باصطلاح الاقتصاد من أكثر الكلمات شيوعاً في العصر الحاضر ، ويقترن عادة بخطط التنمية وزيادة الدخل وتحقيق المزيد من الرفاهية في البلاد الغنية أو الانتقال من (التخلف) الى مستوى الدول الغنية أو (المتقدمة) .

وأصبح للكلمة تأنيبرها العميق في تصوراتنا وسيطرت على الأدهان ان حقاً وان باطلا — فكرة ان الغنى والفقر مترادفان للتقدم والتأخر .

١ : يقول الدكتور جلال أمين (. . . وهكذا نجد أنه منذ آدم سميث ، أخذ الاعتقاد بأهمية زيادة الثروة والدخل يزداد قوة مع الزمن ، وكلما زادت قدرة الدولة على الانتاج وارتفع مستوى الاستهلاك وبدأ الاستهلاك العالى يمتد الى الطبقات الدنيا ، أمعن هذا الاعتقاد في الرستوخ حتى وصلنا الى حد اعتبار أن الدولة (المتقدمة) هى الدولة صناعية . الدخل الاعلى ، أيا كانت درجة انحطاط قيمها وأخلاقياتها ، والدولة (المتخلفة) هى صاحبة الدخل المنخفض) (١٧) .

ويعد هذا التصور انعكاساً لصورة التقدم في الحضارة الغربية حيث تنحصر الامال في السعى لمزيد من الثروات وتحقيق المتع الحسية والملاذات

(١٧) د. جلال أمين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٥٥ مطبوعات القاهرة ١٩٨٣ م .

وهو كتاب فريد في منهجه حيث تجاوز حديث الارقام الى فلسفة الاقتصاد ، واعطى القضايا الاقتصادية بعدها الاجتماعى والانسانى مخفراً من اساليب الغزو الحضارى والتبعية الفكرية ، ومنبها الى مكانة القيم والاخلاق في التصور الصحيح للحضارة .

الجسدية بالاكتثار من الاموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والسيارات والاجهزة والالات التى تحقق المزيد من الراحة والتقليل من الجُهد .

وهكذا يصبح الالاحاح على القيم الاقتصادية بمدلولاتها الغربية فى معنى (التقدم) وكأنه الغاية الكبرى لامتنا حيث أدخل فى روعنا سهولة التحول الى مصاف الدول المتحضرة بمجرد تحقيق معدلات النمو التى يحققها الغرب .

وعلى هدى التفسير التاريخى لتطورات أهداف الحضارة الغربية فى مراحلها المتتابة ، فإن الدارس المتخصص يلحظ أن التفسير بالعامل الاقتصادى وحده دون غيره من العوامل يرجع الى مدة قصيرة لا تريد عن قرنين من الزمان . وقبل ذلك ساد تاريخ البشرية عوامل أخرى مثل النزعة الدينية حيث كان الهدف الاسمى ارضاء الله تعالى .

ثم تحول الهدف فى عصر النهضة الاوروبية الى تحقيق الفرد لكافة قدراته وملكاته ، وفى عصر التجاريين — خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر — كان التفوق الاقتصادى وسيلة لتحقيق قوة الدولة . وفى القرن الثامن عشر كان أسمى الشعارات هو شعار الحرية .

أما التحول الحقيقى فقد اقترن بقيام الثورة الصناعية فى انجلترا أولا ثم فى غيرها فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر .

وتمضى الدكتور جلال أمين صاحب رأى آنفا فيعتبر كتاب (ثروة الامم لادم سميث (١٧٧٦م) ليس مجرد كتاب اقتصادى عادى ، وانما

علامة من علامات العصر ، فيه بدأ شيوع فكرة أن رفاة الامم تقاس بما تنتجه وتستهلكه من سلع وخدمات (١٨) .

هذه هي مراحل التطورات الاقتصادية في تاريخ أوروبا ويعكس لونا من ألوان حيرة الانسان حيث تنقصه النظرة الثابتة التي توجهه الى الغايات والاهداف الصحيحة التي افترقتها الحضارة الغربية في بعدها عن ثبات الدين بقيمه وأهدافه ، كذلك أصبحت العادة هدفا عسير المثال كما ينرى :

(١٨) د. جلال أمين — تربية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٥٤ .
ويعود ذبوع المصطلح — في رأى الدكتور جلال أمين — الى البنوذ الواسع الذي أصبح الاقتصاديون يهتمون به في عصرنا حيث امتد الى المراكز المؤثرة في المجتمع فأصبح عدد الوزارات التي يتولاها الاقتصاديون يتزايد مع الزمن ، واهتمت الصحف بتخصيص صفحات ثابتة لمشاكل الاقتصاد والمال ، وأصبحت العلاقات الاقتصادية هي الموضوع الرئيسى لاهتمام رجال السفارات ، بل منا يدعو للدهشة أيضا امتداد سلطوتهم الى رؤساء الدول فأصبحوا يقيسون نجاحهم وفشلهم بمدى قدرتهم على رفع معدل نمو الناتج القومى أو تحقيق فائض فى ميزان المدفوعات .
وفى ضوء هذا التحليل يصبح من الخطأ أن ننسب الى الماركسيين وحدهم التأكيد على أهمية العامل الاقتصادى على حساب غيره من العوامل ص ٥٤
نفس المصدر .

(التقدم) في ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة

لن نتعرض في بحثنا هذا — ذي الطابع الفلسفى للنظام الاقتصادى فى الإسلام مع المقارنه بالنظام الغربى ، ولكن سنهتم فقط بمناقشة مدلول اللفظ الذائع الان (أى) التقدم) حيث يعبر للوهلة الاولى عن حياة الرفاهية والترقب على النمط الغربى ، فيظن البعض أنه لكى نحقق التقدم الذى سيقونا اليه ، فما علينا الا أن نحقق معدلات النمو نفسها التى حققوها •

والحق أن القضية أكثر تشعبا وأعمق غورا من هذا الفهم المبتر ومن ثم تحتاج الى تناولها بقدر من العناية : شرحا وتحليلا ومقارنة •

وسنبداً بمشيئة الله تعالى بشرح مدلول اللفظ ثم نبحث كيف ظهر هناك نتيجة التطورات التاريخية وآثار ذلك على الفرد والمجتمع بعد زيادة الثروات وارتفاع معدلات الدخول ، ومدى امكان اللحاق لمستويات المعيشة فى الغرب طبقا لمعدلات النمو المتعارف عليها •

وسنرى أن السعادة المنشودة لم تتحقق ، بل ان الحضارة المعاصرة تعاني من أزمات مطاحنة أعيت للفلاسفة والقادة ورجال الفكر والاصلاح فى البحث عن الحل •

وسنبحث ضرورة استناد (التقدم) الى عقيدة أو (أيديولوجيا) يخضع لتصوراتها وأنماطها وأهدافها • لأن تحقيق الرفاهية والسعادة للإنسان كل لا يتجزأ وهنا تظهر الحكمة من الطابع الشمولى للإسلام وأخيرا سنبين مخاطر اتباع الغرب فى تصوره للتقدم •

ولعل أشدها خطوره تتمثل فى القضاء على مقومات شخصية الامه

أو على الأقل اهتزازها واضطرابها . ولهذا جاء الشرع محذرا من محاكاة
الامم الاخرى وتقليدها .

هل تحققت السعادة في ظل (التقدم) ؟

تحتاج الأجابة على هذا السؤال الى معرفة نتائج الانقلابات المتتالية
في القرون الاحيرة بأوروبا على الفرد والمجتمع هناك ، ثم التحليل النفسى
القائم على بحث علاقة أدوات الحضارة (المتقدمة) على نفسيات وسلوك
الانسان أيضا فافتقد السعادة المنشودة :

أولا — ان المتتبع لسير الحضارة الغربية يرى فترات من الجوع في
تاريخ الانسان اذ تميز بانقلاب شديد في النظم الاقتصادية والاجتماعية
والسياسية ، انقلاب مدمر للقيم الثابتة وخلق ألوانا من الفوضى والاضطراب
وبعض هذه الازمات التى حدثت فى الماضى ، مثل الاصلاح الدينى وما
صاحبه من حروب دينية أو الثورة الفرنسية وما تخللها من عصر الأرنهات
وما أعقبها من حكم نابليون ، فكانت هذه الاوقات عصيبة وحشية وتميزت
بالعنف الشديد واراقة الدماء (١٩) .

وأهم ما يستوقفنا عند هذا السرد التاريخى المسجل ان القيم الثابتة
كانت تتعرض للضربات تلو الضربات على أثر الانقلابات المدمرة والثورات
الدائمة .

نقول أدريين كوخ فى كتابها (آراء فلسفية فى أزمة العصر) .
(هذا القرن الفظيع . من ذا الذى يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم

(١٩) ادريين كوخ : آراء فلسفية فى أزمة العصر ص ٢١٠ .

عليه بالفضاعة ؟ ومن ذا الذى ينكر أن الثقة التى كانت تملأ نفوسنا عند مطلعته قد زالت من النفوس ؟ ليس من شك فى أن الازمة التى نعانيها فى العصر الحاضر فريدة فى تاريخ الانسان ، فهي أعمق وأوسع انتشارا من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الانسان ، لانها أزمة الوجود البشرى ذاته (٢٠) .

ونتمضى أدريين كوخ فى تفسيرها التاريخى لتطورات الحضارة الغربية الحديثة منذ طفولتها القوية ابان النهضة وعصر الاصلاح الدينى ، فتذكر انها كانت على ثقة تامة بكرامة الانسان وقدرته على الخلق والابداع . . ولكن كل هذه التطورات المبشرة التى ترقبت على نمو القوميات الكبرى ويتقدم التطبيقات العلمية انقلبت على شخصية الانسان فى القرن العشرين ، فكلما اتسعت رقعة التمدن فى الحياة اليومية وفى انتشار المصانع فى ميدان العمل . ازداد الاحساس لضعف روح الجماعة واشتد الشعور بالعزلة وذاب الفرد فى المجموع فى مجتمع بيرقراطى .

ثم ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية الشكوى من ضعف روح الانسانية عند الانسان ، حيث عزا شفيتها انعدام المدنية الى عدم التوازن بين تقدم الغرب المادى والتقدم الروحى (٢١) .

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كاد الناس جميعا يتفقون على أن الانسانية أشرفت على عصر جديد من عصور الحضارة ، وهو عصر أزمة طاحنة شاملة قربت بين شعوب العالم أجمعين ، لا بروح المحبة التى حلّم بها الفلاسفة ذوو النيات الطيبة فى كل قرن من قرون الزمان ، ولكن

(٢٠) المصدر نفسه ص ١١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ١١-١٢ .

بانتشار الفزع في قلوب الناس جميعا ، واشترك الشعوب في الشهور
بالخوف والهلع . وقد أخذ هذا الشعور يتزايد ، والمشكلات تتضاعف حتى
آمن الناس بقرب انتهاء المدنية الغربية (٢٢) .

أين اذن التقدم المتوهم باتباع معدلات النمو الاقتصادي ؟ وهل لو
طبّقناه ضمن تحقيق التقدم ؟ ان الاجابة مع الاسف تأتي بالسلب .

فقد ثبت أن التقدم الاقتصادي بالمفهوم الغربي لو حاولنا السير على
نمطه يصبح كسر اب بعيد . سيظل هدفا مستحيل التحقيق ، لان الغرب يخطئنا
بمعدلات مرتفعة جدا تجعل بيننا وبينه فوارق شاسعة ، اذا قيست بالارقام ،
تصل في بعض البلدان الى قرون (٢٣) .

ونحن نرى في ضوء ما تقدم ، ومن متابعة آلام المخاض في الحضارة
الغربية منذ ولادتها وما عانته بعد ذلك من أزمات وشدائد ، نرى أنها تعود

(٢٢) ادريين كوخ : آراء فلسفية في أزمة العصر ص ١٤ .
وقد عالج الفلاسفة والمربون وعلماء الاجتماع في كتاباتهم انهيار الغرب
وانقسام العالم .

(٢٣) يقول الدكتور جلال أمين :
لبيان ذلك دعنا نجرى عملية حسابية بسيطة نفترض بها ان دول العالم
الثالث سوف تستقر في النمو طبقا لنفس معدلات النمو التي حققها في السبع
سنوات من ١٩٥٨ الى ١٩٦٥ وان دولة كالولايات المتحدة سوف تستمر في النمو
بمعدل يرتفع بمقتضاه متوسط الدخل منها ٣ في المائة سنويا .
اذا افترضنا ذلك نجد ان دولة كالهند أو دولة عربية كتونس تحتاج كل
منهما الى أكثر من قرنين للوصول الى مستوى المعيشة الأمريكى وإن دولة
كاوغندا أو ماليزيا أو بيرو تحتاج الى أكثر من أربعة قرون للوصول الى نفس
المستوى بينما تحتاج دولة كالباكستان الى أكثر من سبعة عشر قرنا أو بالضبط
الى ١٧٦٠ عاما ..
ص ١٥ من كتاب (تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية) .

أول ما تعود إلى العجز الانساني في اجتهاداته لنفسه ومحاولة الانسار
تحقيق الرفاهية والسعادة بغير العون الالهى .

ان الازمة اذن ليست اقتصادية فحسب ، ولكن ذات علل شتى وهى
في جوهرها أزمة حضارة .

وهكذا يظهر لنا الغرب المتقدم في حالة معاناة من أزومات مستحكمة ،
وهو نفسه في حاجة الى حل من خارج دائرة فلسفته وحضارته ، ويحرص
على الظهور أمامنا بمظهر براق لامع لاغراض سياسية واقتصادية ، فيحول
ذلك بيننا وبين الغوص في أعماقه ومعرفة أزوماته .

ثانياً — الآثار النفسية للحضارة المادية :

إن الغرب نفسه في رأى فلاسفته لا يعاني بصفة جوهرية من
(التأخر) في مجال الانتاج ومعدلات التنمية بالرغم من معاناته من مشكلات
اقتصادية كالبطالة والتضخم والكساد ، وهى مشكلات موقوتة بالدورات
الاقتصادية في النظام الرأسمالى الا أن أزمتة الحقيقية ناجمة عن أزمة في
القيم ومحاولة التوفيق بين التطور التكنولوجى وبين التطور الانسانى
والمرضى القائم على أساس كمال شخصية الانسان وضرورات المجتمعات
البشرية والتزاماته (٢٤) .

(٢٤) ادريين كوخ — آراء فلسفية في أزمة العصر ص ٣٨ .
ويرى برتراند رسل أن مساوىء الغرب تتمثل في القلق والروح العسكرية
والغضب والإعتقاد الجازم في الآلة وأفضل ما في الغرب فهى روح البحث الحر
ولكن الغرب يصرف الشرق عن الفحلى به وما دامت هذه الحالة قائمة فيسوف
يبقى أهل الشرق على حافة الفقر والغور . ص ٣١٦—٣١٧ نفسه .

ومشكلة الانسان في الحضارة الغربية اذن لها أبعاد كثيرة ، سنكتفى فقط في هذا الحيز بإثبات أنه حقق التقدم الاقتصادي بأعلى المعدلات ولكن أخفق في تحقيق السعادة المنشودة حيث افتقد القيم الثابتة فاضطربت حياته . ذاك لان الافة في ظل حضارة قائمة على أهداف (غرائزية) تبحث عن المتعة والمزيد منها ، وتبحث عن الراحة فلا تجدها ، ويزداد فهمها الى المزيد من لذات الحس ومطالب الجسد ولا شأن لها بالروح :

ان البحث عن الراحة مثلاً أدى الى نتائج مضادة فتسبب في الارهاق، والسعى وراء الرخاء أدى الى القضاء على مصادر المتعة والبهجة ..

والدراسة النفسية الممتعة التي أجراها الدكتور جلال أمين تصل بنا الى نتائج ذات بال غيما نحن بصددده ، اذ تبين أن ما تخلقه زيادة السلع والخدمات من ارهاق ونفقات نفسية واجتماعية لا يمكن التخلص منها الا بانتاج المزيد من السلع والخدمات (٢٥) .

وهكذا يدور الانسان في حلقة مفرغة تصيبه بالدوار ويعجز عن الخروج منها ..

وقد خرب أمثلة كثيرة على ذلك نخس منها الآلات التي تستخدم بحثا عن الراحة وتخفيض العمل العضلي كوسائل المواصلات والمساعد الكهربائية والسلام المتحركة والادوات الكهربائية المستخدمة بالمنزل ، فهي بدورها تحتاج الى سلع أخرى زاجمة عن تخفيض النشاط الجسماني كمستلزمات الالعب الرياضية والرحلات وأنواع الغداء المضادة للسمنة والادوية

المعوضة عما فقده الانسان من صحة نتيجة الامعان في استهلاك وسائل الراحة (٢٦) .

وهناك الاثار النفسية الضارة من الراحة أو المتعة كالاقبال على المقامرة كمحاولة من الرجل الثرى حيث يعرض نفسه عمدا للخسارة طمعا في الفوز بلذة تعويضها بعد أن منعه ثراؤه من متع أخرى كمتعة السير على الاقدام أو متعة العمل لكسب الرزق .

وفي مجتمعات كهذه تسيطر عليها البحث عن المتعة في مزيد من استهلاك السلع . ولكن سرعان ما تعجز السلعة الجديدة عن توليد المتعة التي ظن المستهلك أنها ستستمر (٢٧)

أضف الى ذلك انه كلما أمعن المجتمع في زيادة انتاجه من السلع الكمالية اكتشف آثارا جانبية لها تسبب الضرر بسبب مادة كيماوية تستخدم في بعض السلع الاستهلاكية قد تسبب الاصابة بالسرطان أو الاغصا في استخدام أنواع من المبيدات الحشرية يؤدي الى التسمم ، أو أن الاستعانة باللبن الصناعي عن لبن الام الطبيعي قد يسبب أمراضا للطفل أو يحرمه من الحنان الخ (٢٨) .

وخلاصة هذا البحث تقرر أنه :

ليس هناك نهاية لما يمكن تعداده من أمثلة لما يقدمه مجتمع الرخاء المزعوم ويؤدي الى القضاء على مصادر المتعة والبهجة .

(٢٦) د. جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٥١-١٥٢ .

(٢٧) نفسه ص ١٦٠ .

(٢٨) نفسه ص ١٦٢ وينظر الفصل بعنوان (طلب الراحة وطلب المتعة)

ص ١٦٤ وما بعدها .

وإذا بالحياة تصبح أكثر راحة حقاً ولكن يكاد يموت الناس سأمًا ، وفي محاولة للتعويض عن رتابة الحياة الناتجة عن الاغراط في استخدام وسائل الراحة يقبل شباب مجتمعات (الرخاء) على مختلف أنواع العنف والمخدرات ويزداد تناول الخمر وترتفع معدلات الطلاق (٢٩) .

وبعد ، فهذه نبذة عن تخيل التقدم في صورة منافسة على الاستزادة من السلع الاستهلاكية خضوعاً للظن بأنها ستؤدي الى الرفاهية والسعادة، أو البحث عن الراحة والمتعة الى غير ذلك من أهداف .

فقد رأينا ما ترتب على جعل الهدف هو التنمية الاقتصادية حيث أصبح الانسان إما دائراً حول نفسه باحثاً عن الراحة فلا يجدها أو مستزيداً من السلع الاستهلاكية لاشباع رغباته فلا يشبع أو منحدرًا بمستواه الى الأدنى فالأدنى بالعنف والجريمة والمخدرات والشذوذ الجنسي الى غير ذلك من مظاهر النكوص عن مستوى الانسانية .

ولا نظن أن حركة الانسان على هذه المستويات الثلاث تعبر عن (التقدم) .. لان التقدم الحقيقي يرتفع بمستوى الانسان الاخلاقي بحيث يرتقى الى أعلى في سلم القيم والفضائل .

ولكن الذى حدث أن الاضطرابات التى تفجرت في أحشاء الحضارة الغربية أحدثت ازدواجاً بين الروح والجسد وأخذ الثقلان يتباعدان ، ومرد ذلك الى عدم الارتفاع بمستوى الانسان الاخلاقي

والنتائج المستخلصة من كل ما تقدم تتلخص في مخاطر كثيرة تتعرض لها الامة اذا رفعت شعار اللحاق بالغرب وحضارته ، ويكفى في التحذير من سلوك هذا المسلك ان الدراسة المتأنية العميقة بهذا الشأن تثبت أن ربط البلاد بفلك النظام الاقتصادي الغربى ونمط النقاغة الغربية يعنى محو شخصية الامة التابعة (٣٠) .

هذه هى أسرع النتائج تحققا اذا ضيقنا مفهوم (التقدم) وأخضعناه لتصورات الاقتصاديين وحدهم .

وهنا مناسبة لطرح قضية أخرى لا تقل أهمية ، وهى أن من التبسيط المخل تفسير حركات الانسان ودوافعه بعامل واحد هو زيادة الدخل ، لان الانسان كائن شديد التعقيد . ومن العبث الادعاء (بأن مبرر التنمية انها تجعل الناس أكثر سعادة ، فالسعادة كما يعرف الجميع ، تتوقف على أكثر من مجرد زيادة الدخل : فهناك مثلا الشعور بالاطمئنان على المستقبل ، وهناك الحرية ، وهناك نوع العلاقات الاجتماعية السائدة ، بل وحتى مجرد الرضا بالنصيب وكلها قد لا تتغير بزيادة الدخل بل وقد تؤثر فيها زيادة الدخل تأثيرا سلبيا) (٣١) .

لابد اذن من استناد تصور (التقدم) الى عقيدة أو (أيديولوجيا) يخضع لتصوراتها وانماطها وأهدافها .

(٣٠) د. جلال امين . تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٢٥ .

(٣١) آرثر لويس: نظرية النمو الاقتصادي، نقلًا عن المصدر السابق ص٤٧

ضرورة العقيدة أو الايديولوجيا في السعى للتقدم

يرى الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا انه لا ينبغي الفصل بين قضية (التنمية) والايديولوجيا .

فاذا عرفنا الايديولوجيا من جديد بأنها (مجموعة الافكار الاساسية التي تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم أو الموقف الاساسى الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وأمانيه فى المستقبل) .

غفى ضوء ذلك لا تصبح التنمية مجرد (نمو) كما قد يوحي أصل اللفظ ذاته ، وانما هى مسيرة شاملة توجهها ، ومن واجب كل من يتصدى لعملية التنمية فى مجتمعه أن يجيب عن أسئلة أساسية مثل :

أصلحة من تتم هذه التنمية ؟

وهل تكون التنمية اقتصادية فحسب ؟ أم تشمل المجال الاجتماعى والثقافى بدوره ؟ وما نوع المجتمع الذى نريد أن نحققه عن طريق هذه التنمية ؟ (٢٢) .

اذن نحن أمام قضايا تتصل بالمقومات الحضارية للامة فى المقام الاول، وينبغى النظر اليها من زاوية (عقيدة) الامة .

(٢٢) مقدمة كتاب (عصر الايدولوجية) ص ٧ لهنرى د. ايكن ترجمة د. فؤاد زكريا ومراجعة د. عبد الرحمن بدوى . ط الانجلو المصرية ١٩٦٣م .
وفى موضع آخر يسنبعد الدكتور فؤاد زكريا ترجمة لفظ (الايديولوجية) (بالعائدية) وبميل الى قبول الشرح الذى أتى به (ما نهيم) ويلخص فى أن اللفظ بداللق بمعنيين : أحدهما مذموم والاخر مقبول . فالعنى المذموم تكون الايديولوجية فيه هى آراء الخصم الظاهرية . التى تخفى الطبيعة الحقيقية لمؤلفه ، والننى ليس من صالح ذلك الخصم الكشف عنها . وبالعنى المقبول يقال ان ايديولوجية عصر أو طبقة ما هى الا خصائص الذهن وتركيبه فى ذلك العصر أو تلك الطبقة .

والتقدم من هذه الزاوية ذو أبعاد شمولية لينهض بالامة لتستأنف دورها ورسالتها تنفيذا لامر الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ١١٠ آل عمران •
.. وسيأتى تفسير هذه الآية في موضعه •

وعقيدة الاسلام تجعل المسلم يؤمن بأنه في حياته الدنيوية انما يعمل أيضا للأخرة • وهذه الحقيقة يجب أن تشكل قاعدة أساسية من قواعد البحث في علوم الاقتصاد وغيرها فان منهج البحث في الاسلام (أيا كانت مجالات هذا البحث ، لابد أن يركز على هذا الاساس ، ترابط عضوى بين الدنيا والدين ، والحياة الآخرة ، فالحياة وسيلة الى غاية ، واذا صلت الوسيلة صحت الغاية ، وتحقق الهدف المراد من الحياة • وفي هذا يقول الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا • •) القصص ٧٧ (٣٣) •

هذا فضلا عن استقلال الاسلام بنظامه الاقتصادى الخاص التابع من عقيدته وشريعته ، والذي يحفظ للامة الاسلامية أصالتها ويحول بينها وبين التبعية لغيرها من الامم التى لها عقائدها ونظمها الخاصة بها •

وتتضح هذه الظاهرة للباحث المنصف التى يتحرى الحق ويلتزم بالصدق • يقول العالم الاقتصادى الفرنسى المعاصر جاك أوسترى فى كتابه (الاسلام فى مواجهة التنمية الاقتصادية) بعد شرحه وتحليله المذهب الاقتصادى الإسلامى (ان الاسلام يشكل طريقا ثالثا للتنمية الاقتصادية

(٣٣) د. عبد الهادى على النجار : الاسلام والاقتصاد ص ٥ من سلسلة

(كتب ثقافية) — الكويت ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م •

وانه لا يوجد طريق وحيد وحتمى للبناء الاقتصادى كما تزعم المذاهب
الدنيوية المعاصرة من ليبرالية الى ماركسية^(٣٤) .

النظرة الشمولية للإسلام :

ولا مجال فى كتابنا هذا لبحث النظام الاقتصادى ، ولكن الذى نود
بيانه استنادا الى روح الفكرة العامة للكتاب ان تصور (التقدم) قاصرا
فقط على معدلات النمو وأرقام ميزان المدفوعات لا يتصل بمعنى التقدم
الحقيقى فضلا عن أنه بعيد كل البعد عن علاج المشكلات الاقتصادية من
منطلق اسلامى .

ويرى الدكتور محمد البهى — رحمه الله — ان اقتصاد الامة الاسلامية
اقتصاد متكامل فى ذاته ، ولكن اختلف توزيعه بين الدول الاسلامية بالنسبة
لسكانها بفعل الاستعمار الذى استهدف من تجزئته للامة أن يتمكن من
الاستغلال الاقتصادى ، وأن يبقى ضعف الامة الاسلامية ككل .

ويقول فى نص جامع :

(وكما أعز الله المسلمين باقتصاد متكامل فى أراضيهم التى يعيشون
عليها من المحيط الى المحيط والذى من أجله يتنافس عليهم ذئاب الغرب
والشرق على السواء ، فإنه قد أعزهم بدين متكامل (اليوم أكملت لكم
دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) المائدة ٣ أى منهجا
للحياة فى السلوك ، والمعاملة . وفى الترابط . وتكامل هذا الدين هو : فى بعده

(٣٤) نقلا عن كتاب الاقتصاد الإسلامى — مقوماته ومنهجه ص ٤١
للدكتور ابراهيم دسوقي اباطه وراجعه د. على عبد الواحد وافي ط دار الشعب
بالقاهرة ١٩٧٤ م .

عن الاحتراف بسياسة النظام الديمقراطي الغربى وكذلك عن التسلط فى الحكم فى النظام البلشفى الشرقى (٣٥) .

ولهذا فان النظرة الشمولية للاسلام كدين وحضارة تقتضى عدم الفصل بين عقيدة التوحيد وآثارها فى العبادات والسلوك ونظم الحياة الانسانية فى دروبها المختلفة فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

يمكن القول اذن — كما يذهب الى ذلك أحد علماء الاقتصاد — أن التنمية الاقتصادية فى الاسلام تعتبر جزءا لا يتجزأ من مضمون خلافة الله للانسان على الارض حيث يتطلب ذلك تحقيق التقدم للأفراد والمجتمع فى اطار العرفان بالشكر لله عز وجل .

ومع أن مفهوم التنمية الاقتصادية فى الاسلام لا يكتمل الا بطرح أهدافها ، فان هذا المفهوم لا يختلف كثيرا عن مفهوم التنمية الاقتصادية فى الفكر المعاصر ، اللهم الا فى الهدف من هذه العملية وما اذا كان مجرد تحقيق اشباع الحاجات المادية أم أن ذلك مرحلة لهدف أسمى وهو العبودية لله تعالى . كما فى قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) الذاريات ٥٦ (٣٦) .

والحديث عن المال وثيق الصلة بأحكام الحلال والحرام والزكاة والبر بالفقراء والتضامن الاجتماعى وغير ذلك من القيم الانسانية العليا التى لم تتوافر فى أى نظام اقتصادى لمجتمع آخر سابق أو لاحق .

(٣٥) ينظر كتابه (الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة)

ص ١٢٤ — مكتبة وهبه بالقاهرة ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

(٣٦) د. عبد الهادى النجار : الاسلام والاقتصاد ص ٧١ من سلسلة

(عالم المعرفة) بالكويت جمادى الاولى — جمادى الاخرة ١٤٠٢هـ مارس ١٩٨٢م

ولا نريد الاطالة حتى لا يخرج بنا الحديث عن القصد ، ولكننا في ضوء التوجيهات القرآنية والارشادات النبوية يتأكد لدينا أن المال بكافة صورته وأشكاله ليس هدفا في ذاته ولكنه وسيلة الى غاية في حدود ما أحله الله تعالى وأباحه •

قال تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) •

يفسر الشيخ رشيد رضا هذه الآية بقوله :

(فجعل إباحتها في الدنيا غير منافية لنيلها في الآخرة ، ولأنها قد تكون وسائل للآخرة بتكثير النسل وكثرة الصدقات والمبرات والمجاهد) (٣٧) •

وقال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) آل عمران

وفي تفسير هذه الآية قال الشيخ رشيد رضا :

(أى ذلك الذى ذكر من الانواع الستة هو ما يستمتع به الناس في حياتهم الدنيا أى الاولى والله عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة التي تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل •

وجاء التصريح بذلك في الآية التالية اذ قال تعالى (قل أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ
من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جناب تجرى من تحتها الانهار خالدين
فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) [آل عمران ١٥]
خلاصة القول أننا عندما نتصور (التقدم) قرين ارتفاع معدلات
الدخل وأرقام الميزانيات وحدها ، عندئذ نخلط بين (الوسائل)
و (الاهداف) ونلث وراء تصورات حضارية مخالفة لتصوراتنا ، ذلك أن
الانتاج بكافة صوره الصناعى والزراعى مجرد وسائل فى التصور الاسلامى
اذ أن المسلم يؤمن بأن الدنيا مزرعة على سبيل الابتلاء والاختبار •

إذا قال عز وجل (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيما أحسن عملا)
[الكهف آية ٧٠]

أضف الى ذلك أن الانشغال بالوسائل عن الغايات ينسى الامة
الاسلامية دورها الجوهرى الذى لا ينبغى نسيانه أو العدول عنه الى
أهداف أخرى •

أما الخضوع لاهداف حضارة العصر والجري وراء التنمية وجعل كل
همها الاستزادة من الرفاهية ، فسيؤدى الى فقدان الامة لهدفها الاصلى
ويجعلها تجرى وراء سراب لن تدركه ، ويدور بها فى فلك التقليد ، ذلك لان
حضارة الغرب تجعل موازين التقدم قاصرة على الانتاج المادى ولا تعتد
الابالموازين الاقتصادية وتلقى وراء ظهرها بما لا يخدم هذا الهدف •

ولو تطلعنا الى التماس النموذج الواقعى للمجتمع الاسلامى الذى
حقق الحضارة الاسلامية بمقوماتها الروحية — والمادية بالنظر الى عصره
— لوجدناه متحققا فى عهد المسلمين الاوائل ، (حيث كانت السمة البارزة

للمجتمع الاسلامى الصحيح فى عصر الصحابة والتابعين وهو المقياس النبوى الذى يقاس به الناس فى كل عصر ومصر ، مهما تغيرت الظروف ومهما تقدمت المدنية وتعقدت الحضارة واختلطت الوسيلة والغاية (٣٨) .

ان هذه السمة الثابتة — فى رأى الاستاذ محمد الحسنى رحمه الله تعالى — تميز الانبياء عليهم السلام ، فكانوا يعيشون كما يعيش الناس بمتعها كلها ، ولكن لا تذهلهم — لدقيقة واحدة — عن ايمانهم بأنهم ذاهبون الى الآخرة . وكانت هذه الروح (تسرى فى أصحابهم وتخلق منهم انسانا آخر يتحرك شوقا الى الجنة وحنينا الى الآخرة وسعيا الى الجهاد وسابقا فى الخيرات) (٣٩) .

وهنا أن لنا معرفة تفسير قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ١١٠ آل عمران . حيث اختلفت الاراء حول كون الوصف بالخيرية ينطبق على المسلمين الاوائل دون الأجيال المتأخرة : أم أن الوصف يشملهم جميعا اذا ما حققوا شرط الله تعالى فيهم .

يرى الحافظ ابن عبد البر — استنادا الى قول بعض العلماء : كنتم بمعنى أنتم خير أمة . وقيل : كنتم فى علم الله تعالى ، ومعلوم أن مواجهة رسول الله ﷺ لأصحابه بقوله : أنتم خيرها اشارة بالتقدمة فى الفضل اليهم على من بعدهم (٤٠) .

(٣٨) محمد الحسنى : الاسلام المتحن ص ٧٨ ط المختار الاسلامى

١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

(٣٩) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٤٠) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ق ١ ص ٩ تحقيق على

البجاوى — مكتبة نهضة مصر بالقاهرة .

وقد عرض الامام القرطبي في تفسيره لاقوال أخرى ، منها قول مجاهد : كنتم خير أمة اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : انما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لان المسلمين منهم أكثر ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى .

كما أورد الحديث الذي أورده أبو داود الطيالسي في مسنده . مسنده . — عن النبي ﷺ انه قال ، (أتدرون أى الخلق أفضل ايماناً ؟) قلنا الملائكة قال : وحق لهم بل غيرهم قلنا : الانبياء ، قال : وحق لهم بل غيرهم ، ثم قال رسول الله ﷺ (أفضل الخلق ايماناً قوم فى اصلااب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق ايماناً) (٤١) .

كذلك استند الى الحديث (ان امامكم اياما الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجل يعمل مثل عمله) قيل : يا رسول الله . من هم ؟ قال : بل منكم . وقال عمر بن الخطاب فى تاويل قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم .

ويرى القرطبي انه لا تعارض بين الاحاديث ، لان حديث الرسول ﷺ (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم) — على الخصوص . ثم يستشهد بأحاديث أخرى ترجح ما ذهب اليه : مثل قوله عليه الصلاة والسلام (بدأ الاسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) ، والحديث الذى ذكره الدارقطنى فى مسند حديث مالك (أمتى مثل المار لا يدرى أوله خير أم آخره) .

أما وجه المقارنة بين السابقين الاولين ومن جاء بعدهم ، فان عصر

(٤١) تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) ص ١٤١٤ ط دار الشب

بالقاهرة جمادى الآخرة ١٢٨٩ هـ اغسطس ١٩٦٩ م .

النبي ﷺ إنما فضل لان أهله كانوا غرباء في ايمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وان أواخر هذه الامة اذ أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء ، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم (٤٢) .

وينتهي الامام القرطبي الى تقرير ان الاحاديث الواردة في هذا الصدد تقتضى مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الامة وآخرها . ويذهب الى أن الايمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذى يرفع فيه أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويذل المؤمن ويعز الفاجر ويعود الدين غريبا كما بدأ ، ويكثر القائم فيه كالقابض على الجمر ، فيستوى حينئذ أول هذه الامة بآخرها في فضل العمل — الا أهل بدر والحديبية (٤٣) .

ومصادق ذلك أيضا في كتاب الله في أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) آية ٣ وفي سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) ١٠ وفي سورة الانفال (والذين آذنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) آخر السورة .

وبين قوله تعالى (باحسان) ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من المهفوات والزلات اذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم) .

(٤٢) نفسه ص ١٤١٤ ولعله يقصد بتخصيص الحديث (خير الناس قرنى) أهل بدر والحديبية .
(٤٣) نفسه ص ١٤١٥ .

وأضاف القرطبي الى ذلك شطرا من قول الرسول ﷺ (وددت أقا
قد رأينا اخواننا ٠٠) فجعلنا أخوانه ، ان اتقينا الله واقتفينا آثاره (٤٤) .

ومع أن الآية الانفة وغيرها من الايات تصف الامة بالامر بالمعروف
والنهي عن المنكر (التوبة آية ٧١) ، فإن ذلك لم ينس الامام الحسن
البصرى (١١٠ هـ) أن ينبه المسلمين فرادى أيضا ، حيث ارتفع صوته منذ
نحو ثلاثة عشر قرنا يقول (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر : فهو خليفة
الله في أرضه : وخليفة رسوله ﷺ وخليفة كتابه) (٤٥) .

ان الحرص على تنفيذ معدلات (التنمية) . حتى لو فرض امكان
تنفيذه يحمل في طياته تحطيم الكيان الذاتى والنفسى للامة وتحويلها الى
أمة مقلدة تابعة .

وأود المتنويه مرة أخرى الى التحذيرات الشديدة التى وردت على
لسان عالم اقتصادى خبير بطرق الخزو الحضارى الغربى من خلال قنوات
التعليم والحملات الدعائية الموجهة للمستهلكين على اختلاف مستوياتهم
الثقافية والاجتماعية .

وأوجه عناية القارئ الى هذه العبارة التى ينبغى أن تكتب بحروف
من نور حيث يقول الدكتور جلال أمين : (انها تدرك — أى الشركات
المسماة بمتعددة الجنسيات — تمام الادراك انها اذا أرادت أن تبيع فعليها
أن تهزمنها نفسيا أولا . ومن ثم فإن السلاح المضاد الذى يجب استخدامه

(٤٤) الجامع لاحكام القرآن لابی عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبي

ص ٣٠٧٧—٣٠٧٩ شوال ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

(٤٥) نفسه ص ١٢٨٩ .

ضدها ، اذا أردنا حماية استقلالنا الاقتصادى والسياسى ، يجب أن يكون
فى الاساس سلاحا ثقافيا أيضا (٤٦) .

ولكن مجتمعاتنا خلطت مع الاسف فى عصورها المتأخرة بين التقليد
الاعمى لانماط وسلوكيات الحضارة الغربية فى اللبس والمأكلو المسكن وبين
اقتباس العلوم والمعارف المتطورة التى تؤدى الى التقدم الحقيقى فى مجال
الانتاج الزراعى والصناعى والعسكرى حيث اكتفينا بالتقليد وحده ظنا منا
أنها تؤدى الى العصرية والتمدن .

وامتد التقليد الى ما هو أخطر من ذلك وبيت القصيد فى الحضارات
ومقومات الامم — أى الشئون الثقافية (٤٧) .

ولو تعلمنا الدرس من الصين لما حدث لنا ما حدث من هزيمة
نفسية أمام الغرب وحضارته . وهى أشد ما يصيب الامم والشعوب اذا
ما تخلت عن معرفة عقائدها وأهدافها .

(٤٦) د. جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١١٩ .
ويرى أنه يجب اغلاق الباب أمام منتجات يريد البائع الغربى او الشرقى
بيعها لنا على أنها ثمرات التقدم الإنسانى وهى ليست أكثر من افرازات طموحه
الخاص او حتى ، فى كثير من الاحيان اعراض امراضه الخاصة ص ١٢٠ .
(٤٧) يفصل الدكتور جلال امين هذه الالوان من السلوك المقلد فيقول :
(اذا لبس شبابها — أى الولايات المتحدة الامريكية — السراويل الزرقاء
الملاصقة للجسم ، ارتداها شبابنا وعدوها مظهر العصرية والتمدن . واذا تركوا
شعورهم تغطى آذانهم تركناها تغطى آذاننا ، واذا أكلوا اقرص اللحم عديمة
الطعم والخالية من اللحم وغطوها بسائل يشبه الطماطم أكلناها وافتتحنا لها
مطاعم تتخصص فى تقديمها . واذا أقاموا مبانيهم الشاهقة والطاردة للشمس
والهواء واستعاضوا عنها بأجهزة تكييف الهواء ، فعلنا أيضا مثل ذلك وشعرنا
بالفخر بما صنع . وكما فعلنا فى اللبس والمأكل والمسكن فعلنا فى شئوننا
السياسية والثقافية ..

د. جلال امين (تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٢٩) .

ويتلخّص الدرس في أنه لا ينبغي أن نسمح بالاستهتار بمبادئنا الدينية أو إثارة الشك حول ملامتها للعصر لأن من يفعل ذلك فإنه يسهم في قتل نفسه الأمة .

وعلى العكس فإنه يجب استعادة المسلم لثقته بنفسه والقيمة الاجتماعية الكبرى لتمسك المسلم بعقيدته هي أن هذا هو أئمن شيء لديه (٤٨) .

ان الصينيين لم يسمحوا لاي مذهب غريب عليهم بأن يثير لديهم الشك في تفوق نظرتهم الخاصة الى الامور .

هذا هو الدرس الذي ينبغي أن نتعلمه منهم — أي أن أساس بناء الحضارة هو إثارة الشعور القومي العارم والاعتقاد بالتفوق على الغير أو على الأقل برغبة قوية في اثبات الذات وبأنها ليست بأقل قدرا من الامم الاخرى ، وكلها تجتمع فتفجر الطاقة النفسية .

ولا يسعنا أمام هذه التحليلات الصائبة الا تأييدها مع ضم صوتنا الى صاحبها حين يقول (ومن الغريب ألا نرى ان هذه الطاقة النفسية الكامنة لدى العرب والمسلمين لا يمكن تفجيرها الا عن طريق الدين) ثم يحذر من المبالين باعادة تفسيره بقوله : حذار كل الحذر من أن تؤدي محاولتنا لاعادة اللعان الى الذهاب الى احداث أي خدش به (٤٩) .

(٤٨) د . جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٢٤ .
ويضيف الى ذلك ان هناك دولا اخرى تنادى بالعودة الى التراث ص ١٨٨
(٤٩) نفسه ص ١٢٦ وينظر اقتراحات المؤلف للتنمية وفن الاصول الصحيحة التي يذكرها تفصيلا ، شرط الا تؤدي الى التطل الحضارى وتشويه شخصية الأمة حيث يرى ان عملية تعريب المجتمع العربى تسمى خطأ بالتمدين او التحديث أو بناء مجتمع مصرى ص ٦٩ .

ونظن أننا أقنعنا المطالبين باعادة تفسير الدين بالكف عن محاولاتهم — أن صحت نواياهم — لاننا أثبتنا بعون الله تعالى في الفصل السابق — كيف رفع أتباع البابية والبهائية والقاديانية نفس الشعار ولكن بكلمات مختلفة ، فهدموا أركان الدين بدلا من اعادة تفسيره .

فهل لنا جميعا أن نلوذ بمنهج السلف من جديد ؟

ان تجارب الشعوب الأخرى مثل الصين واليابان وألمانيا وغيرها في تنافسها على التقدم واحتلال مكان الصدارة والنفوذ بين دول العالم ، قد تنبّهت الى ضرورة المحافظة على مقوماتها الذاتية حتى لا تتميع فيسهل هزيمتها وفقدانها لكيانها .

وكانت الأمة الإسلامية أسبق الأمم في معرفة هذه الحقيقة على هدى الشرع — قبل هدى التجارب — كما اهتم علماءها بتحذيرها وانذارها كلما جنح البعض عن تعاليم الشرع ، لكي ترتقى مرة أخرى فتتسلك طريق السلف انصياعا لأوامر الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وقد استقرأ ابن تيمية الايات القرآنية والاحاديث النبوية الامرة بترك التشبه بالأمم السابقة .

حيث استخلص في النهاية ان مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح للمسلمين لان جميع الايات دالة على ذلك ، كذلك هناك من الايات ما يدل على أن مخالفتهم واجبة .

وبصرف النظر عن دلالة الوجوب عن غيرها فان مخالفتهم مشروعة في الجملة (٥٠) .

(٥٠) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص

١٧ ، بتحقيق محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

وسياتى تعليله وبيانه للحكمة من المخالفة ابقاء على ذاتية الامة
الاسلامية ومحافظة على كيانها المتميز عن الامم السابقة التى انحرفت عن
الصراط المستقيم •

أدلة الكتاب والسنة :

يرى شيخ الاسلام ان دلالة الكتاب على خصوص الاعمال وتفصيلها
انما تقع بطريق الاجمال والعموم أو الاستلزام ، وتأتى السنة لتفسر الكتاب
وتبينه ، وتدل عليه وتعبر عنه •

والتراما بهذا الاصل يذكر آيات من الكتاب الحكيم ويتبعها بالاحاديث
المفسرة لمعانى ومقاصد الايات •

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء
بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) المائدة ٥١ •

وقال سبحانه :

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله
ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم
الايمن وأيدهم بروح منه — الى قوله أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم
المفلحون) ٢٢ المجادلة •

وكذلك ما ورد في السنة ، فقد كان النبي ﷺ يكره مشابهة أهل
الكتابين في الاصر والاغلال — حيث كان من صفته عليه الصلاة والسلام
كما قال تعالى (ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم)
الاعراف ١٥٧ •

لهذا فإنه زجر أصحابه عن التبطل وقال (لا رهبانية في الاسلام) وأمر

بالسحور • ونهى عن المواصلة ، وقال فيما يعيب أهل الكتابين ويحذرنا عن موافقتهم (فثلك بقاياهم فى الصوامع) (٥١) •

واننا نرجح أن كتاب شيخ الاسلام (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) يحمل بين طياته أبلغ الدلالات وأقواها فى تخدير الامة الاسلامية من تقليد غيرها ، ذلك لان الامة الاسلامية تميزت بخصائص تميزها عن غيرها من الامم وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة بالمعنى الحضارى الصحيح حيث تتميز الحضارات كما قلنا بالعقائد والقيم والسلوك فى المقام الاول ثم تأتى فى المرتبة التالية المنتجات المادية وقد نهى النبى ﷺ عن التشبه بالامم الاخرى ، فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، خفيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس الا أولئك) ؟

وقد عاصر شيخ الاسلام ابن تيمية ألوانا من تقليد فارس والروم فحذر منه ونبه اليه (فقد دخل منه فى هذه الامة من الآثار الرومية قولا وعملا ، والآثار الفارسية قولا وعملا : مالا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الاسلام ، وبما حدث فيه) (٥٢) •

ولا ندرى لو عاش معنا الشيخ فى عصرنا الحاضر ماذا عساه أن يقول ..

وعلى أية حال فانه يوضح المعالم الخاصة بهذه الامة استنادا الى

(٥١) المصدر نفسه ص ٤٨ •

(٥٢) ص ٥ اقتضاء الصراط المستقيم المصدر نفسه ص ١٠

فهمه الى آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ ، ويحلل الآثار الناجمة عن التشبه بالأمم الأخرى .

وكطريقة ابن تيمية في عرض أفكاره يبدأ بشرح المقصود بالصراط المستقيم بأنه يتضمن أمورا باطنة وأخرى ظاهرة . والباطنة مقرها القلب : كالاتقادات والارادات وغيرها . والظاهرة : كالأقوال والأفعال .

وهذه الأعمال الظاهرة قد تكون عبارات . وقد تكون أيضا عادات : في الطعام واللباس . والزواج والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والاقامة والركوب وما شابهها .

والقاعدة الكلية التي ينبني عليها الحكم هي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم : قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم : مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة .

وبتطبيق هذه القاعدة طردا وعكسا فنحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين من السلف الصالح من المهاجرين والانصار ، في أعمال لو أنهم فعلوها لربما لا يكون لنا فيها مصلحة ، لأن متابعتهم يورث محبتهم وإتلاف قلوبنا بقلوبهم ويدعونا أيضا الى موافقتهم في أمور أخرى (٥٣) .

وهكذا ينبهنا ابن تيمية الى أصل جوهرى من أصول استمرار الحضارة الإسلامية وفقا لارتباطها بجذورها التي ازدهرت في العصور الاولى بفضل ما حققه الاوائل من أعمال ، بحيث اننا نضمن عند متابعتنا لها ، من استمرار

(٥٣) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٢ .

هذه الحضارة ، فان أية حضارة ما هي الا ثمرة العقائد والاعمال ، وقد عبروا بهما عن القمة وبلغوا فيهما الذروة .

ويشرح ابن تيمية منافع الاعمال الصالحة في ذاتها ويعمل الحكمة من المتابعة أو المخالفة وأثرها على النفوس البشرية .

ويستدل على ذلك بما هو مجرب ومحسوس فان الملابس لثياب أهل العلم — مثلا — يجد في نفسه نوع انضمام اليهم . والملابس لثياب الجند المقاتلة مثلا ، يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ، ويصير طبعه مقتضيا لذلك (الا أن يمنعه من ذلك مانع) (٥٤) .

وعلى العكس من ذلك فان المخالفة في الهدى الظاهر ، توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال والانعطاف الى أهل الهدى والرضوان ، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين . وكما كان القلب أتم حياة وأعرف بالاسلام (ويستطرد ابن تيمية : لست أعنى مجرد التوسم به ظاهرا ، أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية ، من حيث الجملة كان احساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهرا أتم ، ويعد عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين : أشد) (٥٥) .

ويبلغ شيخ الاسلام الذروة في تحليله لسبب المنع حيث يرجعه الى التأثير المتبادى بين الروح والجسم ، أو الانفعالات النفسية وأعمال

(٥٤) المصدر نفسه ص ١١ .

(٥٥) المصدر نفسه ص ١٢ .

وابن تيمية هنا في تحليله للصلة بين الملابس والنفوس البشرية اسبق من كارليل صاحب كتاب (فلسفة الملابس) . يقول كارليل (من ذا الذى رأى منكم احدا من اللوردات يحبب الناس بدعته وهو فى أسهل رثة واطمار بالية .. الخ) ص ١٩٦ ترجمة طه السباعى — مطبعة البشلاوى بمصر سنة ١٩٢٧ م .

الجوارح الظاهرة ، اذ أن الامور الباطنة من اعتقادات وارادات كالاقيوال والافعال من عبادات وعادات وغيرها ، هذه الامور الباطنة والظاهرة لا بد بينهما من ارتباط ومناسبة (فان ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الاعمال : يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً) (٥٦) .

وتفسير ذلك ان طاعة الله تعالى وعبادته والخضوع لاوامره والانتفاء عن نواحيه تورث انشراحاً في الصدر وسعادة في النفس ونوراً في القلب ، وبالعكس من ذلك فان المعاصي تورث كآبة النفس وظلمة القلب وتسبب الغم والحزن والضيق .

وأصل ذلك في وصف الفريق الاول قوله تعالى (أولئك سيرحهم الله) ، والفريق الثاني قوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) (اشارة الى ما هو لازم لهم في الدنيا والاخرة : من الالام النفسية عما وحزننا ، وقسوة وظلمة قلب وجهلا ، ان للكفر والمعاصي من الالام العاجلة الدائمة ما الله به عليم . ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم الا بما يزيل عقولهم ويلهى قلوبهم ، من تناول مسكر ، أو رؤية ملة — أى ملاهى — أو سماع مطرب ونحو ذلك) (٥٧) .

الزمن كمقياس للتقدم :

أما نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن ، فقد تعرضت لامتحان شديد في العصر الحديث : وبعد توالى ظسواهر تنبىء عن الازمات في المعالم الغربى المتقدم مثل (انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخدرات

(٥٦) المصدر نفسه ص ١١ .

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

وضلال الشبان في متاهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والازياء ، واتساع نطاق الجريمة المنظمة والارهاب) •

•• وما هي اذن الحقيقة الا خطوات مسرعة للتقدم نحو البربرية (٥٨) وبالعكس ، اننا نرى أن المجتمع البدوى أكثر تقدما اذا قيس بمقياس التقدم الاخلاقى المعنوى برغم تضحيته بالافراد أحيانا للمحافظة على كيانه العام من أى تحلل • وقد يوقفه هذا المسلك فى مكانه ثابتا ويمنعه من اجتياز خطوات نحو ما تسميه المجتمعات الغربية بالتقدم ، ولكنه يحتفظ بالصلاية فى تكوينه وحيويته ، ولهذا فهو فى العادة أطول عمرا وأقل مرضا وتعبا من الجماعة المتقدمة ، وأفراده فى العادة أوفر نصيبا من السعادة اذ كانت السعادة هى الاطمئنان على النفس والاهل والمال وراحة الضمير وخلو البال (٥٩) •

ان البدوى فى حياته المستقرة الهادئة أسعد حالا من الغربى المتقدم عليها الذى يجرى وراء سراب لن يصل اليه . ذلك لان عالم الغربى هو عالم صيرورة أبدية ، أى حدوث فانقضاء • انه يفتقر الى الهدوء والاستقرار (الزمن عدوه الذى يجب أن ينظر اليه دائما بمنظار الشك والريبة) (٦٠) •

واذا جازت المقارنة بين هذين النوعين من المجتمعات فلا يظن ظان أننا ندعمر أو نحبز طريقة الحياة البدوية أو البدائية • فان سعادة البشر الحققة فى رأينا تبلغ ذروتها فى الحياة الدنيا اذا أضمننا الى وسائل التقدم العلمى تحقيق درجات الرقى الاخلاقى الشامل بمدلوله الاسلامى المتضمن

(٥٨) د. حسين مؤنس — الحضارة ص ٣٥٨—٣٥٩ •

(٥٩) المصدر نفسه ص ٢٥٦ •

(٦٠) محمد أسد — الطريق الى الاسلام ص ١٣٩ •

الايمان والعمل الصالح كما فعل المسلمون الاوائل . وهم السابقون الاولون .

ويعضد ذلك ما نقله القرطبي عن ابن العربي في تفسير الاية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) من آية ١٠٠ التوبة .

ان السبق يكون بثلاثة أشياء :

الصفة وهو الايمان والزمان والمكان .

ثم يرجح سبق الصفات فيقول (وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ، والدليل عليه قوله ﷺ في الصحيح (نحن الاخرون الاولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فأوتيناهم من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، فهدانا الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد) فأخبر النبي ﷺ أن من سبقنا من الامم بالزمان سبقناهم بالايمان والامتنال لامر الله تعالى والانقياد اليه ، والاستسلام لامره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض ولا نختار معه ، ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب) (٦٠) .

ثانيا : لا يصلح الزمن مقياسا للتقدم :

يقول السير جيمس :

(ان قوانين الطبيعة الأساسية ، بقدر ما نعرفها في الوقت الحاضر ، لا نقول لنا ان يمر الزمن بلا انقطاع ؟ بل هي مستعدة لان تجيز احتمال بقاءه ثابتا لا يتحرك بقدر ما تجيز احتمال رجوعه القهقري ، ذلك أن تقدم الزمن الى الامام بلا انقطاع ، وهو جوهر الصلة بين العلة والمعلول ، انما

هو شيء أضفنا من تجاربنا الخاصة الى قوانين الطبيعة المحققة ، ولسنا ندري هل هو متأصل في طبيعة الزمن ، وان كانت نظرية النسبية تبهم أن تسم الرأي القائل بتقدم الزمن تقدما مستمرا ، وبوجود الصلة بين العلة والمعلول تبهم أن تسم هذا الرأي بميسم الوهم والخداع (٦١) .

وبعد هذا التعريف المستفيض للزمن ، أيقن للإنسان أن يتخذه مقياسا للتقدم أو التأخر ؟ اننا نمضى معه رغما عنا ، فكيف نميز بين خطيواتنا ونحن نلزمه ويلزمننا ؟ ثم انه لابد أن تدور عجلته ليتحول الحاضر أمس ، وقد قيل : كل غد صائر أمس) .

الزمن في القرآن الكريم :

اننا في عصر ثبت أن الزمن اضافى وأن غروق الحال والمستقبل في الاشياء لا تكون طبقا لحقيقة تلك الاشياء ، بل طبقا لمشاهدتنا المحدودة (٦٢) .
واذا اعتمدنا على القرآن الكريم لاستطلاع الايات التى تتناول الزمن ، نرى ورود الايات تارة للاشارة الى الحياة الدنيا بأنها مؤقتة وليست دائمة (ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) ٣٦ البقرة .

أو الزمن الكونى :

(الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . سورة السجدة .

(٦١) الكون الغامض ص ٣٢ لسير جيمس جينير ترجمة عبد الحميد مرسى ومراجعة د. على مصطفى مشرفة ط الاميري سنة ١٩٤٢ .
(٦٢) وحيد الدين خان — الاسلام والعصر الحديث ص ٢٧ ط المختار الاسلامى القاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

ويذكر في بعض الايات كعلامات للاهتداء :

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحسونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) ١٢ الاسراء • ولعرفة مواقيت الصلاة والزكاة والصيام والحج •

وقد ورد في الحديث :

... وانما الاعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما اني الاخرة (المنذرى : الترغيب والترهيب ج٤ ص ٩٦ وقال رواه الاصبهاني من رواية ثابت بن محمد الكوفي الناباذ •

وما أدق التشبيه في الحديث لحث الانسان على أخذ نصيبه من العبادات والاعمال للترقى في الكمالات الانسانية وصولا الى جنة الخلد (٦٣)

وفي حديث يوم النحر ، قال الرسول ﷺ : (ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، السنة اثنتى عشر شهرا منها أربعة حرم •) الحديث • وفي الحديث تحديد لشهور العام والتنصيص على أربعة حرم متفق عليه •

(٦٣) والحياة الدنيوية مزرعة الاخرة ، وعلى المسلم انتهاز فرصة عمره للاستزادة من الخيرات ما استطاع الى ذلك سبيلا حتى يبلغ أعلى الدرجات في آخرته •

أورد ابن رجب حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم ثم مات الثالث على فراشه بعدهما فرؤى في النوم سابقا لهما ، فقال النبي ﷺ (اليس صلى بعدهما كذا وكذا صلاة وأدرك رمضان فصامه ، فوالذى نفسى بيده ان بينهما لا بعد مما بين السماء والارض) وقال ابن رجب : خرج به الامام أحمد وغيره (لطائف المعارف .. ص ١٥٦) •

أما الزمن بمدلوله التاريخي فقد أقامه القرآن على أساس ثابت سماه
(سنة الله) تحذيرا وانذارا لبني آدم ، فدمار الأمم له تبريره الموضوعي .
والظلم مثلا سبب للانتقام الالهي • (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي
ظالمة أن أخذهُ أليم شديد) هود ١٠٢ • (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم
وأهلها مصلحون ،) هود ١١٧ •

وكذلك بالنسبة للأفراد ، فقارون وفرعون وهامان وغيرهم (نماذج
بشرية عرضها القرآن موضحا أعمالهم ومبينا نهاية ما حصدوه ، تنفيذا
لنفس السنة أو القانون الالهي) ومهما كانت الأزمنة أو الأعصار التي تظهر
فيها الأمم أو الأفراد ، لان سنة الله لا تتبدل ولا تتحول •

ثالثا : التقدم في الاسلام :

إذا استبعدنا لفظ (التقدم) وما شابهه من ألفاظ كالتطوير والثوريه
والتجديد وما اليها ، بسبب ترزع مدلولاتها وذبذبة مفاهيمها ، جاز لنا
استبدالها بما أقره الاسلام وحث عليه من اكتساب الفضائل ونيل
الرزائل لتمكين الانسان من تحقيق مقام الخلافة في الارض • مجددا
الضوابط والمعايير التي لا تتغير أو تتبدل بتغير الزمان والمكان •

وتضمنت الايات القرآنية الاوامر والنواهي واحتوت على الوعد
والوعيد متوجهة بالخطاب الى لغيرة الانسان تحسن العدل والصدق والعلم
والاحسان ، وتقبح أصدادها •

قال تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم
بين الناس أن تحكموا بالعدل) النساء ٥١ وقال عز وجل (ان الله يأمر بالعدل

والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى : يعظكم
لعلكم تذكرون (النحل ٩٠ •

ويقتنضى الوقوف على بعض معانى التقدم أن نستعرض آيات من
الكتاب الكريم ونبذة من الاحاديث النبوية بادئين بالاول :

(١) فى الكتاب :

ها هو كتاب الله بين أيدينا — وكذلك السنة — كلاهما يوضحان مراتب
أحسن النماذج الانسانية ، ويحثان على الارتقاء والسمو لاكتساب
الفضائل التى بدونها لا يصبح الإنسان انسانا : قال عز وجل (وسارعوا
الى مغفرة من ربكم) ١٣٣ آل عمران • وقال سبحانه وتعالى : (فاستبقوا
الخيرات) ومدح قوما بقوله (يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ٦١
المؤمنون •

والنظر فى القرآن الحكيم يدلنا — فيما يرى الراغب الاصفهاني —
على درجات الارتقاء الاخلاقى ويحثنا على التسامى • ففى طرق الارتقاء
ودرجاته يذكرها على الترتيب الاتى :

فلولها أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على
ترك مقاومتها وذلك أول درجة التائبين الطيعين • وثانيها أن يقوم
بالعبادات المفروضة عايه ، ويسارع فيها بقدر وسعه • وتلك درجة
الصالحين • وثالثها أن يتحرى بعلمه الحقيقى تعاطى الحسنات من غير
تلف من الى المحظورات بمجاهدة هواه واماته شهواته المحرمة وتلك منزلة
الشهداء • ورابعها أن يكون من هذه الاحوال المتقدمة برضى ، ظاهرا وباطنا
بقضاء الله تعالى ، فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئا من أمره ، ويعلم
أن الله تعالى أولى به من نفسه وتلك درجة الصديقين • وهذه المنازل الاربعة

المرادة بقوله تعالى : (ومن يطمع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) (٦٥) .
أما عن مهوى الانحدار ودركاته ، فقد وردت آيات كثيرة تحذر من
انحدار الانسان وسقوطه الى مهوى الرذائل : فمنها (ولا ترتدوا على
أدباركم فتنقلبوا خاسرين) ٢١ المائدة .

ويوضح لنا الاصفهاني ترتيبا تنازليا لدركات الانحدار والارتداد :

فأولها الكسل عن تحرى الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ لقوله تعالى
(فلما زاغوا أزع الله قلوبهم) ه الصف . وثانيها الغياوة وهي ترك النظر
ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه لقوله (كلا بل ران على قلوبهم
ما كانوا يكسبون) ١٤ المطففين . وثالثها الوقاحة وهي أن يرتكب الباطل
ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب . (ثم قست
قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ٧٤ البقرة . ورابعها
الانهماك في الباطل ، وهو أن يستحسنه فيجبه فيورثه ختما على قلبه وأقفالا
عليه . كما قال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة) ٧ البقرة . وكما قال (أم على قلوب أقفالها) ٢٤ سورة محمد .

فحق الانسان أن يراعى نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب
الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر (٦٦) .

(ب) السنة :

لو أحصينا أحاديث الرسول ﷺ التي يحض فيها على الارتقاء والتقدم

(٦٥) الراغب الاصفهاني : الزريعة الى مكارم الشريعة ص ٦٨ تحقيق
طه عبد الرؤوف سعد . ط مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م .
٦٦ المصدر السابق ص ٦٤ .

لما كفتنا كتب ومجلدات ، ولكن يلاحظ المتتبع اياها : أن الرسول يتجه في ترغييه وترهييه الى الانسان على الحقيقة — أى نفسه وروحه وقلبه — لانها أساس تقدمه ورقيه ، اذ لا تنهض حضارة من الحضارات ولا تضمن بقاءها الا بعد استكمال غذاء القلب والروح وشحن الارادة وتهذيب الاخلاق ، وتجعلها في المرتبة الاولى قبل مظاهر الحضارة المادية من اقامة مصانع وانشاء مدن وشق طرق وبناء مدارس وجامعات ومستشفيات .

وربما خيل للكثيرين — من المسلمين أنفسهم — أن السنة تعنى فقط بالجانب التشريعى من الاسلام من تحليل وتحريم وإباحة ، أو الارشاد الى أنواع العبادات وكيفية اقامتها وأوقاتها وشروطها وممراتها . ولكن الحقيقة أن هناك جانبا كبيرا في السنة القولية والعملية متضمن ارشادات وتوجيهات في الحياة الانسانية دقيقها وجليلها ، في صورتها الفردية والاجتماعية فأنشأت بذلك الى منارات التقدم الحقيقى لكى يهتدى بها الانسان .

وكان الرسول ﷺ — وسيظل — القدوة فيها كلها حتى أحبه أصحابه — رضوان الله عليهم — أكثر من حبهم لانفسهم . وسيبقى كذلك للمسلمين ما دامت الحياة .

قال عروة بن مسعود يصف أحوال الصحابة لقومه : (أى قوم ، والله لقد وهدت على الملوك ، ووهدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، ﷺ (٦٧) .

وما أحوج البشرية عامة ، والمسلمين خاصة الى الاسترشاد بسنته

في دروب الحياة ومسالكها المتشعبة ، اذ لم يترك الدنيا الا بعد أن تحدث وأوضح كل شيء •

ففى حديث جامع :

عن معاذ قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ نمشى قليلا ثم قال : يا معاذ ، أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهد وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الامام ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة والجزع من الحساب ، وقصر الامل ، وحسن العمل ، وإياك أن تشتم مسلما ، أو تصدق كاذبا ، أو تعصى اماما عادلا ، وأن تفسد في الأرض •

يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية (٦٨) •

والاحاديث النبوية في الحث على مكارم الاخلاق ، والرقى الانساني وتقدمه ، لا حد لها ولا هصر ، ولكن حسبى أن سقت مثالا بما يناسب هذا الكتاب في غرضه وحججه •

والله ولي التوفيق ،،،

(٦٨) المنذرى — ج٣ ص ١٠٧-١٠٨ الترغيب والترهيب . وقيل رواه البيهقي في كتاب الزهد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد •

المراجع

— القرآن الكريم •

(١)

— الاسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله •

دار الكتاب العربى بيروت سنة ١٩٦٩م

— أسس الفلسفة

د • توفيق الطويل — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥م •

— الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر •

د • محمد محمد حسين — مكتبة الاداب — القاهرة سنة ١٩٦٨م •

— الاتجاهات الحديثة فى الاسلام •

محمد بهجة الاثرى — ط السلفية •

ث أرنولد توينبى

عرض ودراسة لمعى المطيعى — ط دار الكتب العربى سنة ١٩٦٧م •

— الايمان •

ابن تيمية — ط أنصار السنة المحمدية — القاهرة •

— أعلام الموقعين

• ابن القيم

- الاعتصام للشاطبي •
- ط دار التحرير سنة ١٩٧٠م •
- الله في الفلسفة الحديثة
- جيمى كوكفير — ترجمه فؤاد كامل ط مكتبة غريب بالفجالة ١٩٧٣م •
- الاسلام وقوانين الوجود •
- د. محمد جمال الدين الفندى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م
- ابن تيمية والتصوف •
- د. مصطفى حلمى ط • دار الدعوة — اسكندرية •
- الازهر موقف الامة الاسلامية من القاديانية ١٩٧٦م •
- العرب والنموذج الامريكى •
- د. فؤاد زكريا • ط دار الفكر المعاصر — القاهرة سنة ١٩٨٠م •
- الاسلام والاقتصاد •
- د. عبد الهادى على النجار — الكويت سنة ١٩٨٣م •
- الكون الغامض •
- جيمس جنيز — ترجمة عبد الحميد مرسى ط الاميرية سنة ١٩٤٢م •
- الاسلام والعصر الحديث
- وحيد الدين خان — ط المختار الاسلامى سنة ١٩٧٦ •

— الانسان الكامل كما يراه محمد اقبال •

مجلة البعث الاسلامى — الندوى — لكهنؤ الهند محرم ١٣٩٧ هـ —

• ١٩٧٧ م

— الاسلام والغرب والمستقبل •

أرنولد توينبى — تعريف د • نبيل صبحى ط دار العروبة — بيروت

• ١٣٩٩ هـ — ١٩٦٩ م

— آراء فلسفية فى أزمة العصر •

أدرين كوج

— الطريق الى الاسلام •

مخلد أسد •

— اقتضاء الصراط المستقيم •

ابن تيمية — تحقيق محمد حامد الفقى ط • السنة المحمدية ١٩٥٠ م •

— الجامع لاحكام القرآن لآبى عبد الله القرطبى

شوال سنة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م • ط • دار الشعب •

— الاسلام الممتحن

ط • المختار الاسلامى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

— الاسلام فى ظل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة •

مكتبة وهبه سنة ١٩٨١ م

(ب)

— البهائية تاريخها وعقيدتها

الاستاذ عبد الرحمن الوكيل — ط السنة المحمدية بعصر سنة ١٩٦٢م •

— بعينه المرتاد •

ابن تيمية •

— البداية والنهاية •

ابن كثير •

(ت)

— الترغيب والترهيب للمذري

— التفسير والمفسرون •

د • محمد حسنين الذهبي — ط دار الكتب الحديثة القاهرة

• ١٣٨١هـ — ١٩٦١م •

— تفسير ابن كثير •

ط • دار الفكر لابن كثير •

— تاريخ الطبري •

• للامام الطبري •

— تاريخ الفلسفة الحديثة

ط • دار المعارف سنة ١٩٦٩م

— تاريخ الفلسفة العربية

برفرا ندرس — ترجمه محمد فتحى الشنيطى ط • الهيئة المصريه

العامه للكتاب سنة ١٩٧٧م •

- تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيق •
- مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٥م
- تحت راية الفكر •
- مصطفى صادق الرافعى — المكتبة التجارية ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م •
- تطبيس ابليس •
- لابن الجوزى
- تهافت الفلاسفة •
- أبو حامد الغزالى •
- تحديد التفكير الدينى فى الإسلام .
- محمد اقبال — ترجمة عباد محمود ومراجعة د • مهدى علام — لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٦٨م •
- تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام •
- د • محمد على أبو ريان ط • دار الجامعات المصرية سنة ١٩٧٠م •
- تنمية اقتصادية وثقافية •
- د • جلال أمين مطبوعات القاهرة ١٩٨٣م •
- التفسير الاسلامى للتاريخ •
- د • عماد الدين خليل ط • دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨م •
- التاريخ الاسلامى والمذهب المادى فى التفسير •
- د • محمد فتحى عثمان الدار الكويتية سنة ١٩٦٩م •

- تفسير المنار لرشيد رضا •
- مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٠م
- تاريخ الخلفاء
- السيوطي ط • التجارية ١٣٩٠هـ — ١٩٦٩م •

(ح)

- حاضر العالم الاسلامي •
- شكيب أرسلان
- الحركات الباطنية في الاسلام
- مصطفى غالب — ط • دار الكاتب العربي •
- حقيقة البائية والبهائية •
- د • محسن عبد الحميد • ط • المكتب الاسلامي سنة ١٩٧٥م
- الحضارة من سلسلة عالم المعرفة •
- حسين مؤنس • المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت
- ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م •
- الحركات السرية في الاسلام •
- د • محمود اسماعيل — من سلسلة كتاب روز يوسف — مايو ١٩٧٣م

(ج)

- جمال الدين الافغانى •
- د • محمود قام ط • الانجلو المصرية •

(ج)

— الفوارج •

• د. مصطفى حلمي — ط • دار الانصار القاهرة •

(د)

— دفاع عن الشريعة

منشورات العصر الحديث — بيروت سنة ١٩٧٢م — علال الفاس

الدين — د. محمد عيد علي دراز — دار القلم بالكويت • سنة ١٣٩٠هـ

— ١٩٧٠م

— دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين •

ط • دار الانصار — الشيخ محمد الغزالي •

— درء تعارض العقل والنقل

ابن تيمية • تحقيق د. محمد رشاد سالم ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م •

— دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية

هيو ج اتكن — ترجمة د. محمود زايد ط • دار العلم للملايين بيروت

سنة ١٩٦٣م تقديم د. قسطنطين ذريق •

— دراسات عن البهائية والبابية

محمد كرد علي — ط • المكتب الاسلامي سنة ١٩٧٧م •

(ر)

— الرد على الجهمية •

الدارمى من كتاب عقائد السلف •

(ز)

— الزريعة الى مكارم الشريعة •

بتحقيق د. عبد الرؤوف ط • الكليات الازهرية بمصر ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

(س)

— سقوط الحضارة •

كولون ولسون •

— الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات للتغريب

مطبعة الرسالة •

— سر تطور الامم

جوستاف لوبون — ترجمة فتحى زغلول باشا مطبعة المعارف بمصر

سنة ١٩١٣ م •

— الاسلام قوة الغد •

ياول شمتر — الترجمة العربية •

— الاسلام الممتحن •

محمد الحسنى — ط • المختار الاسلامى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

- الاسلام على مفترق الطرق •
- ترجمة د • محمد فرج تأليف محمد أسد ط • دار العلم للملايين بيروت
- سلوك المالك في تدبير الممالك
- ط • دار الشعب — القاهرة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م •
- الاستيعاب في معرفة الاصحاب •
- تحقيق على البجاوى — مكتبة نهضة مصر بالفجالة •

(ش)

- شخصيات قلقة في الاسلام •
- د • عبد الرحمن بدوى • ط • دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٤ م •
- الشرح والابانة
- ابن بطه •
- شرح العقيدة الاصفهانية •
- ابن تيمية — ط • كردستان العلمية •
- الشيعة في عقائدهم وأحكامهم
- السيد الكاظمي القرويني — ط • الدار الزهراء — بيروت ١٣٩٧ هـ
- ١٩٧٧ م •

(ص)

- الصقدية •
- ابن تيمية — تحقيق د • محمد رشاد سالم — ط • الرياض ١٣٩٦ هـ
- ١٩٧٦ م •

— صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام •

السيوطى — تحقيق د. النشار وسعاد عبد الرازق ط • مجمع
البحوث الاسلامية ١٩٧٠م •

— الصراع بين الموالى والعرب •

ط • دار الكاتب العربى بمصر سنة ١٩٥٤م

(ع)

— عوامل ضعف المسلمين •

سميح عاطف الزينى — ط • دار الكتاب اللبنانى •

— المسوائق

محمد أحمد الراشد — ط • مؤسسة الرسالة — بيروت ١٣٩٧ هـ

— ١٩٧٧م •

— على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى •

ابراهيم بن على الوزير — دار الشروق ١٩٧٩م •

— عقائد السلف •

تحقيق د. على سامى النشار و د. عمار الطالبي — منشأة المعارف

سنة ١٩٧١م •

(غ)

— غيـاث الامم •

الجوينى — تحقيق د. مصطفى حلمى و د. فؤاد عبد المنعم — ط •

دار الدعوة • اسكندرية ١٤٠٠ هـ •

— الغزو الفكرى فى العالم العربى

عبد الله عبد الجبار •

(ف)

— الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا •

أنور الجندى — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة ١٣٨٥ هـ

• ١٩٦٥م

— فلسفة أوجست كونت •

ليفى بريل — ترجمة د. محمود قاسم و د. السيد بدوى مكتبة الانجلو

— الفكر الاسلامى فى مواجهة الافكار الغربية •

محمد المبارك — ط • دار الفكر ١٩٧٠م

— فتاوى ابن تيمية •

ط • الرياض •

— فن الفلسفة •

د. محمد بيومى مذكور — ط • الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م •

— الفرق بين الفرق •

البغدادى •

— الفرقان بين الحق والباطل •

ابن تيمية — ط • السنة المحمدية بالقاهرة •

— الفصل بين الملل والنحل — لابن حزم

— فى الدين المقارن •

د. محمد كمال جعفر — ط • دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠م •

(ق)

- قواعد المنهج السلفى •
- ط • دار الانصار — القاهرة •
- قصة الايمان بين الفلسفة والعقل والدين •
- نديم الجسر — المكتب الاسلامى — بيروت ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م •
- القرامطة — لابن الجوزى
- تحقيق د • الصياغ — ط • المكتب الاسلامى •
- الاقتصاد الاسلامى — مقوماته ومنهجه •
- د • ابراهيم دسوقي — ط • دار الشعب •
- القاديانى والقاديانية •
- ط • دار السعودية للنشر بجدة سنة ١٩٧١ م •
- القاديانية نشأتها وتطورها •
- ط • مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م •

(م)

- مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين
- أبو الحسن الاشعري — تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد
- مكتبة النهضة المصرية — ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م •

— المصحف المفسر

• الشيخ عبد الجليل عيسى — ط • دار الشروق ١٣٩١ هـ •

— المدخل الى الثقافة الاسلامية •

• د • رشاد سالم — دار القلم بالكويت ١٩٧٧ م •

— المذاهب الاسلامية •

• الشيخ محمد أبو زهرة باشراف وزارة التربية والتعليم بمصر •

— مختصر سيرة الرسول ﷺ •

• ط • السلفية بمصر سنة ١٣٩٧ هـ •

— الملل والنحل •

• الشهرستاني — ط • مكتبة الانجلو المصرية ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م •

— المنار في الصحيح والضعيف

ابن القيم — تحقيق أبو عزة • مكتبة المطبوعات الاسلامية — حلب

• ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م •

— مختصر دراسة التاريخ

• توينبي •

— معايير علم الاجتماع •

• لروجيه باستيد — د • محمود قاسم ط ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م •

— موقف الاسلام من المعرفة والتقدم الفكري •

• د • محمود عبد الله •

• موجز تاريخ الدين واهيائه — للمودودي •

• ط • الفكر الحديث — لبنان ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م •

- ملف اسر ائيل — أحلام الان صهيونية وأضاليلها •
- رجاء جارودى — منشور بالاهرام بتاريخ الخميس ١٧ مارس
سنة ١٩٨٣م
- مختصر دراسة التاريخ •
- ط ١٩٦٤م ترجمة فؤاد محمد شبل — جامعة الدول العربية •
- منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين
- د • مصطفى حلمى ط • دار الدعوة بالاسكندرية •
- منهاج السنة لابن تيمية
- تحقيق د • رشاد سالم •
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين •
- أبو الحسن العدوى •
- المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام •
- الدار السعودية بجدة سنة ١٣٨٤هـ • د • الصواف •
- (ن)
- النظم أو المؤسسات الاجتماعية •
- هاري المربارنز •
- نظام الخلافة في الفكر الاسلامى •
- د • مصطفى حلمى — ط • دار الدعوة بالاسكندرية •
- النبوءات — ابن تيمية •
- ط • السلفيه ومكتبتها — القاهرة ١٣٨٦هـ •

— النصيريون •

السيد عبد الحسين العسكري — ط • شركة الشعاع للنشر بالكويت
١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م •

(J)

— لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب الحنبلي •
ط • مكتبة الرياض الحديثة — الرياض •

(و)

— وحدة الفكر الاسلامي •

مقدمة للوحدة الاسلامية الكبرى — ط • دار الاعتصام ١٩٧٥م

(ى)

— يا مسلمي العالم اتحدوا •

عبد الفتاح عبد الحميد — دار الانصار القاهرة سنة ١٩٧٦ •

الفهرس

صفحة	الموضوع
٥	تمهيد
	● الفصل الاول
	السلفية وفق التصور الغربى
١٣	— مقدمة
١٥	أولا : السلفية فى التفسير الحضارى (أرنولد توينبى)
١٧	ثانيا : التصور الفلسفى فى التاريخ والاجتماع البشرى (كونت وقانون الاحوال الثلاثة)
٢٣	ثالثا : السلفية والايدىولوجية الماركسية
٢٨	رابعا : المذهب السلفى فى الفكر الفلسفى الغربى
٣٧	صدى الصراع العقائدى
٣٧	أولا : الاتجاه الاول
٣٨	ثانيا : الاتجاه الثانى
٣٩	ثالثا : الاتجاه الثالث
	● الفصل الثانى :
	السلفية والحضارة
٤٥	— مقدمة
٤٥	أولا : الحضارة الاسلامية

الموضوع	صفحة
ثانيا : السلفية والحضارة الاسلاميه	٤٨
ثالثا : الحضارة الاسلامية في عصر السلف الصالح	٥٠
رابعا : الاسلام دين التوحيد	٥٥
— منهج السلف والنظر العقلى	٥٨
أو موقفهم من علم الكلام والفلسفة	
— مكانة العقل في المذهب السلفى	٥٩
— تاريخيا	٥٩
— موضوعيا	٦٢
— أسباب مناهضة السلف للمتكلمين	٦٧
في الدين بغير طريقة المرسلين	
— موقف السلف من الفلسفة اليونانية	٧٥
— العقل بين الفلسفة اليونانية والشرع الاسلامى	٨٢
— تجديد المنهج السلفى على يد شيخ الاسلام ابن تيمية	٨٩
— الميزان القرآنى	٩٢
— قياس الاولى	٩٣
— دليلا الاعتبار واللزوم	٩٥
— أثر عقيدة التوحيد عند السلف في النظر العلمى للمسلمين	٩٨

صفحة

الموضوع

● الفصل الثالث :

المفارقون لطريقة السلف والسنة

١ — في دائرة الاسلام :

١٠٩ — الخوارج والشيعة الاذنى عشرية

١٠٩ أولا : الخوارج

١١٥ ثانيا : الشيعة وعقائدها

١١٧ ١ — الاثنى عشرية

١٢١ ٢ — الزيدية

١٢٣ — موقف علماء السلف والسنة من التشيع

١٢٣ أولا : موقفهم من الخلفاء الراشدين

١٢٤ ثانيا : الخلافة والامامة

١٢٥ ثالثا : الامامة بالاختيار لا بالنص

١٢٨ — الامامة أو الخلافة عند أهل السنة

١٢٩ القاعدة الاولى

١٢٩ القاعدة الثانية

٢ — المارقون عن الاسلام :

١٢٢ أولا : الباطنية أو الاسماعيلية

١٢٣ عوامل تعدد الفرق

١٢٣ — العامل الاول

الموضوع	صفحة
— العامل الثاني	١٣٥
— كلمة عن المنهج	١٣٦
— طريقة الدعوة الباطنية	١٣٧
— التدرج في الدعوة	١٣٩
— بعض دعاة الباطنية	١٤٠
— عبد الله بن سبأ	١٤١
— حركة القرامطة الباطنية	١٤٩
— الحسن بن الصباح	١٥١
— مناقشة المدافعين عن الباطنية	١٥٦
— بواعث الحركة وأهدافها	١٥٧
— فكرة عن تفسير ابن تيمية للتاريخ	١٥٩
ثانيا : البابية والبهائية	١٦٩
١. — البابية	١٦٩
— عقيدة الباب وتعاليمه	١٧٣
٢ — البهائية	١٧٤
ثالثا : القاديانية	١٧٧
— شخصية المرزا علي أحمد	١٧٨
رابعا : النصيرية	١٨٢

صفحة

الموضوع

● الفصل الرابع :

- ١٩١ هدف السلفية وضوابطها
- ١٩٣ — تمهيد
- ١٩٦ — هدف السلفية وضوابطها
- التقدم في ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة معناه وتاريخ ظهوره
- ٢٠٩
- ٢١٢ — التقدم في ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة
- ٢١٣ — هل تحققت السعادة في ظل التقدم ؟
- ٢١٦ أولا : الآثار النفسية للحضارة المادية
- ٢٢١ — ضرورة العقيدة في السعى للتقدم
- ٢٢٣ — النظرة الشمولية للإسلام.
- ٢٣٤ — أدلة الكتاب والسنة
- ٢٣٨ — الزمن كمقياس للتقدم
- ٢٤٠ ثانيا : لا يصلح الزمن مقياسا للتقدم
- ٢٤١ — الزمن في القرآن الكريم
- ٢٤٣ ثالثا : التقدم في الإسلام
- ٢٤٤ (أ) في الكتاب
- ٢٤٥ (ب) السنة

تصويب :

— حدث خطأ في الآية ص ٦٥ وصحتها :

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ..)

— و ص ١٥ بالهامش ينظر الفصل الثانی

ونترك باقى الاخطاء البسيطة لفطنة القارئ ونعتذر عنها *

رقم الايداع
١٩٨٣ - ٤٧٥١